وزارة الثقافة

المختار من التراث العربي

(٧٢)

من
نثر الدر

للوزير الكاتب أبي سعد منصور بن الحسين الآبي

المتوفى سنة ٤٢١ هـ

السفر الثاني

اختار النصوص وقدم لها وعلق عليها

مظهر الحجي

الإشراف الفني : زهير الحمو

من نثر الدر ـ السفر الثاني

وزارة الثقافة

المختار من التراث العربي

٧٢

من نثر الدر

للوزير الكاتب أبي سعد منصور بن الحسين الآبي

المتوفى سنة ٤٢١ هـ

السفر الثاني

اختار النصوص وقدم لها وعلق عليها

منظر الحجي

منشورات وزارة الثقافة

في الجمهورية العربية السورية

دمشق ١٩٩٧

من نثر الدر / أبو سعد منصور بن الحسين الآبي، اختار النصوص وقدم لها وعلق عليها مظهر الحجي. - دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٩٧. - ٤ ج؛ ٢٠ سم. - (المختار من التراث العربي؛ ٧١ - ٧٤).

١- ٨١٨,٠٢ س ع د م ٢- العنوان ٣- أبو سعد الآبي
٤- الحجي ٥- السلسلة

مكتبة الأسد

الايداع القانوني: ع - ٤٤١ / ٣ / ١٩٩٧

الباب الأوّل

كلام معاوية بن أبي سفيان وولده

قال الهَيْثَمُ (١) : خرج معاويةُ يريدُ مَكَّةَ ، حتى إذا كان بالأَبواء (٢) اطَّلَعَ في بئرٍ عادِيةٍ (٣) ؛ فأصابتْهُ اللَّقْوَة (٤) . فأتى مكةَ ، فلما قَضَى نُسُكه ، وصار إلى منزِله ، دعا بثوبٍ ، فلفَّه على رَأْسه ، وعلى جانِب وجهِه الذي أصابه فيه ما أصابه ، ثم أذِن للناسِ فدخلُوا عليه ، وعنده مروانُ ، فقال :

إنْ أكُن قد ابتُلِيتُ فقد ابتُلِي الصالحون قَبْلي ،

(١) هو الهيثم بن عدي أبو عبد الرحمن الطائي الأخباري المؤرخ ، توفي سنه ٢٠٧ هـ .

(٢) الأبواء . قرية بينها وبين المدينه ثلاثة وعشرون ميلا ، بها قبر والدة الرسول عليه السلام .

(٣) بئر عادية : قديمة نسبة إلى عاد

(٤) اللقوة . داء يصيب الوجه فيعوج الفم أو جانب منه .

وأرجو أن أكونَ منهم وإنْ عُوقِبتُ فقد عُوقب الظالمُون قبلي، وما آمَنُ أن أكونَ منهم، وقد ابتُليتُ في أحسني (١) وما يَبدُو مني . وما أحصي صحيحي . وما كان لي على ربِّي إلا ما أعطاني . واللهِ إنْ كان عَتَبَ بعضُ خاصَّتِكم لقد كنتُ حدباً على عامَّتِكم ؛ فرحمَ اللهُ امرءًا دعا لي بالعافية .

دخل المسْوَر على معاويةَ ، فقال له : كيف تركتَ قريشاً ؟ قال : أنتَ سيدُها يا أميرَ المؤمنين ، أعلاها كَعْباً ، وأسودُها (٢) أباً ، وأرفعُها ذِكْراً وأجلُّها قدراً . قال : كيف تركتَ سعيداً (٣) ؟ قال : عليلاً . قال : للَيدينِ وللفَم (٤) :

---

(١) المعنى : في أحسن عضو . والظاهر لكل إنسان وهو وجهه .

(٢) أسودها . من السيادة .

(٣) يريد سعيد بن العاص كما سيتبين من الكلام بعد

(٤) هذا من أقوال العرب في الدعاء على الإنسان : أي : أسقطه الله لليدين والفم

بِهِ لا بِظَبْيٍ بالصَّرِيمَةِ (١) أعْفَراً (٢)

قال : وعمرو بن سعيدٍ صبيٌّ يسمعُ قوله من وَرَائِه . فقال : إِذاً والله لا يسدُّ جُفرتَكَ (٣) ، ولا بزيد في رزقِك ، ولا يدفع حتْفاً عنْكَ ، بل يفتُّ في عضُدِك ، ويهيضُ ظهرك ، وينشرُ أمرَكَ ، فتدعُو فلا تُجاب ، وتَتَوعَّدُ فلا تُهَاب .

فقال معاوية : أبَا أُمية ؛ أراك ها هنا . إِنَّ أبَاكَ جارَانا إلى غايةِ الشرف ، فلم نَتعلق بآثارِه ، ولم نقُم لِمحفَارِه (٤) ، ولم نلحق بمِضمارِهِ ، ولم نَدنُ من غُبَارِه ، هذا مع قوة مكانٍ ، وعزة سلطان . وإنَّ

---

(١) الصريمة : القطعة المنفردة من الرمل

(٢) عجز بيت صدره

أقول له لما أتاني نعيه

والبيت للفرزدق .

(٣) الجفرة : مجمع البطن والصدر .

(٤) المحفار . الفرس الشديد العدو .

أثقل قومنا علينا مَن سبقنا إلى غاية تترف ؛ فأخذ أبوكَ علينا القَصَبة (١) ، وملكَ دوننا الغلبة .

رُوِيَ أن عمرَ بن الخطّاب — رضي الله عنه — قدم الشامَ ، ومعه عبدُ الرحمن بن عوف أو أبو عبيدة ، وهما على حمارين قريبين من الأرض ، فتلقّاهما ، معاويةُ في كوكبة (٢) خَشْناء ؛ فثنّى وَرِكَه ، فنزلَ ، وسلَّم بالخلافة : فلم يردَّ عليه ، فقال له عبد الرحمن أو أبو عبيدة : يا أمير المؤمنين أحضرتَ الفتَى(٣) فلو كلمتَه . فقال : إنكَ لصاحبُ الجَيْش الذي أرَى ؟ قال : نعم . قال : مع شِدَّةِ احتجابِكَ ، ووقوفِ ذوي الحوائج ببابك ؟ قال : أجل . قال : لمَ ؟ ويلَكَ ! قال : لأنَا ببلاد يكثُر بها جواسيسُ العدوّ ، فإن نحنُ لم نتَّخذْ العُدَّةَ والعدد استخفَّ بنا . وهجم على عورتنا . وأنا

---

(١) المراد : سبق إلى المعالي يقال للمراهن في السباق : أحرز القصبة ، لأنهم كانوا يركزون قصبا عند غاية المضمار .

(٢) الكوكبة : الجماعة ، والخشناء : الكثيرة السلاح .

(٣) بمعنى حثثت به أو دعوته .

ـ بعدُ ـ عامُلك ؛ فإن وقفْتني وقفتُ ، وإن استزدتني زِدتُ ، وإن استنقصتني نقصتُ .

قال : والله لئن كنتَ كاذباً إنه لرأيُ أريبٍ . ولئن كنت صادقاً إنه لتدبيرُ أديب . ما سألتُك قطُّ عن شيءٍ إلا تركتني فيه أضيقَ من رواجبِ الضِّرس (١) . لا آمرُك ولا أنهاك .

فلما انصرف قال له صاحبه : لقد أحسَنَ الفتى في إصدارِ ما أوردتَ عليه . قال : بحسن إصدارِه وإيرادِه جشَّمناه (٢) ما جشَّمناه .

قال معاويةُ : معروفُ زماننا هذا منكرُ زمانٍ قد مضى ، ومنكرُ زمانِنا هذا معروفُ زمانٍ لم يأتِ .

ومن كلامه : الفرصةُ خُلْسة ، والحياءُ يمنع الرزقَ ، والهَيبةُ خيبةٌ ، والحِكْمةُ ضالّةُ المؤمن .

---

(١) الرواجب . أصول الأصابع ، والضرس : الرجل الداهيه والمراد تركتني في أمر يصعب علي الخروج منه .

(٢) جشمه : كلفه أمرا فيه مشقه .

وقال ذاتَ يومٍ لابنه يزيد : يا بُنيَّ ؛ لا تستفسدِ الحر فساداً لا تصلحُهُ أبداً . قال : بماذا ؟ قال : لا تشتُمَنَّ لَهُ عِرضاً ، ولا تضربَنَّ له ظَهْراً ، فإن الحرَّ لا يرى الدُّنيا عِوضاً مِن هذين ، ولكن خُذ مالَه ، ومتى شئتَ أنْ تُصلِحَهُ فمالٌ بمالٍ .

وقال له عمرو بن العاص : قد أعياني أن أعلمَ شُجَاعٌ أنْتَ أم جبان ؟ فقال :

شجاعٌ إذا ما أمكنتْنِيَ فرصةٌ
وإن لم تكُنْ لي فرصةٌ فجبانُ

وقال لعاملٍ له : كُلْ قليلاً تعملْ طويلاً ، الزمِ العفاف يلزمك العملُ ، وإيَّاك والرُّشا يشتد ظهرُك عند الخصام .

ورفع يوما ثُنْدوتَيه (١) بيديه ، ثم قال : لقد علمَ الناسُ أن الخيلَ لا تجري بمثلي ، فكيف قال النجاشي : (٢)

---

(١) الثندوة : عند الرجل تقابل الثدي عند المرأة . أراد معاوية أن يدل على بدانته وثقل وزنه .

(٢) النجاشي هو قيس بن عمر بن مالك شاعر إسلامي .

ونجّى ابنَ حربٍ سابحٌ (١) ذو عُلالةٍ (٢)

أجَشُّ (٣) هزيمٌ والرمـاحُ دوَانِ

وقال : إني لأكره النَّكارة (٤) في السيد ، وأحبُّ أن يكونَ غافلاً أو متغافلا (٥) .

وقال لأبي الجَهْم العدَوي : أنا أكبرُ أم أنتَ يا أبا الجهم ؟ فقال : لقد أكلتُ من عُرسِ أمِّك . فقال : عند أيِّ أزواجها ؟ قال : في عرسِ حفص بن مغيرة فقال : يا أبَا الجهم ؛ إيَّاك والسلطانَ ، فإنه يغضبُ غضبَ الصبيِّ ، ويعاقب عقوبةَ الأسد ، فإنَّ قليلَه يغلِبُ كثيرَ الناس .

وقال يوماً : أنا أعرِفُ أرخصَ ما في السوق وأغلاهُ ،

---

(١) السابح : الفرس . وتسمى الخيل السوابح ؛ لأنها تسبح في سيرها .

(٢) العلالة : بقية جري الفرس .

(٣) الأجش : الغليظ الصوت ، أو الذي جهد صهيله ، والهزيم من الخيل : الشديد الصوت .

(٤) النكارة : الفطنة والدهاء .

(٥) المتغافل : الذي يظهر الغفلة وليست فيه .

فقيل : وكيفَ ذاكَ ؟ فقال : أعلمُ أن الجيِّدَ رخيصٌ والرديء غالٍ .

ولما مات زياد وفد عليه عبيدُ الله ابنُه . فقال لهُ : من استخلفَ أخي على عمله بالكوفة ؟ قال : عبدَ الله ابنَ خالدٍ أُسَيد (١) قال : فعلى البَصرة ؟ قال : سمرةَ ابنَ جُنْدُب (٢) . فقال له معاوية : لو استعملك أبوكَ استعملتُك ! . فقال له عبيدُ الله : أَنْشُدكَ اللهَ أنْ يقولَها لي أحدٌ بعدَك : لو ولاّك أبوك ، وعمُّك وَلَّيْتُكَ . فولاّه خُراسانَ .

وأوصاهُ فقال : اتّقِ اللهَ ولا تُؤْثِرَنَّ على تقواه شيئاً ، وَقِ عِرضَكَ (٣) من أن تُدَنِّسَهُ وإذا أعطَيتَ

---

(١) عبد الله بن خالد بن أسيد اختلف في كونه مخزوميا أو أمويا . ولي فارس من قبل معاوية واستخلفه زياد على البصرة .

(٢) سمرة بن جندب بن هلال كان على شرطة زياد ، وكان من الحفاظ المكثرين . مات سنة ٥٨ هـ .

(٣) ق عرضك : احفظه وصنه ، فعل أمر من وقى . ف : فعل أمر من وفى .

عهداً فَفِ به ، ولا تَبيعَنَّ كثيراً بقليل ، وخذ لنَفْسِكَ من نَفْسِكَ ، ولا يخرجَنَّ منك أمرٌ حتى تُبرِمَه ، فإذا خرج فلا يُرَدَّنَّ عليك . وإذا لقيتَ عدوَّكَ فغلبَك على ظهرِ الأرضِ فلا يغلبنَّكَ على بطنها ، وإن احتاجَ أصحابُك أن تُواسيَهم بنَفْسِكَ فواسِهم ، ولا تُطْمِعنَّ أحداً في غيرِ حقِّه ولا تُؤيِسَنَّ أحداً من حقٍ هو لَه .

وخطب مرَّة فقال : أيها الناسُ ، إنا قد أصبحْنَا في دهرٍ عَنُود ، وزمنٍ شديد ، يصبحُ فيه المحسنُ مُسيئاً ، ويزدادُ الظَّالمُ عُتُوّاً ، لا نَنتفعُ بما عَلِمْنَا ، ولا نسأل عمَّا جهِلْنَا ، ولا نَتَخَوَّفُ قارعةً حتى تَحُلَّ بنا ، فالناسُ على أربعةِ أصناف : منهم مَن لا يمنعُه من الفساد إلا مهانَةُ نفسه ، وكلالُ حدِّه ، ونَضيضُ (١) وفْرِه ومنهم المُصْلِتُ (٢) لسَيْفِه ، المُجلِبُ برَجْلِه ، المُعلِنُ بشرِّه ، قد أشرطَ نفسَه (٣) ، وأوبق دِينَه (٤)

(١) النضض القليل وهو في الأصل الماء القليل ، والوفر المال المدخر .

(٢) أصلت سيفه : جرده من غمده . وأجلب برجله : جاء برجاله

(٣) أشرط نفسه : أعلمها وأعدها .

(٤) أوبق دينه : أهلكه .

لحطامٍ ينتهزُه ، ومِقْنَبٍ (١) يقوده أو منبرٍ يفرَعُه (٢)، ولبئسَ المتجرُ أنْ تراهما لنفسك ثمنا ، ومِمّا لك عند الله عوضاً . ومنهم من يَطْلُبُ الدنيا بعَمَلِ الآخرة ، ولا يطلبُ الآخرةَ بعملِ الدُّنيا ، قد طامنَ من شَخْصِهِ ، وقاربَ من خَطْوِهِ ، وشمَّر من ثَوبِه ، وزخرف نفسَه للأَمانةِ ، واتخذ سترَ اللهِ ذَرِيعةً إلى المعصية . ومنهم مَن أقعده عن طلب المال نَفْسه ، وانقطاعُ سَبَبِه ، فقصَّر به الحالُ على حالِه ، فتحلَّى باسْمِ القَناعة ، وتزيّن باسم الزّهاد ، وليس من ذلك في مراح ولا مغدى .

وبقي رجالٌ غَضَّ أبصارَهم ذِكرُ المَرْجِعِ ، وأراق دموعَهم خوفُ المَحْشَر ؛ فهم بين شريدٍ نَادٍّ (٣) وخائفٍ مُنْقَمِعٍ (٤) وساكتٍ مَكْعُوم (٥) ، وداعٍ

---

(١) المقنب : جماعة الخيل والفرسان بين الأربعين والخمسين .
(٢) فرع المنبر : علاه .
(٣) الناد : الشريد النافر .
(٤) المنقمع : الذليل ، وانقمع الرجل : ذل .
(٥) مكعوم من كعمه : سد فمه .

مُخلص ومُوجَع ثكلانَ ، قد أخملتهمُ التّقية ، وشملتهم الذِّلّة ؛ فهم في بحرٍ أُجاج ، أفواهُهُم ضامرة ، وقلوبهم قَرِحة . وَعَظُوا حتّى ملّوا ، وقُهِروا حتّى ذلّوا ، وقُتِلوا حتّى قلّوا ؛ فلتكنِ الدنيا أقلَّ في أعينكم من حُثالة القَرَظِ (١) وقُرَاضَةِ (٢) الجَلَم واتّعِظُوا بمن كان قبلكم ، قبل أن يتّعِظَ بكم من بعدكم .

قدم رجلٌ من مصر عليه ، فإنه ليحدثُه إذ حَبَقَ (٣) ؛ فانقبض وترك الكلام ، فقال معاوية : خذْ فيما كنتَ فيه . فما سمعتُها من أحد أكثرَ مما سمعتُها من نفسِي .

ودخل عليه رجلٌ مرتفعُ العطاء فرأى في عينَيه رَمَصاً (٤) ؛ فحطّ عطاءه وقال : يعجزُ أحدُكُم إذا أصبحَ أن يتعهّد أديمَ وجهِهِ .

---

(١) حثالة القرظ : نفايته ، والقرظ : ورق شجر السلم .

(٢) القراضة : ما يتساقط من الثوب عند قصه . والجلم : المقص .

(٣) حبق : ضرط .

(٤) الرمص : قذى العين .

وقال لقريش في خلافته : إني أقَعُ إذا طرتم ، وأطير إذا وقعتُم ، ولو وافق طيراني طيرانكم لاختلفنَا .

وقال : العيال أَرَضَةُ (١) المال .

وقيل له : ما بَلَغَ من عقلك ؟ قال : لم أثقْ بأحدٍ .

ونظر إلى يزيدَ وهو يضربْ غُلاماً له ؛ فقال له : لا تُفسِد أدَبك بتأْديبه ، ولكن وكِّلْ به من يؤدبه .

رُوي عن بعضهم أنه قال : قدم معاوية المدينة ، فدنوتُ من المنبر لأحفظَ عنه ؛ فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

أما بعد ، فإنَّا قدمنا على صديق مستبشر ، وعلى عدو مُستَبْسِر ، وناسٍ بين ذلك ينظرون وينتظرون ؛ فإن أُعطُوا منها رضُوا ، وإن لم يُعطَوا منها سخطوا . ولسنَا نَسعُ الناسَ كلَّهم، فإن تكن محمَدةٌ فلابدَّ من لائمة ، ليكنْ لوماً هوناً ، إذا ذكر غَفَر ، وإيّاكم

---

(١) الأرضة : دويبة قارضة ، والمراد : تفني المال كما تفني الأرضة ما تقرضه .

والعُظْمى التي إن ظهرت أوْبَقَت ، وإن خَفِيَتْ أوْتَغَتْ (١) .

وبلغه أنّ ابنته امتنعت على ابن عامرٍ في الافتضاض ، فمشى إليها يَتَوَذّف (٢) في مِشْيته ، وفي يده مخصرة ، فجلس ، وجعل ينكتُ في الأرض ويقول :

مِنَ الخفِرَات البيضِ ، أمّا حرامُها
فصعبٌ ، وأما حلّها فذَلُولُ

وخرج ، ودخل ابنُ عامرٍ فلم تمتنع عليه .

وسُئل : ما النُّبل ؟ . فقال : الحلمُ عند الغضبِ ، والعفوُ عند المقدرة .

وقال : الدنيا بحذافيرِها (٣) الخفضُ والدّعَةُ .

وقال له رجل : والله لقد بايعتُك وأنا كارهٌ . فقال : قد جعل اللهُ في الكره خيرا كثيرا .

---

(١) أوتغت : أهلكت . وأوبقت : أهلكت .

(٢) يتوذف : يسرع الخطا ويقاربها .

(٣) حذافيرها : جمع حذفور وهو الجانب والمراد : كل ما تشتمل عليه .

وكان يَأْذَنُ للأحنفِ في أوّلِ مَنْ يأْذنُ له ، فأذِن له يوماً ، ثم أذِنَ لمحمد بن الأشعث ، فجاء محمدٌ فجلس بينَ معاويةَ وبين الأحنفِ ؛ فقال لهُ معاوية : لقد أحسستَ في نفسِك ذُلاًّ ، إني لم آذَن لهُ قبلَكَ ليكون في المجلس دونَك ، وإنّا كما نملِكُ أمورَكم نملِكُ تأْديبَكُم ، فأريدُوا ما يرادُ بكم ؛ فإنه أبقَى لنِعمتِكم ، وأحسنُ لأدبِكُم .

وقال معاويةُ في النساء : إنهنّ يغلِبنَ الكرام ، ويَغْلِبُهُنّ اللئّام .

وفخر عنده سُلَيم مولى زيادٍ ، فقال معاويةُ : اسكتْ ، فواللهِ ما أدركَ صاحبُك شيئاً بسيفهِ إلاّ وقد أدركتُ أكثرَ منه بلساني .

* * *

يَزِيدُ بنُ مُعَاوِيةَ وَوَلَدُهُ

كتب إلى أهل المدينة : أما بعدُ ، فـ « إنّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَومٍ حتّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِم وَإِذَا

أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ ، وَمَالَهُم مِن دُونِهِ مِن وَالٍ)» (١) وإني والله لقد لبستكم فأخلقتكم (٢) ، ورفقتُ بكم فأخرقتكم (٣) . ثم وضعتكم على رأسي ، ثم على عيني ، ثم على فمي ، ثم على بطني ، وايمُ اللهِ لئن وضعتكم تحت قدمي لأطأنكم وطأة أُقِلُّ بها عددكم ، وأذل غابركم ، وأتركُكُم أحاديثَ تنسخ فيها أخباركم مع أخبارِ عادٍ وثمودٍ .

لعلَّ الحلمَ دلَّ (٤) عليَّ قومي
وقد يُستجهلُ الرجلُ الحليمُ (٥)

تكلَّم يوماً عند معاوية الخطباءُ فأحسنوا وأكثروا ؛ فقال : واللهِ لأرمينَّهم بالخطيبِ الأشدقِ (٦) ، قُمْ يا يزيد فتكلَّم .

---

(١) سورة الرعد : ١١ .
(٢) أخلقتكم : أبليتكم .
(٣) أخرقتكم : سببت لكم الخرق وهو الحمق .
(٤) دل : جرأ ، من الدلال .
(٥) البيت لقيس بن زهير العبسى .
(٦) الأشدق : الواسع الشدقين .

ذكر أنَّ الحجاجَ لما أكرهَ عبدَ الله بنَ جعفرٍ على أن يزوِّجَه ابنتَه (١) استأجله في نقلها سنة ، ففكر عبدُ الله في الانفكاك منه ، فأُلقي في رُوعه خالدُ بنُ يزيد ابن معاويةَ ، فكتب إليه يُعْلمه ذلك . وكان الحجاجُ تزوجها بإذْن عبدِ الملك ، فوردَ على خالد كتابُه ليلاً ، فاستأْذن مِن ساعته على عبد الملك ، فقيل : أفي هذا الوقت ؟ فقال : إنه أمرٌ لا يؤخَّر ، فأعلم عبدُ الملك بذلك . فأذن لَه ، فلما دخل إليه قال عبد الملك : فيمَ السُّرى(٢) يا أباهاشم؟ قال : أمرٌجليلٌ ، لم آمنْ أن أُؤَخِّره ، فتحدثَ عليَّ حادثةٌ ، فلا أكونَ قضيتُ حقَّ بَيعتك . قال : ما هو ؟ قال : تعلمُ أنَّه كان بين حَيَّين من العداوةِ والبغضاءِ ، ما كان بينَ آلِ الزبير وبيننا ؟ قال : لا . قال : فإنَّ تَزوُّجي إلى آل (٣) الزبير حلَّلَ لهم ما كان

---

(١) هي أم كلثوم بنت عبد الله بن جعفر ، وأمها زينب بنت علي ابن أبي طالب .

(٢) السرى : السير ليلا .

(٣) تزوج خالد بن يزيد رملة بنت الزبير بن العوام وله فيها شعر .

في قلبي ، فما أهلُ بيتٍ أحبُّ إليَّ منهم . قال : إن ذلك ليكونُ ؟ قال : فكيف أذنتَ للحجاج أن يتزوجَ من بني هاشم ، وأنت تعلمُ ما يقولون ويقالُ فيهم ، والحجاجُ من سلطانك بحيثُ علمتَ . قال : فجزاهُ خيراً . وكتب إلى الحجاج يعزمُ عليه أن يُطلِّقَها . فطلَّقَها . فغدا الناس يُعَزُّونه عنها .

وكان فيمن أتاه عمرو بن عُتْبةَ بن أبي سفيان (١) ، فأوقعَ الحجاجُ بخالدٍ . فقال : كان الأمرُ لآبائه فعجز عنه حتى انتُزع منْهُ . فقال له عمرو : لا تقُل ذلك أيها الأميرُ ؛ فإن لخالدٍ قديماً سبَق إليه ، وحديثاً لن يُغْلبَ عليه ، فلو طلَبَ الأمرَ اطلبهُ بجدٍّ وجَدٍّ ، ولكنْ عام علماً فسلمَ العلم إلى أهليه . فقال الحجاجُ ؛ يا آل أبي سفيان ؛ أنتم تحبُّون أن تحالُموا ، ولا يكون الحلمُ إلا عن غضَب ، فنحن نغضبُكم في العاجل ابتغاءَ مرضاتِكم في الآجل .

---

(١) عمرو بن عتبة بن أبى سفيان ابن عم خالد بن يزيد ، قتل مع ابن الأشعث .

ثم قال الحجاج : والله لأتزوجنّ من هو أمس به رحماً ، ثم لا يمكنه فيه شيء ؛ فتزوج أمّ الخلاس بنتَ عبدِ اللهِ بنِ خالدِ بنِ أسيد .

تهدّد عبد الملك خالداً بالحرمان ، فقال خالد : أتهدّدني ، ويدُ الله فوقك مانعة ، وعطاءُ اللهِ دونك مبذول ؟ .

قال رجل لخالد بن يزيد بن معاويه : ما أقربُ شيءٍ ؟ قال : الأجل . قيل : فما أبعدُ شيءٍ ؟ قال : الأمل . قيل : فما آنسُ شيءٍ ؟ قال : الصاحب المُواتي (١) . قيل : فما أوحشُ شيء ؟ قال : الميّت .

دخل عبدُ الملك بن مروان على يزيد بن معاوية . فقال : يا أميرَ المؤمنين ؛ إن لك أرضاً بوادي القُرى (٢) ليست لها غلّة ، فإن رأيتَ أن تأمرَ لي بها فقال له يزيد : إنا لا نُخدع عن الصغير ، ولا نبخلُ بالكبير ، وهي لكَ .

---

(١) الصاحب المواتي . الموافق .

(٢) وادي القرى : وهو واد بين المدينه والشام ، من أعمال المدينة سمي كذلك لكثرة القرى فيه .

فلما ولّى قال يزيد: إن أهل الكتب يدّعون أنّ هذا يرث ما نحن فيه ، فإن كان كما قالوا فقد صانعناه ، وإن لم يكن فقد وصلناه .

قال معاوية ليزيد : إنْ كنْت بعدي – وكُنْتُه – فابدأ بالخير ، فإنه يُعَفّي (١) على الشر ، وما صنعت من شيء فاجعل بينك وبين الله ستْراً ترجوه له ، وتأْمُلُه به . وإيّاك والقتل فإن الله قاتلُ القاتلين .

وصف معاويةُ الوليد بن عُتْبة (٢) فقال : إنه لبعيدُ الغَور ، ساكن الفَور (٣) ، نبتةُ أصلٍ لا يخلف ، وسليل فحل لا يُقرِف (٤) .

ودخل خالد بن يزيد دار عبد الملكِ ، وكان يسحبْ

(١) يعفي على الشر : يزيله ويغنيه .

(٢) الوليد بن عتبة بن أبي سفيان ، ابن أخي معاوية ، اشتهر بالفصاحة والحلم والكرم .

(٣) الفور : مصدر فار والمراد قليل الغضب .

(٤) أقرف الفرس : صار هجينا وأقرف الرجل إذا كان أحد أبويه غير عربي

ثيابه ، فقام إليه عبدُ الرحمن بن الضحاك (١) يتلقّاه معظّماً له ، فقال له : بأبي أنت وأمي ، لم تُطعم الأرضَ فضول ثيابك ؟ فقال : إني أكره أنْ أكون كما قال الشاعر :

قصيرُ الثياب فاحشٌ عند بيته
وشرُّ قريشٍ في قريشٍ مُركّبَا (١)

وهذا البيت هُجي به الضحّاكُ . قال الجاحظ : لو لم يتكلفْ مالا يعنيه لم يسمع هذا الجواب .

قال بعضهم : كنتُ عند معاويةَ إذ دخل عبدُ الملك ، فتحدث ونهض ، فقال معاوية : إنّ لهذا الغلام همةً ، وخليقٌ أن تبلغَ به همّتُه ، وإنه مع ما ذكرتُ تاركٌ لثلاثٍ آخذٌ بثلاث : تاركٌ مَساءة الجليسِ جِداً وهَزْلاً ، تاركٌ لما يعتذرُ منه ، تاركٌ لما لا يَعنيه ؛ آخذٌ بأحسنِ الحديث إذا حَدّثَ ، وبأحسنِ الاستماع إذا حُدِّث ، وبأهون الأمرَين عليه إذا خولف .

---

(٥) عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس ، قتل أبوه في موقعة مرج راهط ، واستعمله يزيد بن عبد الملك والياً على المدينة .

(١) المركب : الطبع .

وقال لعُبيد الله بن زياد : يا بن أخي ؛ احفظ عني ، لا يكونَنَّ في عسكرك أميرٌ غيرُك . ولا تقولَنَّ على منبر قولاً يخالفُه فعلُك . ومهما غابت فلا تُغلبَنَّ على ميتةٍ كريمة .

وقال معاوية : آفةُ المروءةِ الكبرُ وإخوانُ السوء . وآفةُ العلم النِّسيانُ ، وآفةُ الحلم الذل . وآفة الجود السَّرَف ، وآفةُ القَصْدِ البخلُ ، وآفةُ المنطقِ الفحشُ . وآفةُ الجلَد الكسلُ ، وآفةُ الرزانة الكِبْرُ . وآفةُ الصَّمْتِ العيُّ ، وآفة اللبّ العُجب . وآفة الظَّرف الصلفُ ، وآفة الحياءِ الضَّعف .

وقال : لاجَدَّ إلا ما أقْعَصَ عنكَ ما تكره (١) .

وقال : لا تَعِدَنَّ شيئاً ، وحسبُك جوداً أن تُعطِيَ إذا سُئِلْتَ .

وقال لابنه يزيد : ما المروءة ؟ فقال : إذا ابتليتَ صبرتَ ، وإذا أُعطيتَ شكرتَ ، وإذا وَعَدْتَ أنجزْتَ .

---

(١) الجد : الحظ . أقعص الرجل : قتله قتلا سريعاً .

قال : أنتَ مني ، وأنا منك يا يزيد .

وقال معاويةُ : المروءة مؤاخاةُ الأكْفاءِ ومُداجَاةُ (١) الأعداء .

وقال : ما وجدتُ لَذَّةَ شيءٍ ألذَّ عنْدِي غِبّاً (٣) من غيظٍ أتجرّعُهُ ، ومن سَفَهٍ بالحلْمِ أقْمَعُهُ .

وأغلظَ له رجلٌ فاحتمله ، وأفرطَ عليه فحلم عنه ؛ فقيل له في ذلك . فقال : لا نَحُولُ بينَ الناسِ وألسنتِهم مالم يحولُوا بيننَا وبين ملكنا .

وقال لابنه : يا بني ، اتَّخذِ المعروفَ عند ذوِي الأحْسابِ تَستَمِلْ به قلوبَهم ، وتعظُم بهِ في أعينُهِم ، وتكفَّ به عنك عادِيتهم .

* * *

(١) المداجاة : المداراة ، وعدم إظهار العداوة

(٢) الغب : العاقبة .

الباب الثاني

كلام مروان بن الحكم (١)

وولده في الخلفاء

كتب مروان إلى النُّعمانِ (١) بنِ بشيرٍ يخطبُ إليه ابنتَه أُمَّ أبانٍ لابنه عبد الملك :

بسم الله الرحمن الرحيم .

من مروانَ بنِ الحكَمِ إلى النُّعمانِ بنِ بشيرٍ . سلامٌ عليكَ ، فإنّي أحمَدُ إليكَ اللهَ الذي لا إله إلا هُو .

أما بعدُ ؛ فإن اللهَ ذَا المنِّ والبرهانِ ، والعَظَمَة والسُّلطان ؛ قد خصَّكُم — معاشرَ الأنصارِ — بنُصْرةِ

---

(١) مراوان بن الحكم ولد سنة ٢ ﻫ استكتبه عثمان بن عفان وولاه معاوية المدينة ومكة والطائف ، تولى الخلافة واستمر بها أشهراً ، ومات سنة ٦٥ ﻫ .

(٢) النعمان بن بشير بن سعد الأنصاري ، ولد قبل وفاة الرسول بثمان سنين .

دينه ، وإعزازِ نبيِّه محمد — صلى الله عليه وسلم — وقد جعلكَ منهم في البيتِ العميمِ ، والفرعِ القديم وقد دعاني إلى إحباب مُصاهرتِك والإيثارِ لك على الأكْفاءِ من ولد أبِي . وقد أحبَبتُ أن تُزَوِّجَ ابني عبدَ الملك بنَ مروان ابنتَك أمَّ أبانٍ بنتَ النعمان ، وقد جعلت صَداقَها ما نَطَقَ به لسانُكَ وترنَّمَتْ به شَفَتَاكَ ، وبلغه مُناك . وحَكَمْتَ بِهِ في بيتِ المالِ قِبَلَكَ .

وقال مروانُ لابنه : آثِر الحقَّ ، وحَصِّنْ مملكتَك بالعدل ، فإنَّه سورُها المنيعُ الذي لا يُغرقُهُ ماءٌ ، ولا تحرقُه نارٌ ، ولا يهدِمُهُ مَنْجَنيقٌ (١).

وذكر أبو هريرة معاويةَ في مجلس فيه مَروانُ فاغتابَه ، ثم خاف أن يبلُغَ معاويةَ ذلك ؛ فقال : إنَّ رسول الله صلى الله عليه قال : « المَجَالِسُ بالأَمَانَةِ » ، وسأل مروانَ أن يكتُمُ عليه .

---

(١) المنجنيق : آله ترمى بها الحجارة .

فقال مَروانُ : واللهِ . لَمَا ركبتَ منّي في ظنّكَ بي أني أنقلُ حديثَك أعظمُ مِمَّا رَكبتَ منْ معاوية .

عَبْدُ المَلِكِ بنُ مَرْوَانَ

خطب فقال : أيُّها الناسُ ، اعملُوا لِله رغبةً أو رهبةً ، فإنكم بناتُ نعمته ، وحَصيدُ نِقْمَتِه ، ولا تَغرسُ لكم الآمالُ ما تَجتَنيه الآجالُ . وأقِلُّوا الرغْبةَ فيما يورِثُ العطَب ، فكلُّ ما تزرَعُهُ العاجلةُ تقلعُهُ الآجلةُ . واحذَرُوا الجديدَين ؛ فهما يكرّان عليكم باقْتِسام النُّفوسِ ، وَهَدْمِ ، المأسوسِ . كفانا اللهُ وإياكم سَطْوةَ القَدَرِ ، وأعاننا بطاعتِه عن الحذَرِ من شرِّ الزّمَن ، ومُعضِلاتِ الفِتَن .

استأْذن رجلٌ عليه ، فأذِنَ له ، فوقفَ بين يديه وَوَعَظَهُ ؛ فقال عبدُ المَلِكِ لرجلٍ : قُلْ للحاجب ، إذاجاء هذا فلا تَمْنَعْهُ ، وإنما أراد أن يَعْرِفَهُ الحاجبُ فلا يأْذنَ له .

وقال : إني لأعرِفُ عزّةَ الرجلِ من ذلته بجِلسته .

وقال له ابنهُ الوليد : ما السياسةُ ؟ قال : هيبةُ الخاصةِ مع صدقِ مودّتها ، واقتيادُ قلوب العامةِ بالإنصاف لها ، واحتمالُ هفَوات الصنائع .

ودخل الشّعبيُّ عليه ، فخطّأه في مجلس واحد في ثلاثٍ ، سَمِع الشعبيُّ منه حديثاً ؛ فقال : أكْتِبنيه . فقال : نحن معاشرَ الخلفاء لا نُكْتِبُ أحداً شيئاً . وذكر رجلا فكَنّاه فقال : نحن معاشرَ الخلفاء لا يُكَنّى الرجالُ في مجالسنا ، ودخل إليه الأخطل ، فدعا له بكرسي . فقال : مَن هذا يا أمير المؤمنين ؟ فقال : الخلفاء لا تُسأل ، فأخجله في أول مقام .

وقال لأخيه عبد العزيز (١) حين وجّهه إلى مصر : تفقّد كاتبَك وحاجبَك وجليسَك؛ فإنّ الغائبَ يخبره عنكَ كاتبُك ، والمتوسِّمَ (٢) يعرِفُك بحاجبك والخارجَ من عندك يعرفك بجليسك .

---

(١) عبد العزيز بن مروان بن الحكم ، والد عمر بن عبد العزيز ، ولد في المدينة ، وولاه مروان مصر ، فكانت إقامته بحلوان . توفي سنة ٨٥ هـ .

(٢) المتوسم : المتفرس المتخيل .

وقال : أفضلُ الرجالِ مَنْ تواضعَ عن رفعة ، وزهد عن قُدرةٍ ، وأنصف عن قوة .

وقال : الهَديَّةُ السِّحْرُ الظَّاهِرُ .

وقال لِمُعَلِّمِ ولده : رَوِّ بَنِيّ الشِّعْرَ يعرفُوا به مكارِمَ الأخلاق ، ولا تروِّهم شعرَ هُذَيْلٍ (١) فتزيِّنَ لهم الفِرار ، ولا شِعْرَ أُحَيْحَةَ بنِ الجُلاحَ (٢) فتحسِّنَ لهم البُخْلَ ؛ وأطعمهمُ اللحمَ تشتدُّ قُلُوبُهُم ، وجُزَّ أشعارَهم تَغْلُظْ رقابُهم .

وقال : اطلبوا معيشةً لا يقدرُ سلطانٌ جائِر على غَصْبها . فقيل : وما هو ؟ قال : الأدب .

دخل إليه أعرابيٌّ فبرك بين يديه ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ، إن الناقة إذا مَنَعَتِ الحلْبَ قوَّمَتْها العَصا ؛ فقال عبد الملك : إذاً تكفِىء الإناء ، وتكسرُ أنف الحالِب .

---

(١) هذيل الأشجعي شاعر أموي ، عمي في أواخر أيامه .
(٢) أحيحة بن الجلاح بن الحريش : شاعر جاهلي .

وقال لزُفر بن الحارث (١) : ما ظنُّك بي ؟ قال : ظني بك أنك تقتلني ؛ فقال : قد أكذَب اللهُ ظنَّك ، وقد عفوتُ عنك .

ونازعه عبدُ الرحمن بنُ خالدِ بن الوليدِ (٢) ، فأرْبَى عليه ، فقيل له : لو شكوتَه إلى عمِّه لا نتقم لك منه ؛ فقال : مِثْلي لا شكُو ، ولا أعدُّ — أنَا — انتقام غيري لي انتقاماً ؛ فلما استخلف قيل له في ذلك ؛ فقال : حِقْدُ السُّلْطان عجز .

قال عمرو بن عبيد (٣) : كتب عبدُ الملك وصيةً بيده ، وأمر الناس بتدبُّر ما فيها وهي :

---

(١) كان زفر بن الحارث الكلابي قد خرج على عبد الملك ، مع الضحاك بن قيس ، ولما قتل الضحاك في مرج راهط تحصن زفر بقرقيسها على نهر الفرات إلى أن مات سنة ٧٥ هـ .

(٢) عبد الرحمن بن خالد بن الوليد المخزومي ، قائد شديد البأس من التابعين ، شهد صفين مع معاوية ، كما شهد فتوح الشام ومات سنة ٤٦ هـ

(٣) عمرو بن عبيد ، شيخ المعتزلة ، كان أبوه شرطياً للحجاج وهو فارسي الأصل . ولد سنة ٨٠ هـ وتوفي سنة ١٤٢ هـ .

إن الله جعل لعباده عُقولاً عاقبهم بها على معصيته ، وأثابهم على طاعته ؛ فالناسُ بين مُحسنٍ بنعمة الله عليه ، ومُسيء بخذلان الله إيّاه ، ولله النعمة على المحسن والحجةُ على المسيء ، فما أولى بمن تَمَّت عليه النعمةُ في نفسه ، ورأى العِبْرَة في غيره ، بأنْ يضع الدنيا حيثُ وضعها الله ، فيعطي ما عليه منها ولا يكترثُ بما ليس لهُ فيها ، فإنَّ الدنيا دارُ فناءٍ ولا سبيل إلى بقائِها . ولابد من لقاء الله ، فأحذّركم الله الذي حذّركم نفسَه ، وأوصيكم بتعجيل ما أخـّرته العَجزَةُ قبل أن تصيرُوا إلى الدار التي صارُوا إليها ، فلا تقدرون فيها على توبةٍ . وليست لكُم منها أوْبَةٌ ، وأنا استخلفُ الله عليكم ، وأستخلفه منكُم .

وأذن يوماً لخاصّتِه ، فأخَذوُا مجالسهم ، وأقبل رجلٌ منهم على عَيب مُصعب بعد قتله ؛ فنظر إليه عبدُ الملك نَظر كراهية ، لِما قال ، ثم قال : أمسِكْ . أما عِلمتَ أنَّ مَنْ صَغَّر مقتولاً فقد أزرى بقاتله .

* * *

الوَليدُ بنُ عبدِ المَلِكِ (١)

جاء إليه رجلٌ فقال : إنّ فلاناً نالَ منكَ . قال : أتريدُ أن تَقتَصّ أوتَارك مِن الناس بي ؟ .

وهرب من الطاعون ، فقال له رجل : يا أميرَ المؤمنين إن الله تَعالَى يقول : « (لَن يَنفعكُمُ الفِرارُ إن فررتُم مِن الموتِ أوِ القَتلِ وإذاً لا تُمتّعُونَ إلاّ قليلاً) » (٢) فقال الوليد : إنما نُريدُ ذلك القليل .

وقال له رجلٌ : إن فلاناً شَتَمَك ، فأكبّ ، ثم قال : أراهُ شتَمك .

وكان الوليدُ لَحّاناً ، فدخل عليه يوماً رجلٌ من العربِ ، فقال له الوليدُ : ما شانُك ؟ قال : أودٌ (٣) في أنفِي واعوجاجٌ . فقال له رجلٌ من أصحابه : إنّ أميرَ المؤمنينَ يقولُ لك : ما شأنُك ؟ فقال : كذا وكذا .

---

(١) ولد الوليد بن عبد الملك سنة ٤٨ هـ ، وتولى الخلافة بعد وفاة أبيه ، وافتتح في عهده الهند والترك والأندلس وهو باني الجامع الأموي بدمشق . توفي سنة ٩٦ هـ .

(٢) سورة الأحزاب ١٦ .

(٣) الأود : العوج .

ولما مات عبدُ الملكِ صعِدَ الوليدُ المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : لم أر مثلَها مُصيبة ولم أر مثله ثواباً : موتُ أمير المؤمنين ، والخلافةُ ؛ فإنّا لله وإنا إليه راجعون على المصيبةِ ، والحمدُ لله رب العالمين على النعمةِ انهضُوا فبايعُوا على بركة الله .

مات لعبدِ الملك ابنٌ ، فجاء الوليدُ فعزّاه ؛ فقال : يا بني ؛ مُصيبتي فيك أعظمُ من مصيبتي بأخيك ، متى رأيتَ ابناً عزّى أباه ؟ قال : يا أمير المؤمنين ؛ أمي أمرتني بذلك . قال : هو من مشورة النساء .

وروي أنّ الوليد قام على المنبر بعد موت عبد الملك ؛ فقال :

يالها مصيبةٌ ما أفجعها وأعظمها ، وأشدها وأوجعها وأغمها موتُ أمير المؤمنين ! ويالها نعمةٌ ما أعظم المنّة من الله تعالى عليّ فيها ، وأوجب للشكر له بها ، خلافتُه التي سُربِلتُها (١) .

فكان أولَ من عزّى نفسه وهنأها بالخلافة .

---

(١) سربلتها : ألبستها كالسربال . وفي الكلام استعارة .

فأقبل غيلانُ بنُ مَسْلَمَةَ الثَّقَفِي (١) ؛ فسلم عليه بالخلافة ، ثم قال : أصبحت يا أمير المؤمنين ورِثتَ خيرَ الآباءِ ، وسُمِّيتَ خيرَ الأسماء ، وأُعطيت أفضلَ الأشياء ، فعزمَ اللهُ لك على الرَّزيَّةِ بالصبرِ ، وأعطاك في ذلك نوافلَ الأجرِ ، وأعانك في حسن ثوابه على الشكر ، ثم قضى لعبدِ الملك بخيرِ القَضيَّةِ ، وأنزله المنازلَ الرضيَّة.

فأعجبهُ كلامُه وقال : أثقفيٌّ أنت ؟ قال : نعم وأحدُ بني مُعتب . فسأله : كم هو من العطاء ؟ فقال : في مائة دينار . فألحقه بشرفِ العطاء ، فكان أول من أُلحق بشرف العطاء .

* * *

سُلَيْمَانُ بنُ عبدِ المَلِك (٢)

تكلَّم وفدٌ بين يدي سليمان فأخطؤوا ، وتكلَّم بعدهم

(١) غيلان بن مسلمة الثقفي شاعر جاهلي أدرك الإسلام وتوفي سنة ٢٣ هـ .

(٢) سليمان بن عبد الملك ، الخليفة التالي بعد الوليد ، ولد بدمشق سنة ٥٤ هـ ، وولي الخلافة سنة ٩٦ هـ . فتح في عهده جرجان وطبرستان ، وتوفي سنة ٩٩ هـ

رجلٌ فأبلغ ، ففال سليمان : كأن كلامَه بعد كلامكم سحابةٌ لبّدت عجاجة (١) .

وقال : عجبتُ لهذه الأعاجم ، ملكتْ طول الدهر ، فلم تحتج إلى العرب ، وملكت العربُ فلم تَستغن عنهم .

وتغدّى سليمانُ بن عبد الملك عنـــد يزيدَ بنِ المُهلّبِ (٢) ، فقيل له : صِف لنا أحسن ما كان في منزلِه . قال : رأيتُ غلمانه يخدمونه بالإشارةِ دون القول .

وقال : قد أكلنا الطيّب ، ولبِسنا الليِّن ، وركبنا وامتطينا الفارهِ العذراء ، فلم يبق من اللذّتي إلا صديقٌ أطْرحُ بيني وبينه مؤُونة التّحفُّظ .

سمع سليمانُ رجلاً من الأعراب فيسنةٍ جَدْبةٍ يقول:

ربَّ العبادِ مالنَا ومالَكَا ؟

قد كنت تَسقينَا فما بدا لكا

أنزل علَينا الغيث ، لا أبَا لكا (٣)

(١) العجاجة : ما ثار من الغبار .

(٢) يزيد بن المهلب بن أبي صفرة ، قائد شجاع ولد سنة ٥٣ هـ .

(٣) إن لا أبالك تذكر عند المدح ، أي لا مثال لأبيك .

فقال سليمان : أشهد أنه لاأبا لَه ، ولا ولد له ولا صاحب . قال المُبَرِّد : فأخرجَهُ أحسنَ مُخْرَجٍ .

قال سليمان ليزيد بن المهلّب : ثلاثٌ أنكرُهُنَّ منكَ ؛ خُفُّك أبيضُ مثلُ ثوبِك ، ولا يكونُ خفُّ الرجلِ مثل ثوبه ؛ وطيبُك ظاهر ، وطيبُ الرجلِ يُشَمّ ، ولا يُرى أثرُه ؛ وتكثرُ منْ مَسِّ لِحْيتك . قال: فغيّر خُفَّه وطِيبه .

وقال: مارأيتُ عاقلاً يَهُمُّ بأمرٍ إلاّ كانمُعَوَّلُه علىلحيته.

وخطب فقال : الحمد لله الذي ما شاء صنع ، ومن شاء رفع ، ومن شاء وضع ، ومن شاء أعطى ، ومن شاء منع . إن الدنيا دارُ غرورٍ ، ومنزلُ باطلٍ وزينةٍ ، تَقَلّبُ بأهلِها ، تُضْحِكُ باكياً ، وتُبكي ضاحكاً ، وتُخيفُ آمِناً ، وتُؤمِّن خائفاً ، تُفْقِر مُثْرِيَها ، وتُقرِّبُ مُقْصِيَها ، ميّالةٌ لاعبةٌ بأهلِها . عبادَ اللهِ ؛ اتخذُوا كتاب اللهِ إماماً ، وارضوا به حَكَماً ، واجعلوه لكم قائداً ؛ فانه ناسخٌ لِما كان قبلَه ، ولن ينسخه كتابٌ بعده . اعلموا — عباد الله — أنّ هذا القرآن يجلو

كيد الشيطان وضغائنه (١) ، كما يجلو ضوءُ الصبح إذا تنفّس أدبَار الليل إذا عسعس (٢) .

* * *

يَزِيدُ بنُ عبد المَلِكِ(٣)

كتب إليه عبدُ الرحمن بن الضّحاك بن قيس يستأذنُه في غلام يهديه إليه ، فكتب إليه يزيدُ : إن كنتَ لابد فاعلاً فليكن جميلاً ظريفاً لبيباً أديباً كاتباً ، فقيهاً حُلواً ، عاقلاً أميناً سَرِيّاً ، يقولُ فيحسِن ، ويحضُر فيَزِيّن ، ويغيب فيُؤْمنُ .

فكتب إليه : لقد التمستُ صِفَةَ أميرِ المؤمنينَ ، فلم أجدها إلا في القاسمِ بن محمد ، وقد أبى أهلُه بَيعهُ .

* * *

---

(١) الضغائن : الأحقاد .

(٢) عسعس : يقال : عسعس الليل : إذا أقبل ظلامه أو أدبر .

(٣) يزيد بن عبد الملك بن مروان ولد سنة ٧١ هـ ، وتولى الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز سنة ١٠٤ هـ وتوفي سنة ١٠٥ هـ .

هِشامُ بنُ عَبْدِ المَلِكِ (١)

ذكَرَ خالدُ بن صفوان(٢) خالدَ بن عبد اللّه القسري عند هشام ، فقال هشَام : إن خالداً أدَلَّ فأملَّ(٣) ، وأوجفَ فأعجفَ(٤) ، ولم يترك لأوْبةٍ مَرْجعا ، ولا للصلح مَوْضِعاً ، وإني لكما قال الشاعر(٥) :

إذا انصرفَتْ نفسي عن الشيء لم تكَدْ
إليه بوجهِ آخِرَ الدَّهـرِ تُقبلُ

نهض هشام عن مجلسه مرةً ، فسقط رِداؤه عن منكبه ، فتناوله بعضُ جلسائه ؛ ليرده إلى موضعه ، فجذبه هشامٌ من يده ، وقال : مهلاً ، إنا لا نتّخذُ جُلساءنا خَوَلاً(٦) .

(١) هشام بن عبد الملك بن مروان ولد سنة ٣١ هـ ، وتولى الخلافة سنة ١٠٥ هـ ، بنى الرصافة وكان يسكنها صيفاً ، وتوفي سنة ١٢٥ هـ .

(٢) خالد بن صفوان بن عبد الله المنقري ، من فصحاء العرب .

(٣) أدل بالمحبة فأفرط ، وأدل فأمل مثل يضرب لذلك .

(٤) أوجف الدابة : حثها ، وأعجفها : أهزلها .

(٥) قائل البيت معن بن أوس المزني .

(٦) الخول : العبيد والإماء والحاشية ونحوها . يستوى في لفظه المؤنث والمذكر والمفرد والجمع .

عُدّتْ لهشام — مع دهائه — سقطتان إحداهما :
أن الحادِيَ حدا به ؛ فقال :

إنّ عليكَ أيها البُخْتيُّ(١)
أكرمَ منْ تمشي به المَطِيُّ

فقال هشام : صدق .

والأخرى : أنه ذُكر عنده سليمانُ بن عبد الملك ؛
فقال : واللّه لأشكونَّه يوم القيامة إلى أمير المؤمنينَ
عبدِ الملك .

وقال له مَسْلَمةُ أخوه : كيف تطمعُ في الخلافةِ
وأنتَ بَخيلٌ . وأنتَ جبانٌ ؟ قال لأنّي حليمٌ وأني
عفيف .

* * *

الوليدُ بنُ يَزيدَ (٢)

أُتي هشام بعُودٍ ؛ فقال للوليد : ما هذا ؟ قال :
خشب يُشقَّق ثم يرقَّق ، ثم يُلْصَقُ ثم تعلَّقُ عليه

(١) الجمال البختية : الخراسانية ، والبختي صفة للجمل منها .
(٢) الوليد بن يزيد بن عبد الملك ولد سنة ٨٤ هـ وولي الخلافة سنة ١٢٥ هـ .

أوتارٌ فينطق فتضرب الكرامُ رؤوسَها بالحيطانِ سروراً به . وما في المجلس أحدٌ إلا وهو يعلمُ منهُ ما أعلمهُ ، وأنت أولهُم يا أمير المؤمنين . .

وقد قيل : إنَّ هذا الكلامَ هو للوليد بن مَسْعَدة الفَزَاري مع عبد الملك بن مروان .

وحكى بعضُهم قال : رأيتُ هشام بنَ عبد الملك يوم تُوفي مَسْلمةُ بن عبد الملك إذ طلعَ الوليد وهو نَشوانُ يجرُ مطْرَفَ خزٍّ ، فوقف على هشام ، فقال :

يا أميرَ المؤمنين ؛ إنَّ عُقبىَ من بقي لحوقٌ بمن مضى ، وقد أقفْرَ بعدَ مسلمةَ الصَّيدُ(١) لمنْ رمى ، واختل الثغرُ(٢) فوهى ، وعلى إثر من سلفَ يمضي من خلَف ؛ فتزودُوا ، فإن خيرَ الزَّادِ التَّقوى . قال : فأعرض هشامٌ ولم يحر جواباً ووجم الناس .

---

(١) أقفر الصيد : أمكن الصيد من فقاره لراميه والمعنى أن مسامة كان يغزو العدو ويرده ، فحين مات اختل بلد الاسلام وأمكن لمن يتعرض إليه .

(٢) الثغر : الحد مع العدو .

وقيل : كان عمرُ بنُ الخطاب — رضي الله عنه — يأخذ بيده اليمنى أُذنهُ اليسرى(١) ثم يجمع جراميزَه(٢) ويثبُ ؛ فكأنما خُلِقَ على ظَهْر فرسِه ، فكان الوليدُ ابنُ يزيد يفعلُ مثل ذلك ، وفَعلَهُ مرةً وهو وَلي عهدِه ، ثم أقبل على مسلمة بن هشام(٣) : فقال له : أبوكَ يُحسنُ مثل هذا ؟ فقال مسلمةُ : لأبي مائةُ عبد يحسنُونَ هذا . فقال الناس : لم ينصفْه في الجواب .

* * *

يَزيدُ بنُ الوليدِ بنِ عَبْدِ المَلِكِ (٤)

لما قُتل الوليدُ بنُ يزيدَ قام يزيدُ خطيباً ؛ فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

أيُّها الناس ؛ والله ما خرَجتُ أشَراً ولا بَطَراً ،

---

(١) المراد « بأذنه اليسرى » أذن الفرس .

(٢) جراميزه : مجموع بدنه .

(٣) مسلمة بن هشام بن عبد الملك من القواد ، مات في خلافة أبيه .

(٤) يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، الملقب بالناقص ، ولد سنة ٨٦ هـ ، وثار على ابن عمه الوليد بن يزيد وقتله ، وتولى الخلافة سنة ١٢٦ هـ ولم يمكث بها غير خمسة أشهر ، وتوفي في السنة نفسها .

ولا حرصاً على الدنيا ، ولا رغبةً في الملكِ ، وما بي إطراءُ نفسي ، وإني لظلومٌ لنفسي إن لم يرحمني ربّي ؛ ولكني خرجتُ غضبًا للّه ولدينه ، وداعياً إلى اللّهِ ، وإلى سُنةِ نبيه ، لما هُدِمَت معالمُ الهُدى ، وأُطفِئ نورُ أهلِ التقوى ، وظهر الجبارُ العنيد ، المستحلُّ لكلِّ حرمةٍ ، والراكبُ لكلِّ بدعةٍ ، مع أنه واللّهِ ما كانَ يؤمنُ بيوم الحساب ؛ وإنه لابنُ عمي في النسب ، وكُفْئي في الحسب .

فلما رأيت ذلك استخرتُ اللّه في أمري ، وسألتُه ألا يكلَني إلى نفسي ، ودعوتُ إلى ذلك منْ أجابني من أهلِ ولايتي ، حتى أراحَ اللّهُ منه العبادَ ، وطهَّر منه البلادَ بحولِ اللّهِ وقوتهِ ، لا بحولي وقوتي .

أيها الناس ؛ إن لكم عليَّ ألا أضَعَ حجراً على حجر ، ولا لبنةً على لَبِنة . ولا أكْرِي(١) نهرا ، ولا أكنِزَ مالاً ، ولا أُعطيَه زوجةً ولا ولدا ، ولا أنقلَ مالاً من بلد إلى بلد ، حتى أسُدَّ فقْرَ ذلكَ البلدِ وخَصَاصةَ

---

(٢) كرى النهر ، يكريه ويكروه : حفره .

أهلِه(١) ، بما يُغنيهم ، فإنْ فضلَ نقلته إلى البلدِ الذي يليهِ ممن هوَ أحوجُ إليه منه ، ولا أُجمِّركم(٢) في بعوثِكم فأفتنكُم ، وأفتنَ أهليكم ، ولا أغلقَ بابِي دونكم فيأكل قويُّكُم ضعيفَكم ، ولا أحملَ على أهل جِزْيتكم ما أُجليهم به من بلادِهم ، وأقطعَ نَسلَهم ، ولكنَّ عندي أعطياتِكم في كل سنَةٍ ، وأرزاقِكُمُ في كل شهرٍ ، حتى تستدِرَّ(٣) المعيشةُ بين المسلمينَ ، فيكونَ أقصاهم كأدناهم .

فإنْ أنَا وفيتُ لكم فعليكُمُ السمعُ والطاعةُ ، وحسنُ المؤازرةِ والمكانفةِ(٤) ، وإنْ أنَا لم أوفِ لكم فلكم أن تخلعوني إلا أن تستتيبُوني ؛ فإن تُبْتُ قبلتُم منيَ .

وإن عرفْتُم أحداً يقومُ مقامي ممَّن يُعرفُ بالصلاح ، يعطيكُم من نفسه مثلَ ما أعطيتُكُم ، فأردتُم أن تبايعُوه ، فأنا أولُ من بايعهُ ، ودخلَ في طاعتهِ .

* * *

---

(١) الخصاصة . وكذلك الخصاص ، الفقر وسوء الحال والحاجة .

(٢) جمر الجند حبسهم في الثغور عند أرض العدو .

(٣) استدر . كثر .

(٤) المكانفة . المعاونة .

مَسْلَمَةُ (١)

قال : عجبتُ لمن أحفى شعرَهُ (٢) ثم أعفَاه ، وقصَّرَ شاربَه ثم أطاله ، أو كان صاحبَ سَرارِيَّ (٣) ؛ فاتَّخَذَ المُهَيَّراتِ (٤) .

ولما حضرته الوفاة أوصَى بثلُث مالِهِ لأهلِ الأدبِ ، وقال : صناعةٌ مجفوٌّ أهلُها .

وكان إذا كثُرَ عليه أصحابُ الحوائجِ وخَشِيَ الضَّجر أمر أن يُحضَر ندماؤه من أهلِ الأدب ؛ فيتذاكرون مكارمَ الناس وجميل طرائقِهِم ومروءاتهم فيطربُ ، ويهيجُ ، ثم يقول : ائذنوا لأصحاب الحاجة ؛ فلا يدخل أحد إلا قضى حاجته .

وقال له هشام : يا أبا سعيد ؛ هل دخلَكَ ذُعرٌ

---

(١) مسلمة بن عبد الملك بن مروان ، من أبطال بني أمية ، وله فتوحات شهيرة ، توفي بالشام سنة ١٢٠ ﻫ تقريباً .

(٢) أحفى الشعر : قصره وخفف منه .

(٣) السراري : جمع سرية وهى الأمة .

(٤) المهيرات : ذوات المهر .

قطُّ لحربٍ شهدْتَها أو لعدوٍّ ؟ قال : ما سلمتُ في ذلك من ذُعرٍ ينبّه عليَّ حيلةً ، ولم يَغْشَني فيها ذعرٌ يسلُبُني رأيي . قال هشام : هذه البسالة .

ودخل على عُمرَ بنِ عبد العزيز في مرضه الذي مات فيه ؛ فقال : ألاَ توصي يا أميرَ المؤمنين ؟ قال : بِمَ أُوصي ؟ فو الله إنْ لي من مالٍ(١) . فقال : هذه مائةُ ألفٍ ، مُرْ فيها بما أحببتَ . قال : أو تَقْبَلُ ؟ قال : نعم . قال : تَرُدُّها على من أخذْتَها منه ظلماً . فبكى مَسلمةُ ثم قال : يرحمك اللهُ ، لقد ألَنْتَ منّا قلوباً قاسيةً ، وأبقيتَ لنا في الصالحين ذكرا .

واستبطأ عبدُ الملك ابنهَ مسلمةَ في مسيرهِ إلى الروم ؛ فكتب إليه :

لِمَنِ الظّعائنُ سيرُهُنَّ تَزَحُّفُ؟
سَيْرَ السفينِ إذا تقاعسَ يُجْدَفُ(٢)

---

(١) إن نافية بمعنى ليس ومن زائدة

(٢) البيت لأعشى همدان ، مطلع قصيدة قالها وهو أسير ببلاد الروم

فلما قرأ مسلمةُ الكتابَ ، كتب في جوابه :

ومستعجِبٍ مِمَّا يَرَى من أناتِنا
ولو زَبنَتْهُ(١) الحربُ لم يترمْرَمِ(٢)

* * *

مَرْوَانُ بنُ مُحَمَّد (٣)

دخل عبد الرحمن بن عطية التغلبي على مرْوانَ بنِ محمد ، فاستأذنه في تقبيل يده فأعرضَ عنه ، ثم قال له : قد عَرف أميرُ المؤمنين موضعَك في قومك ، وفضْلَكَ في نفسك ، وتقبيلُ اليدِ من المسلمِ ذِلةٌ ، ومن الذِّمي خديعةٌ ولا خيرَ لكَ في أن تَنْزِلَ بَينَ هاتين .

قالوا : كان يأخذ مرْوانُ بنْ محمد كلَّ سَنَةٍ من الخزانة قباءين(٤) ، فإذا أخْلَقَهما ردَّهما إلى الخزانة وأخذ جَديدين .

---

(١) زبنته الحرب : دفعته وصدمته

(٢) يترمرم : يحرك فاه بالكلام . والبيت لأوس بن حجر .

(٣) مروان بن محمد بن مروان ، وهو ابن أخي عبد الملك بن مروان ، آخر الخلفاء الأمويين ، ولد سنة ٧٣ ﻫ استولى على الملك سنه ١٢٧ ﻫ ، هزم في موقعة الزاب ، وقتل بمصر سنة ١٣٣ ﻫ

(٤) قباءين : مثنى قباء ، وهو نوع من الثياب

كتب إلى بعض الخوارج : إني وإيّاكَ كالزجاجةِ والحجرِ ؛ إن وقعَ عليها رضَّها ، وإن وقعت عليه فضَّها.

قال الأصمعي : لما وَليَ مروانُ الخلافةَ أرسلَ إلى ابن رغبان(١) — الذي نُسب إليه بعد ذلك مسجدُ ابنِ رَغْبَانَ — ليولِّيَه ، فرأى له سجَّادَةً مثل رُكبةِ البعير ، فقال . يا هذا ؛ إن كان مابكَ مِن عبادةٍ فما يحلُّ لنا أن نشغلَك . وإن كان من رياءٍ فما يحلُّ لنا أن نستعملَك .

قال ٢) عبد الحميد : تعلَّمتُ البلاغةَ من مَرْوَان ، أمرني أن أكتبَ في حاجةٍ فكتبتُ على قدر الموسع ؛ فقال لي : اكتب ما أقول لك :

بسم الله الرحمن الرحيم

أما أنَ للحُرمةِ أن تُرعى ، وللدَّينِ أن يُقضى ، وللموافقةِ أن تُتوخَّى !

---

(١) هو مولى حبيب بن مسلمة من قريش .

(٢) هو عبد الحميد بن يحيى بن سعيد المشهور بعبد الحميد الكاتب أول من طول الرسائل ، وافتن فيها . اختص بمروان بن محمد ، وقتله العباسيون معه سنة ١٣٢ هـ .

ووقّع إلى عاملٍ بالكوفة : حَابِ عِلْيةَ الناسِ في كلامِك ، وسَوِّ بَيْنَهُم وبين السفْلَةِ في أحكامك .

قالوا : وإنما لُقّب بالحِمار لأن أصحابَ أبي مُسْلم لما خرجُوا كانوا حَمَّارةً ، فكان الواحدُ إذا استعجل حِمَاره يقول : هرْ مَرْوان . هِس ْ ، مَرْوان(١) فلما ظفروا به استمرّ به اللقبُ .

قال عمر بن مروانَ : عرض أبي بظهر الكوفةِ ثمانينَ ألفَ عربيٍّ ، ثم قال بعد أن وثِق في نفسه بكثرةِ العَدَدِ والعُدَدِ : إذا انقضت المدةُ لم تُغْنِ العِدَّةُ ولا العُدة(٢) .

قال بعض القرشيين : وفد على مروان بن محمد — وقد تولّى الخلافة — ونزل حرّانَ(٣) قال : فتوالت على بابه الوفودُ ؛ فخرج إلينا آذِنُه ، فقال : أميرُ المؤمنين

---

(١) هرر . هرهرت بالغنم دعوتها ، والهر ضرب من زجر الإبل وهس ، بكسر الهاء وضمها : زجر الشاة

(٢) أي لا ينفع الرجال ولا السلاح .

(٣) حران . مدينة عظيمة مشهورة على طريق الموصل والشام .

يغسلُ ثيابَه ، فمن أراد أن يُقيمَ فليقمْ ، ومن أراد أن ينصرفَ فلينصرفْ . فجعل الناس يعجَبون من ذلك . ولم يبرح أحدٌ .

وكان يُقال : لو ذهبت دولةُ بني مروانَ على يد غير مروانَ لقال الناسُ : لو كان لها مَرْوانُ ما ذهبت .

* * *

الباب الثالث

كلام الخلفاء من بني هاشم

السفّاح (١)

رفع بعضُ السُّعاةِ إليه قِصَّةً بسِعايةٍ على بعضِ عماله ، فوقَّعَ فيها :

هذه نصيحةٌ لم يُرَدْ بها ماعندَ الله ، ونحن فلا نقبلُ قولَ من آثرنا على الله .

ومن كلامه : إنَّ من أدنياء الناس وَوُضَعائِهم مَن عدَّ البُخلَ حزماً ، والحِلْمَ ذُلاًّ .

ومنه : إذا عظُمت المقْدِرةُ قلَّت الشهوة ، وقَلَّ تَبَرُّعٌ إلاَّ ومعه حقٌ مُضَاع .

ومنه : إذا كان الحِلْمُ مَفْسَدة كان العفوُ مَعْجَزَةً ، والصبرُ حَسَنٌ إلاَّ عَلى ماأوتَغ الدِّين(٢) ، وأوهن

(١) عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، أول خلفاء العباسيين ، ولد سنة ١٠٤ هـ ولقب بالسفاح ، لقوله في إحدى خطبه « فأنا السفاح الهائج » توفي سنة ١٣٦ هـ .

(٢) أوتغ . أهلك .

السلطان . والأناةُ محمودةٌ إلا عند إمكانِ الفُرصة .

قالوا : كلَّم المنصورُ أبا العباس في محمد بن عبد الله بن حسن وأهله ، فقال : ياأمير المؤمنين ، آنِسْهم بالإحسان ، فإن استوحشوا فالشرُّ يُصلح ماعجز عنه الخيرُ ، ولاتدَعْ محمداً يمرحُ في أعِنَّةِ العقوق .

فقال : يا أبا جعفر ، إنّا كذلك . ومَن شدَّد نفَّر ، ومَنْ لان تَألَّفَ . والتغافُلُ مِنْ سجايا الكرامِ ، وماأحسنَ ماقال أعشى وائل(١) :

يُغضـي عـن العَوْراء(٢) ، أو
لا الحِلْـمُ غيَّرهـا انتصارُهْ

وكان يقول : إنّ المقدرةَ تُصغِرُ الأمنية ، لقد كُنا نستكثر أُمورا ، أصبحنا نستقلها لأخَسِّ مَنْ صحبنا ، ثم نسجد شكرا .

* * *

---

(١) هو الشاعر أعشى بني قيس المشهور .
(٢) العوراء : الكلمة أو الفعلة القبيحة

المَنْصُور (١)

ذُكر يوماً ملوكَ بني مرْوان ، فقال : كان عبدُ الملكِ جبّاراً لايُبالي ماصنعَ ، وكان الوليدُ لحانا مجنوناً ، وكان سليمانُ همّه بطنُه وفرجُه ، وكان عمرُ أعورَ بين عميانٍ ، وكان هشامٌ رجل القوم .

لما اتصل بهِ خروجُ محمدٍ وإبراهيم(٢) — رضى الله عنهما — شَنّ(٣) عليه درعَه ، وتقلّد سيفَه وصعد المنبرَ . فحمد الله وأثنى عليه وقال .

مالي أُكَفْكِفُ عن سَعْدٍ وتَشْتُمني
ولو شتمتُ بني سعدٍ لَقَدْ سَكَنُوا
جَهْلاً علينا ، وجُبْناً عن عدوِّهمو
لبئستِ الخَلّتانِ : الجهلُ والجُبْنُ (٤)

---

(١) ثانى خلفاء العباسيين ، ولد سنه ٩٥ ﻫ ، وولي الخلافه سنه ١٣٦ ﻫ . بنى بغداد وقويت بتشجيعه حركة الترجمة . توفي سنة ١٥٨ .

(٢) محمد وإبراهيم ابنا عبد الله بن الحسن العلوى : خرج أولهما سنة ١٠٤ ﻫ بالمدينة ، وتبعه الثاني فى السنة نفسها بالبصرة .

(٣) شن درعه . أسبغه عليه .

(٤) البيتان لقعنب بن أم صاحب شاعر إسلامي كان فى عهد الوليد بن عبد الملك .

أما والله لقد عَجَزُوا عما قُمنَا به ، فما عضدُوا المكافيَ ، ولاشكروا المُنعم .

فماذا حاولُوا ؟ أأشرب رنْقا(١) على غَصص ، وأبيتُ منهم على مَضَض ؟ كلاّ والله أصل ذَا رحمٍ حاولَ قَطيعتَها ، ولئن لم يرضَ بالعفوِ ليطلُبَنّ مالا يوجدُ عندي ، فليُبقِ ذو نفسٍ على نفسهِ ، قبل أن تمضيَ عنْه ، ثم لايُبكَى عليه ، ولا تذهبُ نفسٌ مَسَرّةً لما أتاه .

وخطب بعد قتلهِ أبا مسلم(٢) ، فحمد الله ، ثم أثنى عليه ، ثم قال : أمَّا بعد ، أيها الناسُ ، فإنه من نازعَنَا عُروةَ هذا القميصِ أوطأناه خبيء(٣) هذا الغِمْد — وأومأ إلى سيفه — وإنَّ عبدَ الرحمن بايَعَنَا ، وبايعَ ا‌لنا على أنه مَنْ نكثَ بنا فقد حَلَّ دَمُه ، ثم نكثَ بنا ، فحكمنَا فيهِ لأنفُسِنا حُكمَه على غيرِهِ لنا ، ولم تَمنَعنا رِعايةُ الحقّ لهُ من إقامة الحدّ عليهِ .

---

(١) الرنق : الماء المختلط بالطين .
(٢) قتل المنصور أبا مسلم سنة ١٣٧ هـ .
(٣) خبيء الغمد : ما استتر فيه والمراد السيف .

أهوى(١) هشام(٢) بن عروة إلى يَدِه ليقبِّلها ، فقال له : ياأبا المنذر ، إنّا نكرِمُك عنها . ونكرمُها عن غيرك .

استأذَن سوّارُ(٣) قاضي البصرة على المنصور . فأذن له ، فدخل وسلّم ، فقال المنصورُ : وعليك السلام . ادنُ أبا عبدِ الله ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ، أأدنُو على مامَضى عليه الناسُ أم على ماأحدثوا ؟(٤) فقال : بل على مامضى عليه الناسُ . فدنا فصافحه ثم جلسَ ، فقال المنصور : ياأبا عبد الله ، قد عزَمتُ على أن أدعُوَ أهل البصرةِ بسجِلاّتهم ، وأشْرِيَتهم(٥) ، فقال : ياأمير المؤمنين ، نشدتُك الله ألا تعرض لأهل البصرة . فقال : ياسوّار ، أبأهلِ البَصرة تهددُني ؟ والله لهمَمتُ أن أوجِّهَ

---

(١) أهوى : انحط من قرب .

(٢) هشام بن عروة بن الزبير ، ولد سنه ٦١ هـ ، من علماء الحديث ، توفي ببغداد سنة ١٤٦ هـ .

(٣) سوار بن عبد الله قاضي البصرة ، تولى قضاءها سبع عشرة سنة .

(٤) يريد بما مضى عليه الناس : المصافحه ، وبما أحدثوا : تقبيل اليد .

(٥) الأشرية : جمع شرى أو شراء .

إليهم من يأخذ بأفواه سككهم وطرقهم ، ويضعُ السيف فيهم فلا يرفعهُ عنهم حتى يفنيَهم . فقال : ياأمير المؤمنين ، ذهبتَ إلى غير ماذهبتُ إليه ، إنما كرهتُ لكَ أن تتعرض لدعاءِ الأرملةِ واليتيم ، والشيخ الكبير الفاني ، والحدَث الضعيفِ . فقال : ياأبا عبدِ الله ، أنا للأرملةِ بعلٌ ، ولليتيم أبٌ ، وللشيخ أخٌ ، وللحَدثِ الضعيفِ عَمٌّ ، وإنما أُريدُ أن أنظرَ في سجلاتهم وأشْريتهم لأستخرج مافي أيدي الأغنياء ، مما أخذُوه بقوّتهم وجاههم من حقوق الضعفاء والفقراء . فقال : وفّقكَ الله للخيرِ ، وأرشدك لما يُحبّ ويرضَى .

كان المنصورُ يقولُ : الملوكُ تحمل كلَّ شيء إلا ثلاثَ خلالٍ : إفشاء السر ، والتّعرض للحُرَم ، والقدح في الملك .

وقال : إذا مدَّ عدوُّك يدَهُ إليكَ فاقْطعها إن أمكنك ، وإلاَّ فقبلها .

وخطبَ بمكّةَ وقد أمّلَ الناسُ عطاءه ، فقال : أيها الناس ، إنما أنا سلطانُ الله في أرضه ، أسوسُكُم

بتوفيقه وتسديده ، وخازنُهُ على فيئه ، أعمل فيه بمشيئته وأقسمُه بإرادته ، وقد جعلني الله عزَّ وجلَّ قُفلا عليه ، إذا شاء أن يفتحني فتحني ، وإذا شاء أن يُقفلني أقفلني ، فارغبُوا إلى الله أيها الناسُ في هذا اليوم الذي عرّفكم من فضله ماأنزله في كتابه ، فقال جلَّ اسمُه : ﴿ اليومَ أكملتُ لكُم دينَكُم ، وأتممتُ عليكُم نِعمتِي ، ورَضيتُ لكُمُ الإسلامَ ديناً﴾(١) أن يُوفّقني للصواب ، ويُسدّدني للرَّشاد ، ويُلهمني الرأفةَ بكُم ، والإحسانَ إليكُم ، ويفتحني لأعطياتكم ، وقَسْم أرزاقكُم فيكم ، إنه قريب مجيب .

فقال ابن عيّاشٍ المنتوفُ : أحالَ(٢) أميرُ المؤمنينَ بالمنْع على ربِّه .

خطب المنصورُ بالكوفة فقال : الحمد لله أحمده ، وأستعينه ، وأومن به وأتوكلُ عليه ، وأشهد أن لا إلهَ إلا الله وحده ، لاشريك له ، وأراد أن يقولَ : وأشهد أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه ، فقال رجُلٌ : ياأمير المؤمنين ،

(١) سورة المائدة : ٣ .
(٢) أحال الغريم : زجاه إلى غريم آخر .

أذكِّركَ مَنْ تُذكِّرُ به ، فقال المنصورُ : سَمْعاً سَمْعاً لمن فهِمَ عن اللهِ ، وأعوذُ بالله أن أُذكِّر بالله وأنساه ، وأن تأخذني العزةُ بالإثم : (قد ضللتُ إذا وما أنا مِنَ المُهْتَدِينَ)(١) وأنتَ واللهِ مااللهَ أردتَ بذلك ، ولكن حاولتَ أن يُقالَ : قامَ فقالَ فعُوقِبَ فصبر ، وأهوِنْ بها وبقائلِها ! ولو صمَتَ لَكانَ خيراً له ، فاهتَبِلهْا إذًا غفرتُها ، وإياكم وأخواتِها ، فإن الموعظةَ علينا نزلَتْ ، ومِن عندنا انْبَثَّت ، فرُدُّوا الأمر إلى أهله يصدِرُوهُ كما أوردُوهُ ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

ورجع إلى خطبتِهِ .

وقال للمهديّ ابنهِ : ياأبا عبد الله ، لا تُبْرِمَنّ أمراً حتى تفكِّرَ فيه ، فإنّ فكرةَ العاقِل مرآةٌ تُريه قبيحَه وحسنه .

وقال له : ياأبا عبد الله ، الخليفةُ لايُصلحه إلاّ التقوى ، والسلطانُ لايُقيمُه إلاّ الطاعةُ ، والرعيةُ لايُصلحُها إلا العدلُ ، وأولى الناس بالعفوِ أقدَرُهم على

---

(١) سورة الأنعام : ٥٦ .

العقوبةِ ، وأنقصُ الناس مُروءة وعقلاً مَنْ ظَلم من هو دونَه .

وقال له الربيعُ : إن لفلانٍ حقاً ، فإن رأيت أن تقضِيَه فتولِّيَه ناحيةً . فقال : ياربيعُ ، إنَّ لاتصالِهِ بنا حقاً في أموالِنا ، لافي أعراض المسلمينَ وأموالهم . إنّا لانولّي للحُرمةِ والرعاية ، بل للاستحقاق والكفاية ، ولا نُؤْثِرُ ذا النسب والقرابة على ذي الدِّرايَةِ والكِتَابَة ، فمن كان منكم كما وصَفْنا شاركنَاهُ في أعمالِنا ، ومن كان عُطْلاً(١) لم يكن عُذْرٌ عند الناس في تَوْلِيَتِنا إيّاهُ ، وكان العُذْرُ في تركِنَا له وفي خاصِّ أموالنا مايسعُهُ .

* * *

المُهْدِيُّ (٢)

حُكي أن رجلاً أتى باب المهديِّ ، ومعه نعلانِ

(١) العطل . تقال للخالي من أي شيء ، وفي الأصل تقال في الخلو من الحلي للنساء

(٢) محمد بن عبد الله المهدي ثالث الخلفاء العباسيين ، ولد سنة ١٢٧ هـ ، وتولى الخلافة سنة ١٥٨ هـ كان شديداً على الزنادقة توفي سنة ١٦٤ هـ .

فقال : هما نعلاَ رسول الله – صلّى الله عليه وسلم – فَعَرَفَ المهديُّ ، فأدخلَه ووصلَه ، فلما خرج قال المهديُّ : والله ما هذا نعلُ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ومن أين صارتْ إليه ؟ أبميراثٍ أم بشرىً (١) أم بهبة ؟ لكني كرهتُ أن يقال : أُهديَ إليه نعلُ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، فلم يقبلها ، واستخفَّ بحقِّها .

قال الربيعُ : لما حَبَسَ المهديُّ موسى بنَ جعفر – رضي الله عنه –(٢) رأى في النوم عليا – رضي الله عنه – وهو يقول له : يا محمد ؛ (فَهَل عَسَيتُم إن تَوَلّيتُم أن تُفسدُوا في الأرضِ وتُقَطّعُوا أرحامَكُم) (٣) قال الربيعُ : فأرسلَ إليَّ ليلاً فَراعَني ذلكَ ، وإذا هو يقرأُ هذه الآيةَ – وكان أحسنَ الناس صوتاً – فعرَّفني خبرَ الرُّؤْيا . وقال : عليَّ بموسَى بنِ جعفر . فجئتُهُ به ؛ فعانَقَه وأجلَسَهُ إلى جانِبِه ، وقال : يا أبا الحسنِ ؛

---

(١) الشرى والشراء بمعنى واحد .

(٢) هو موسى بن جعفر الطالبي ، ولد سنة ١٤٥ هـ . حبسه المهدي ثم أطلقه .

(٣) سورة محمد : ٢٢ .

إنّي رأيتُ أميرَ المؤمنينَ — رضي الله عنه — فقرأ عليَّ كذا .
أفتؤمِّنُني أن تخرج عليَّ ، أو علىَ أحدٍ من وَلَدي ؟
فقال : والله ما ذاك شأْني . فقال : صدقتَ . يا ربيعُ ؛
أعطِه ثلاثةَ آلاف دينارٍ ، ورُدَّه إلى أهلهِ بالمدينةِ .

ولما استُخلِفَ أخرج مَنْ في السجون ، فقيل له :
إنما تُزْرِي على أبيكَ ؛ فقال : لا أُزْرِي ، ولكنَّ أبي
حبس بالذنبِ ، وأنا أعفو عنه .

وولّى الربيعَ بنَ أبي الجهم فارسَ ؛ فقال له :
يا ربيعُ ؛ آثرِ الحق ، والزمِ القصدَ ، وارفقْ بالرعيةِ ،
واعلم أنَّ أعدل الناس مَن أنصفَ الناسَ من نفسه ،
وأجْورَهم منْ ظلمهم لغيره .

قيل : كان المهديُّ يُصلِّي الصلواتِ كلَّها في المسجدِ
الجامع بالبصرة لما قَدِمَها ، فأُقيمَت الصلاةُ يوماً ؛
فقال أعرابيٌّ : يا أميرَ المؤمنين لستُ على طُهرٍ ، وقد رغبتُ
إلى اللهِ في الصلاة خلفَكَ ، فَأْمر هؤلاء أن ينتظروني
فقال : انتظرُوه رحمكم الله ؛ ودخل إلى المحرابِ ،

فوقف إلى أن أقبلَ ، وقيل له : قد جاءَ الرجلُ ؛ فعجب الناسُ من سماحةِ أخلاقِه .

هاجتْ رِيحٌ سوداءُ في أيامِ المهدي ، فرؤيَ وهو ساجدٌ يقول : اللهمَّ لا تُشمِتْ بنَا أعداءَنَا من الأُمم واحفظْ فِينَا دعوةَ نبيِّنَا — صلى الله عليه وسلم — وإن كنتَ أخذتَ العامَّةَ بذنبي فهذِهِ ناصيتِي بيدِكَ (١) .

وكان المهديُّ يحبُّ الحمَامَ ؛ فأُدخِلَ عليه غِياثُ بنُ ابراهيم ؛ فقيل له : حدِّث أميرَ المؤمنين وكان قد بلغه استهتارُ (٢) المهديِّ بالحمَام ؛ فقال : حدَّثَني فلانٌ عن فلان عن أبي هريرة — رفعَهُ — أنه قال : « لاَ سَبْقَ إلاَّ في حافِرٍ أو نَصْلٍ أو جَنَاحٍ » (٣) ؛ فأمر له بعشرة آلاف درهم . فلمَّا قَامَ ، قالَ المهدي ، وهو ينظُرُ في قَفَا غِيَاث :أشهدُ أنَّ قَفَاك قَفَا كذَّاب على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وإنَّمَا استجلبتُ ذلكَ أنَا ، وأمَر بالحَمَامِ فذُبحت .

* * *

(١) الناصية : قصاص الشعر في مقدم الرأس . يريد : أمري بيدك ،
(٢) الاستهتار بالشيء : الولع به .
(٣) والحديث موضوع .

الهادي (١)

اعتلّت أمّه الخيزران (٢) ؛ فأراد الركوبَ إليها ، فقال عُمرُ بن بزيع (٣) ألاَ أدلُّكَ على مَا هُوَ أنفعُ من عِيادَتها ، وأجلبُ لعافيتِها ؟ قال : بلى . قال : تجلُس للمظالم ؛ فقد احتاج الناسُ إلى ذلكَ ، فرجع وجلس وَوجّه إليها : إني أردتُكِ اليومَ ، فعرضَ من حقّ الله ما هو أوجبُ ، فملتُ إليه ، وأنَا أجيئُكِ في غدٍ إن شاءَ الله .

قال سعيد بن سَلْم الباهلي : صلّى بنا الهادي صلاةَ الغداة فقرأ : (عمّ يتَساءَلُونَ) (٤) فلما بلغ قوله تعالى : ((ألَمْ نَجْعَلِ الأَرضَ مِهَاداً)) أُرْتِج

(١) موسى بن محمد المهدي بن المنصور ولد سنة ١٤٤ ه ، تولى الخلافة سنة ١٦٩ ه .

(٢) الخيزران بنت عطاء جارية اشتراها المهدي ، وولدت له الهادي والرشيد

(٣) عمر بن بزيع ، تولى ديوان زمام الأزمة في عهد المهدي ، وديوان الرسائل في عهد الهادي .

(٤) سورة النبأ : ١ و ٦ .

عليه ؛ فردّدَها ولم يتجسرْ أحدٌ أن يفتتحَ عليه لهيبتِه ، وكان أهيبَ الناسِ ، فعلمَ ذلك فقرأ : ((أليسَ منكم رجلٌ رشيدٌ)) (١) فتحنا عليه ، وكنا نعدُّ هذا من محاسنه .

* * *

الرّشيدُ (٢)

قال لحاجبه : احجُبْ عنّي مَنْ إذا قعدَ أطالَ ، وإذا سأل أحالَ ، ولا تستخفَنَّ بذي الحُرْمةِ ، وقدِّمْ أبناءَ الدعوةِ .

عرض له رجلٌ وهو يطوفُ بالبيت ؛ فقال : يا أميرَ المؤمنين ؛ إني أُريدُ أنْ أكلّمك بكلامٍ فيه خُشونةٌ فاحتمالْه لي . قال : لا ، ولا كرامةَ ، قد بعثَ الله من هو خيرٌ منك إلى من هو شرٌ منّي ؛ فقال : ((فقُولاَ لَهُ قَولاً ليّناً)) (٣) .

---

(١) سورة هود : ٧٨ .

(٢) هارون الرشيد بن محمد المهدي ، ولد سنة ١٤٨ ه ، وتولى الخلافة سنة ١٧٠ ه ، وتوفي سنة ١٩٣ ه .

(٣) سورة طه : ٤٤ .

ولما احتُضِر قال : واحياني من رسول الله !

ودعا بعبد الملك بن (١) صالح وعنده وُلاةُ عَهْدِهِ وقوّادُ جُنْدِهِ ؛ فجيءَ بهِ وهو يَرْسُفُ في قيدِهِ ، فلما مثل بين يدي الرشيدِ . قال الرشيدُ :

أريدُ حياتَه ويريدُ قتلي
عذيرَكَ مِنْ خليلك من مُرادِ (٢)

والله لكأني أنظُر إلى شُؤْبُوبها (٣) . وقد همع (٤)، وإلى عارضِها (٥) وقد لمع ، وإلى الوعيدِ قد أوْرَى ناراً ؛ فأقلعَ عن رُؤوسٍ بلا غلاصم (٦) ، ومعاصِم بلا براجم (٧) ، مهلاً مهلاً بني هاشمٍ ، فبي سُهِّلَ لكمُ

(١) عبد الملك بن صالح العباسي ، من أمراء العباسين ، حبسه الرشيد سنة ١٨٧ هـ ، وأطلق الأمين سراحه مات سنة ١٩٦ هـ .

(٢) البيت لعمرو بن معد يكرب .

(٣) الشؤبوب : دفعة المطر .

(٤) همع المطر : سال .

(٥) العارض : السحاب المعترض في الأفق .

(٦) الغلاصم : جمع غلصمه وهي اللحمة بين الرأس والعنق .

(٧) البراجم : جمع برجمة وهي مفصل الإصبع .

الوَعْرُ ، وصفًا لكم الكَدَرُ ، فَنَذارِ نَذارِ (١) من حُلولِ داهيةٍ خبوطٍ باليدِ ، لَبُوطٍ (٢) بالرِّجْلِ .

فقال : يا أميرَ المؤمنين ؛ أأتكلم فذًّا (٣) أو توأمًا ؟ فقال : بل فَذًّا ، فقال : اتَّقِ الله يا أميرَ المؤمنين فيما وَلاَّكَ ، وراقبه فيما استرْعاكَ ، ولا تجعلِ الشُّكرَ بموضعِ الكُفر لقول قائل يَنْهسُ اللحمَ (٤) ، ويَلَغُ الدمَ ؛ فوالله لقد حَدَدْتُ القلوبَ على طاعتك ، وذلَّلتُ الرجال لمحبتك ، وكنتُ كما قال أخو بني كلابٍ (٥) .

ومقامٍ ضيِّقٍ فرَّجْتُهُ
ببياني ، ولساني ، وجدَلْ
او يقومُ الفيلُ أو فَيَّالهُ
زلَّ عنْ مِثْلِ مَقامي وزحَلْ (٦)

---

(١) نذار : اسم فعل أمر بمعنى أنذر .

(٢) لبوط : صيغة مبالغة من لبط الأرض : ضربها برجله ضرباً شديداً .

(٣) الفذ : الفرد .

(٤) يهنس اللحم : ينتزعه بالثنايا للأكل .

(٥) لبيد بن ربيعة .

(٦) زحل : تحول عن المكان .

فأمر به فَرُدَّ إلى مَحْبِسِهِ . ثم قال : لقد دعوتَ به ، وأنا أرى مكانَ السيفِ من صَلِيفِ قَفاه (١) ، ثم هَأنا قد رثيتُ له .

كتب الرشيدُ إلى الفضل بن يحيى : أطال الله يا أخي مُدَّتك ، وأدامَ نعمتَك ، والله ما منَعَني من إتيانك إلا التطيُّرُ من عيادتِك ؛ فاعذِرْ أخاك ، فو الله ما قلاكَ ولا سلاكَ ، ولا استبدل بك سِواك .

وعاتبَتْه أم جعفر(٢) في تقريظِه للمأمون ، دونَ محمدٍ ابنها ، فدعا خادماً بحضرته ، وقال له : وجِّه إلى محمدٍ وعبد الله خادمَين حصيفَين يقولان لكل واحد منهما على الخلوة : مايفعلُ به إذا أفضَت الخلافة إليه ؟ فأما محمدٌ فإنه قال للخادمِ : أُقْطِعك وأُعطيك ، وأُقَدِّمك . وأما المأمون فإنه رمى الخادمَ بدواةٍ كانت بين يديه ، وقال : يابنَ اللَّخْناء(٣) ، أتسألُني عمّا أفعلُ

---

(١) صليف القفا : عرضه أو رأس الفقر التي تلي الرأس .

(٢) أم جعفر هي زبيدة بنت جعفر بن المنصور تزوجها الرشيد سنة ١٦٥ هـ وهي أول حفيدة خليفة وزوج خليفة وأم خليفة توفيت في أيام المأمون سنة ٢١٦ هـ .

(٣) اللخناء : المنتنة الرائحة .

بك يوم يموتُ أميرُ المؤمنين ، وخليفةُ ربِّ العالمين ؟ إني لأرجو أن نكون جميعاً فداءً له .

فرجعا بالخَبَر ، فقال الرشيدُ لأم جعفرٍ : كيف ترينَ ؟ ماأقدَّم ابنَك إلاَّ متابَعَةً لرأيك ، وتَركاً للحزمِ .

وسايَره يوماً عبدُ الملكِ بنُ صالح ، فقام رجل ، فقال : ياأمير المؤمنين ، طأطِيء من إشرافِه(١) ، واشدُدْ شَكائمه(٢) ، وإلاَّ أفسد عليك مُلْكَكَ. فقال الرشيدُ : ياعبدَ الملك ، ماهذا ؟ قال : حاسِدُ نعمة ، ونافسُ رُتْبَة أغضبه رِضَاكَ عنيِّ وباعدَه قُربُك مني ، وساءَه إحسانُك إليَّ . فقال الرشيدُ : انْخَفَضَ القومُ وعَلوتَهم ، فتوقَّدتْ في قلوبهم جَمرةُ التأسُّف ، فقال عبد الملك : أضْرَمَها الله بالتزَيُّد عندك ، فقال : هذا لكَ ، وذاكَ لهم

---

(١) الإشراف : العلو والانتصاب

(٢) الشكائم : جمع شكيمة ، وهي الحديدة عن اللجام ، المعترضة في فم الفرس

كان الحسنُ اللؤلؤيُّ(١) يختلفُ إلى المأمون ، يُلقي عليه الفرائضَ ، فدخل عليه ليلةً وقد صلى العشاء الآخرةَ ، فجعل يُلقِي عليه ، ونَعس المأمونُ فأطبقَ جَفْنَه ، فقال الحسنَ : أنِمتَ أيها الأميرُ ؟ ففتحَ عينيه — وهو إذ ذاكَ صبيٌّ — فقال : عاميٌّ واللهِ لم يُغَذَّ بالأدب ، خذُوا بيدِه ولاتُعيدُوه إليَّ .

فبلغ ذلك الرشيد ، فتمثل بقول زهير(٢) :

وهل يُنْبِتُ الخَطِيَّ(٣) إلاوَشيجُهُ(٤)
وتُغْرَسُ إلاَّ في مَنابِتِها النَّخْلُ

وصَعِدَ يوماً المنبرَ وقد شَغِبَ الجُنْدُ ، ثم سَكَنوا بعد إيقاعٍ بهم ، فقال :

الحمدُ لله ربِّ العالمين ، وصلَّى الله على ملائكته المقرَّبينَ ، والأنبياء أجمعين .

---

(١) الحسن بن زياد اللؤلؤي ، مولى للأنصار ، تفقه بالكوفة ورحل إلى بغداد واتصل بالمأمون .

(٢) المراد زهير بن أبي سلمى .

(٣) الخطي : الرماح ، نسبة إلى خط البحرين .

(٤) الوشيجة : عرق الشجرة .

أما بعد ، فقد كان لكم ذَنْبٌ ، وكان لنا عَتْبٌ ، وكان منكم اضْطِلامٌ(١) ، وكان منّا انتقامٌ . وعندي بعد هذا التنفيسُ عن المكروبين ، والتفريجُ عن المغمومين ، والإحسانُ إلى المحسنين ، والتَّغَمُّدُ(٢) لإساءةِ المُسيئين َ، وألاَّ يُكْفَرَ(٣) لكم بَلاءٌ ، ولايُحبَسَ عنكم عَطاءٌ ، وعليَّ بذلك الوفاءُ إن شاءَ الله . ثم نزل .

قال سعيدُ بن سَلْم : كان فهمُ الرشيدِ فَهْمَ العلماءِ . أنشده العُمَاني(٤) في صفة فرس :

كأنَّ أذنَيْهِ إذا تَشوَّفَا(٥)
قادِمةٌ أو قَلَماً مُحَرَّفَا

فقال الرشيدُ : دَعْ كأنَّ ، وقُل : تخالُ أذنيه حتى يستوِيَ الشعر .

---

(١) اصطلم الشيء : اجتثه من جذوره .

(٢) التغمد : السّتر ، وأصله من تخبئة السيف في غمده .

(٣) يكفر : يجحد .

(٤) هو محمد بن ذؤيب الدارمي ، اشتهر بلقب العماني ، ولم يكن من عمان ، شاعر رجاز متوسط من شعراء الدولة العباسية .

(٥) تشوف : نصب عنقه .

أنشد النَّمَرِيُّ(١) الرَّشيدَ شِعراً يقول فيه:

ليستْ كأسيافِ الحُسينِ ولابني
حَسَنٍ ، ولآلِ الزبيرِ الكُلُلِ(٢)

فقال له الرشيد : وماتَوَلُّعك(٣) بذِكْرِ قَومٍ لاينالُهم ذمٌّ إلاّ شاطرتُهم إياه . قَدْ رَابني هذا منكَ وفيكَ ، فلا تَعُدْ لَهُ ، فإنما نفارقُهم في الملكِ وحدَه ، ثم لا افتراقَ في شيءٍ بعدَه .

قال الأصمعي : قال لي الرشيد في أول يوم عزم فيه على تأنيسي(٤) : ياعبد الملك(٥) ، أنت أحفَظُ منّا ، ونحنُ أعقلُ منك . لاتعلّمنْا في ملاءٍ ، ولاتُسرعْ إلى

---

(١) منصور بن سلمة بن الزبرقان النزاري النمري ، شاعر من شعراء الدولة العباسية ، حبسه الرشيد حتى أطلقه الفضل بن الربيع ، ومات في أيام الرشيد .

(٢) الكلل : جمع كال وهو السيف لا حد له ، أو الذي لا يقطع .

(٣) تولع بفلان : شتمه وذمه .

(٤) التأنيس : الطمأنينة .

(٥) هو عبد الملك بن قريب العلامة اللغوي الأخباري ولد سنة ١٣٨هـ، وتوفي سنة ٢١٦ هـ .

تذكيرِنَا في خلاءٍ ، واترُكْنا حتى نَبْتَدِئك بالسُّؤال ، فإذا بلغتَ من الجواب قَدْرَ استحقاقِه فلا تَزِدْ ، وإياك والبَدَاءَ إلى تصديقِنَا ، أو شِدَّةِ العجبِ بما يكونُ منّا . وعَلِّمْنَا من العلم مانحتاجُ إليه ، على عتَبَاتِ المنابرِ ، وفي أعطافِ الخُطَبِ ، وفَوَاصلِ المخاطباتِ ، ودَعْنَا من روايةِ حُوشِيِّ الكلامِ (١) وغرائبِ الأشعارِ ، وإياكَ وإطالةَ الحديثِ إلاَّ أنْ نَستَدْعِيَ ذلكَ منكَ . ومتى رأيتَنا صادِفِينَ (٢) عن الحقِّ فأَرْجِعْنا إليه ما استَطَعْتَ ، من غيرِ تقريعٍ بالخطأ ، ولا إضْجارٍ بطُولِ التَّرْداد .

قال : قلتُ : أنا إلى حِفْظِ هذا الكلام أحوجُ منِّي إلى كثيرٍ من البِرِّ .

* * *

الأمينُ (٣)

قيل لِبَعضِ العلماء : كيف كانت بلاغةُ الأمينِ ؟

---

(١) حوشي الكلام : غريبه .

(٢) صدف عن الحق : أعرض .

(٣) هو محمد بن هارون الرشيد ، ولد سنة ١٧٠ هـ ، وبويع له بالخلافة سنة ١٩٣ هـ بعد وفاة الرشيد .

قال : واللهِ لقد أتتهُ الخلافةُ يوم جُمعةٍ ، فما كان إلا ساعةً حتى نُودي : الصلاةُ جامعةٌ ، فخرج ورَقِيَ المِنْبَرَ ، فَحَمِدَ اللهَ ، وأثنى عليه . ثم قال :

أيُّها الناس ، وخصوصاً يابني العباس ، إنَّ المنونَ مراصدُ ذوِي الأنفاس ، حتْمٌ مِنَ الله لايُدْفع حلولُه ، ولا يُنكَرُ نزولُه ، فارتجعُوا قلوبَكم من الحُزْنِ على الماضي إلى السرورِ بالباقي ، تُجزوْنَ ثوابَ الصابرين، وتُعْطَوْنَ أجورَ الشَّاكرينَ .

فتعجب الناسُ من جُرأته ، وبِلَّةِ(١) رِيقهِ ، وشدَّةِ عارضته(٢) .

وكان المأمونُ يقولُ : كان يقول لي الرشيدُ : ودِدْتُ لو أنَّ لكَ بلاغةَ محمد ، وأنَّ عليَّ غرمَ كذا وكذا .

وذكرَ أنَّ محمداً في صباه كان كثيرَ اللَّعِب ، وكان المعلّمُ يُلقي عليه في الكُتَّابِ ، وعلى المأمونِ ،

---

(١) بلة اللسان : انطباق الحروف على مخارجها .

(٢) شدة العارضة : كناية عن القوة .

وكان محمدٌ يلعبُ ويحفظُ ، والمأمونُ ينسى وهو مُقْبِل على العلم يقصِدُ قَصْدَهُ .

ذُكر أنه دعا يوماً عبدَ الله بن أبي عَفَّانَ ليصطبح ، فأبطأ فلما جاء قال : أظنُّك أكَلْتَ . قال : لا والله . قال : والله لتصدقَنَّ ، قال : نعم ياأمير المؤمنين ، فدعا بحكَّاكٍ فحكَّ أضراسه السُّفْلى ، فلما ذهبَ ليحكَّ العليا قال : يا أمير المؤمنين ، دعها لغضبة أخرى ، فخلاَّه .

قال الفَضْلُ بنُ مروان(١) : سمعتُه يقول في خطبته : الناسُ جميعاً آمنونَ إلاّ أصحابَ الأهواء .

وقال لكاتبٍ بين يديه : دعِ الإطنابَ ، والزمِ الإيجازَ ، فإنَّ للإيجازِ إفهاماً ، كما أنَّ مع الإسهابِ استبهاماً .

---

(١) الفضل بن مروان بن ماسرخس ولد سنة ١٧٠ هـ أخذ البيعة للمعتصم سنة ٢١٢ هـ ، وكان وزيراً عنده ، ألف بعض الكتب ، توفي سنة ٢٥٠ هـ .

المأمون (١)

وذكر أنّ الكسائي(٢) قام إليه يوماً - وهو يُعلّمه وهو صغيرٌ - فضربَهُ ، وقد كان صلّى ذلك اليوم قاعداً فقال المأمون : أما تستحي أيها الشيخ تصلي لله قاعداً ، وتَضربُني قائماً ! .

قال بعضُهم : قرأتُ كتابَ ذي الرياستين(٣) إلى المأمونِ ، وتوقيعَ المأمون فيه ، فإذا في الكتابِ بعد الصّدر والدعاء :

إنّ قارئاً قرأ البارحةَ : « وقُلْنَ نسوةٌ في المدينة ، »(٤)

---

(١) عبد الله بن هارون الملقب بالمأمون ، ولد سنة ١٧٠ هـ من أم ولد ، ولي الخلافة سنه ١٩٨ هـ وكان عصره من أزهى عصور الثقافة العربية توفي سنة ٢١٨ هـ .

(٢) هو إمام النحو ، وعالم القراءات واللغة علي بن حمزة الأسدي ، رأس النحويين في الكوفة كما كان سيبويه في البصرة ، وكان مؤدبا للأمين والمأمون توفي سنه ١٨٩ هـ.

(٣) هو الفضل بن سهل السرخي ، لقب بذي الرياستين لأنه جمع بين رياستي القلم والتدبير أو لأنه جمع بين رياستي الحرب والتدبير .

(٤) الأيه : (وقال نسوة في المدينة . . .) سورة يوسف : ٣٠ .

فأنكرنا ذلك عليه ، فذكر أنّ الكسائيّ أجازه ، وكتاب الله لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه ، فرددنا علمَ كتابِ الله إلى خليفته .

قال : وإذا توقيعُ المأمون فيه : عمّرك اللهُ — ذا الرياستين — طويلاً في طاعته ، وجعلكَ قائماً بأمر دينه ، ذابًّا عن حريم أمّته ، إنّ لكلّ علمٍ دستوراً ، ودستورُ هذا العلمِ القرآنُ ؛ فعليكَ بقراءتهِ على ما أُجْمِعَ عليه ، ولا تلتفت إلى مختارٍ قولاً ليعقد له رياسةً ، والسلام .

كتب المأمونُ إلى طاهرٍ لما قتل عليَّ بن عيسى(١) في رسالة طويلة :

إنّما لك من هذا الأمرِ موقعُ السّهْمِ من الرّميّة ، والتسديدُ والرأيُ . والتدبيرُ لأبي العباسِ الفضلِ بنِ سهل.

وكان يقولُ : إذا رُفِعَت المائدةُ من بين يديه : الحمدُ للّه الذي جعل أرزاقنا فضلاً عن أقواتنا(٢) .

وقال : ما انفتَقَ عليّ قط إلا وجدتُ سببَه جورَ العمال .

---

(١) علي بن عيسى بن ماهان ، من قواد العباسين ، وقائد جيش الأمين .

(٢) اجعل أرزاقنا فضلا عن أقواتنا : زائدة عنها .

وقال : آهلُ السُّوق سُفَّلٌ ، والصنَّاعُ أنذالٌ ، والتجار بخلاءُ ، والكتّابُ ملوكٌ على الناس .

وقيل له : ليس في السَّرَفِ شَرَفٌ ، فقال : ليس في الشرفِ سَرَفٌ .

وقال يوماً لبعضهم : متى قدمتَ ؟ قال : بعد غدٍ يا أمير المؤمنين . فقال : بيني وبينكَ بَعْدُ مرحلتان .

وقال لعبدِ اللّهِ(١) بن طاهر : تَثَبَّتْ ، فإنَّ اللّهَ قد قطعَ عُذْر العَجُول ، بما مكَّنَهُ من التَّثَبُّت ، وأوجَبَ عليه الحُجَّةَ على القَلق ، بما بَصَّره مِنْ فَضْلِ الأناة . فقال ابنُ طاهر : أأكتبه ؟ فقال : نعم .

قالوا : لما وجد عمرُ بنُ فرج(٢) كتاباً من أهل الكَرْخِ(٣) إلى علي بن محمد بن جعفر بن محمد(٤) —

(١) عبد الله بن طاهر بن الحسين الخزاعي ولد سنة ١٨٢ هـ ، ولي الشام ومصر سنة ٢١١ هـ ، ثم ولي خراسان وبها توفي سنة ٢٣٠ هـ .

(٢) عمر بن فرج الرخجي من أعيان الكتاب في أيام المأمون .

(٣) المراد به كرخ بغداد ، بناه المعتصم للتجار ، وجعله سوقاً لبغداد ورتبهم فيه .

(٤) هو علي بن موسى بن جعفر أحد أئمة الشيعة الإمامية ، توفي سنة ٢٥٢ هـ .

رضي اللّه عنهم — جاء به إلى المأمون ، فقال المأمون : نحنُ أولَى مَن ستَر هذا ولم يُشيعْه . ودعا عليّ بن محمد ؛ فقال له : قد وقَفْنَا على أمرك ، وقد وهبنا ذلك لعليٍّ وفاطمةَ — رضي اللّه عنهما — فاذْهب ، وتخيَّر ما شئْتَ من الذُّنوب ، فإنا نتخيَّرُ لكَ مثل ذلكَ من العفو .

رفع الواقدي(١) قصةً إليه يشكو غَلَبة الدَّين ، وقلةَ الصبر ؛ فوقَّع المأمُون عليها : أنتَ رجلٌ فيك خلَّتَان : السخاءُ والحياءُ ؛ فأما السخاء ، فهو الذي أطلقَ ما في يدك ، وأمَّا الحياءُ فبلغ بك ما أنتَ عليه ، وقد أمرنا لك بمائة ألف درهم . فإنْ كُنَّا أصَبنا إرادتَك فازْدَد في بسط يدك ، وإن كنَّا لم نُصِب إرادتَك فبجنَايتكَ على نفسك . وأنت كنتَ حدثتَنِي ، وأنتَ على قضاء الرشيد ، عن محمد بن إسحاق عن الزهري عن أنس بن مالك أن رسول اللّه — صلى اللّه عليه وسلم — قال للزبير : « يَا زُبير ؛ إنَّ مَفَاتيح الرِّزْقِ بإزَاء العرشِ ، يُنْزِلُ

---

(١) الواقدي : هو محمد بن عمر بن واقد ، من المؤرخين ، وحفاظ الحديث تولى القضاء ببغداد ، ولد سنة ١٧٠ هـ ، وتوفي سنة ٢٥٧ هـ .

اللّهُ للعِباد على قَدرِ نَفَقَاتِهم؛ فَمَنْ كَثّر كَثُر لَه .
ومن قَلَّلَ قُلِّلَ لَهُ .»

قال الواقدي : وكنتُ أنسيت هذا الحديثَ ؛ فكانت مذاكرتُهَ إيّايَ به أعجب إليّ من صلته .

وقال المأمون : الطعامُ لونٌ واحدٌ . فإذا استَطَبتَه فاشبعَ منه . والندمانُ واحدٌ ، فإذا استطبته فاستَزِدهُ حتى تقْضي وطَرَك منه .

وذكر أنّ إبراهيم بن المهدي دخل على المأمون ، وبين يديه صَاعُ رُطَب ، فقال : ادنُ فكُلْ . فقال : يا أميرَ المؤمنينَ على ما بي ؟ وكان وجِعَ العين ؛ فقال : ويحك ولا تَهَبُ عينك للرّطب .

ودخل إليه الطبيبُ فشكا إليه وجعَ الأسنان ؛ فقال : يا أميرَ المؤمنين لا تأكل الرطبَ ولا تشربِ الماء بثلجٍ ؛ فقال : لولاهما ما أردتُك .

وقّع المأمون في قصة مُتَظلّمٍ من أبي عيسى بن

الرشيد(١) : (فإذَا نُفِخَ في الصُّورِ فَلا أنْسابَ بينَهُم يومئذٍ ولا يتَسَاءلُون) (٢) .

وتظلم إليه قوم من قاضي جَبُّل (٣)، وذكروا أنه يعضُّ رؤوسَ الخصوم ، فوقَّع في قصتهم : يُشْنَقُ(٤) إنْ شاء اللّه .

وقال : من أراد أن يطيبَ عيشُه فليدفعِ الأيامَ بالأيامِ.

قال العباسُ بن المأمون(٥) لغلامه : إنْ رأيتَ في الرُّصَافَةِ بقْلا حسناً فاشترِ لي منه بنصف دِرهم . فقال المأمونُ : أمَّا إذ عرفتَ أنَّ للدرهمِ نصفاً فو اللّهِ لا أفلحتَ أبداً .

---

(١) أبو عيسى هو أحمد بن الرشيد ، أمه بربرية ، كان أديباً ظريفاً وله شعر

(٢) سورة المؤمنون . ١٠١ .

(٣) جبل بليد بين النعمانية وواسط ، كانت مدينة كبيرة وينسب إلى قاضيها في أيام المأمون ما يدل على ضعف عقله .

(٤) يشنق : يؤخذ منه الشنق وهو الأرش ما دون الدية من المعاقل الصغار .

(٥) العباس بن المأمون ، ولاه أبوه الجزيرة سنة ٢١٣ هـ .

قال يحيى بن أكثم : ما شَيَّتُ المأمون في بُسْتانه ، ويدُه في يَدي ، فكان في الظلِّ ، وأنا في الشمس . فلما بلغْنَا ما أردنا . ورجعنا صرتُ أنا في الفيء وصارَ هُو في الشمس : فُدرتُ أنا إلى الشمس ؛ فقال : ليس هذا بإنصاف ، كما كنتُ أنا في الفيء ذاهبا . فكنْ أنتَ في الفيء راجعاً .

وخطب بمَرْو — وقد ورد عليه كتابُ الأمينِ يُعزِّيه بالرشيدِ ، ويحثُّه على أخذِ البيعة له — فقال :

إنَّ ثمرة الصبرِ الأجرُ ، وثمرةَ الجزَع الوِزرُ ، والتسليمُ لأمر اللّه جلَّ وعزّ فائدةٌ جليلةٌ ، وتجارة مُربحةٌ ، والموتُ حوضٌ موروذٌ ، وكأس مشروبٌ . وقد أتى على خليفتكم — رضي اللّه عنه — ما أتى على نبيِّكم صلى اللّه عليه وسلم ، فإنَّا للّه وإنا إليه راجعُونَ ، فما كان إلا عبداً دُعِيَ فأجابَ ، وأمرَ فأطَاع ، وقد سدَّ أميرُ المؤمنين ثَلْمتَه(١) وقام مَقامَه ، وفي أعناقكم من العَهدِ ما قد عرَفتم ؛ فأحسنُوا العزاء عن إمامكُم الماضي ، واغتبطوا بالنعماء بالوفاء لخليفتكم الباقي . يا أهلَ

---

(١) الثلمة : الخلل .

خُراسانَ : إنَّ الموتَ نازلٌ ، والأجلَ طالب ، وأمسٍ واعظٌ ، واليومَ مغتَنَمٌ ، وغداً منتظَرٌ . ثم نزل .

وكتب إليه يزيد بن عقال يُثْني على عبد اللّه بن طاهرٍ ، فوقّعَ المأمون في كتابه : عبدُ اللّه كما ذكرتَ ، وعلى أكثر مما وصفتَ . قد حمّلَه أميرُ المؤمنين فاحتملَ ، وأثقلَه فاضْطَلعَ .

كانوا يسمّون أرصادَ السلطانِ المسالحَ من السّلاح ، فكرِه ذلك المأمونُ فصيّره المصالِحَ من المصلحة .

وقال : إذا أصلَحَ المَلكُ مجلسَه ، واختارَ من يُجالِسُه صلُح مُلْكُهُ كلُّه .

ورفع أهلُ الكوفة قِصةً إليه يشكون عاملاً ؛ فوقّع : عيني تراكُم ، وقلبي يرعاكُم ، وأنا مولٍ عليكُم ثِقَتِي ورِضَاكُم .

وشغب الجنْدُ فرُفع ذلك إليه ؛ فوقّع : لا يُعطَونَ على الشّغب ، ولا يُحوَجُونَ إلى الطّلَب .

قال يحيى بنُ أكثمَ : لما أراد المأمونُ أن يزوّج علي

ابن موسى(١) ، قال لي : يا يحيى تكلّم ، فهبتُ أنْ أنْ أقولَ أنكحتُ ؛ فقلتُ : يا آميرَ المؤمنين ، أنت الحاكمُ الأكبر وأنت أولى بالكلام ؛ فقال :

الحمدُ للّه الذي تصاغرتِ الأمورُ لمشيئته ، ولا إله إلاّ اللّه ، إقراراً بربُوبيّته ، وصلّى اللّه على محمد عند ذكره .

وأما بعدُ ؛ فإنّ اللّه تعالى جعل النّكاحَ سُنّةَ الأنامِ ، وفصلاً بين الحلالِ والحرام ، وإني قد زوجت ابنتي أمّ الفضلِ من عليّ بن موسى الرضا ، وقد مهرتُها عنه أربعمائة درهم .

وقال المأمون : تمامُ النعمة أن تُستتمّ بلزوم شكرِها ، وأوّلُ منازل الشكرِ ألاّ يُتوصّلَ إلى معصيةِ منعمٍ بفضل نعمتهِ .

قال أحمدُ بن أبي دُؤادٍ(٢) : قال لي المأمون :

---

(١) علي بن موسى بن جعفر الملقب بعلي الرضا ، ولد سنة ١٤٨هـ ، وتوفي سنة ٢٠٣هـ .

(٢) أحمد بن أبي دؤاد القاضي ، ولد سنة ١٦٦هـ ، كان محباً للعلم وتوفي سنة ٢٤٦هـ .

لا يستطيع الناسُ أن يُنصفوا الملوك من وزرائهم ، ولا يستطيعون أن ينظروا بالعدل بينَ ملوكهم وحُماتهم وكُفاتِهم ، وبينَ صنائعِهم وبطانتِهم ، وذلكَ أنَّهم يَرَون ظاهرَ حُرمةٍ وخدمةٍ ، واجتهادٍ ونصيحة ، ويرون إيقاعَ الملوكِ بهم ظاهراً ، حتى لايزال الرجلُ يقولُ : ما أوقعَ به إلاَّ رغبةً في مالِهِ ، وإلاَّ رغبةً فيما لا تجودُ النفوسُ به ، أو لعلَّ الحسدَ والملالةَ ، وشهوةَ الاستبدالِ اشتركتْ في ذلك . وهناك جناياتٌ في صُلْب الملك ، أو في بعض الحُرَمِ لا يستطيعُ الملك أن يكشِفَ للعامة موضعَ العوْرةِ في الملك ، وأن يحتجَّ لتلك العقوبة بما يستحقُّ ذلك الذَّنْبُ ، ولا يستطيعُ تَركَ عقابِه ، لما في ذلك من الفساد على علمه بأنَّ عذره غيرُ مبسوطٍ عند العامة ، ولا معروفٍ عند أكثرِ الخاصَّة . .

ونزل رجلٌ فعَدا بين يديه ، فأشار بيده أنْ حسبُك ؛ فقال له بعضُ من كان بقُربٍ من المأمون : اركبْ . فقال المأمونُ : لا يقالُ لمثلِ هذا : اركبْ ، إنما يقالُ لهُ : انصرفْ .

تحدث المأمون يوماً ؛ فضحك إسحاقُ بنُ إبراهيم المُصْعبي(١) ؛ فقال :

يا إسحاقُ ، أأوهِلُكَ لشُرطَتِي ، وتفتحُ فاكَ من الضحكِ ؟ ، خذُوا سوادَه وسيفه ، ثم قال : أنتَ بالشراب أشبَهُ ، ضعُوا منديلا على عاتقه ؛ فقال إسحاقُ : أقلْني يا أمير المؤمنين . قال : قد أقَلْتُكُ . فما ضحك بعدها .

* * *

المُعْتَصِمُ (٢)

لما أقْطَعَ المعتصمُ أشْنَاساً (٣) ضِياعَ الحسنِ بن سهل، وجَّه الحسنُ بقبالاتها(٤) إلى أشْنَاس، وكتبَ إليهِ :

---

(١) إسحاق بن إبراهيم المصعبي صاحب الشرطة أيام المأمون — والمعتصم والواثق والمتوكل — كان صارما ، وتوفي سنة ٢٣٥هـ .

(٢) هو محمد بن هارون الرشيد ، ولد سنة ١٧٩هـ ، وتولى الخلافة سنة ٢١٨هـ ، كان شجاعا قويا ، بنى مدينة سر من رأى وبها توفي سنة ٢٥٧هـ .

(٣) أبو جعفر أشناس ، من القواد ، ولاه المعتصم مصر سنة ٢١٩هـ ، اشترك في فتح عمورية ، وتوفي سنة ٢٣٦هـ .

(٤) القبالات : الضمانات والكفالات .

قد عرفتُ رَأيَ أميرِ المؤمنينَ في إخلاصِكَ بهذه الضِّياع ، وأحبَبتُ ألا تعرض على عَقِبك عُقْبَى ؛ فأنفذتُ لك قَبَالاتِها معتداً في قبولِكهَا بإسبَاغِ النعمةِ عليّ ، وادخارِ الشكر لديّ ، ومتقرباً به إلى سيّدي أميرِ المؤمنين ، فرأيك في الامتنان عليّ بقبولِها موفَّقاً إن شاء الله .

فلما قرأ الكتابَ أنفذَهُ إلى المعتصمِ ، فوقَّع فيه : ضِيمَ فصبر ، وسُلِبَ فعذَر ، فليقابَلْ بالشكر على صَبرِهِ ، وبالإحسان على عُذْرِهِ . وتُرَدُّ عليه ضياعُه ، ويُرفَعُ عنه خرَاجُه . ولا أُؤامَر فيه إنْ شاء الله (١) .

قال كاتبُ العباسِ بنِ المأمون : لما تقلّدَ المعتصمُ الخلافةَ عَرضتُ له ، فترجَّلتُ . فلما بَصُر بي ، قال : هذا المجلسُ الذي لم تزَلْ أكثرهَ الناسِ بحلُولي به . قال : فتحيرتُ ، ولم أدرِ ما أقولُ ، ثُم عنَّ (٢) ليأن قلتُ : يا أميرَ المؤمنينَ ، أنت تعفُو عمّا تَتَيَقّنُه .

---

(١) يؤامر في الشيء : يستشار فيه .

(٢) عن له خاطر : عرض له .

فكيف تُعاقِبُ على ما تتوهمُه ؟ قال : فقال : لو أردتُ عقابكَ لتركتُ عِتابكَ .

وكان سبب خروجه إلى « سرَّ مَنْ رأى » (١) أنَّ غلمان الأتراكِ . كثرُوا ببغداد فتولَّعوا (٢) بحُرم الناس وأولادِهم ، فاجتمع إليه جماعةٌ منهم ؛ فقالوا : يا أميرَ المؤمنين ؛ ما أحدٌ أحبُّ إلينا مجاورةً منك ؛ لأنك الإمامُ والمحامي عن الدِّين ، وقد أفرطَ غِلْمَانُك ، فإما منعتَهم منَّا ، وإما نقلتَهم عنَّا . فقال : نقلُهم لا يكون إلا بنَقْلِي ، ولكني أفتَقِدُهم ، وأُزيل ما شكوتُم .

فنظر فإذا الأمرُ قد زادَ وعظُم ، وخاف أن يقع بينهم حربٌ ، وعاودُوه بالشكوى ، وقالوا : إن قدَرْتَ على نصَفَتنا (٣) ، وإلاَّ فتحول عنا . فقال : أتحوَّلُ وكرامةً فرحلَ إلى سُرَّ من رَأى ، واتخذهَا داراً .

(١) سر من رأى : كانت موجودة قبل المعتصم ، واسمها سامبرا ، عمرها المعتصم وسماها : سر من رأى ، وتسمى أيضا سامراء ، وسر من راه ، وهي على نهر دجلة .

(٢) تولع بعرض فلان : قذف فيه .

(٣) النصفة والإنصاف بمعنى واحد .

وكان يقولُ : الفضلُ بنُ مروانَ عصَى اللهَ - عز وجل - وأطاعني ، فسلَّطني الله عليه .

وذكر أنه كان معه غلامٌ في الكتّاب يتعلمُ معهُ ، فمات الغلام ، فقال له الرشيد : يا محمد ، مات غلامك . قال : نعم يا سيدي ، واستراحَ من الكُتّاب فقال الرشيدُ : وإن الكُتّابَ ليبلغُ منكَ هذا المبلغَ ، دَعُوه إلى حيث انتهى ، ولا تعلّموه شيئاً ؛ فكان يكتُب كتاباً ضعيفاً ، ويقرأ قراءةً ضعيفةً .

حُكي عن الفضل بن مروان أنه قال : والله لقد كان المعتصم مؤيَّداً من عند الله في أموره كلِّها ؛ لقد رَجع يوماً من محاربةِ الروم ، وقد سهر ليلتَهُ وبقي إلى العشاء ، ولم يَطْعَم ولم يَشرب ؛ فدخل إلى المأمون فعرَّفه خَبَره ، فبينما هو يخاطبُه إذ صيحَ : السلاحَ السلاحَ ، واستفحَل أمرُ الروم ؛ فقال له المأمونُ : ارجع يا أبا إسحاق إلى موضعكَ . فقال : نعم يا أمير المؤمنين . أمضي إلى مضربي وأركبُ مِن ثَمَّ (١) ؛ فكأنَّ المأمونَ كره هذا منه ،

---

(١) ثم (بفتح الثاء وتشديد الميم) هناك .

ونكّس رأسه ، واشتدّ عليه تأخيرُه لأمره ، ففطن المعتصمُ ؛ فقال : يا أميرَ المؤمنين ؛ إن الله عز وجل يقول : ((كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أن رآهُ اسْتَغْنَى))(١) والله لقد رأيتَني ومالي من الدوابِّ إلا أربعٌ ، ومن الغلمان إلا أربعةٌ ، وإني لأقفُ على باب الحسنِ بن سهلٍ سائرَ يومي ، أتمنَّى أنْ يأمرَني بأمرٍ أنفذُ فيه ، ولي منْ كلِّ هذا اليومَ ألوفٌ لتفضُّلِ أميرِ المؤمنين ، وهو يأمُرني بأمرٍ فيه شرَفي فأشترطُ عليهِ . أنا أمضِي من وجهي هذا على هيئتي هذه .

فضحك المأمون وقال : ادنُ إليَّ ؛ فدنا إليه ، فقبَّلَ بين عينيه ، ودعا له بالظفر ، وخرج .

* * *

الواثقُ (٢)

قيل : إنه لما مات إبراهيمُ بنُ المهديّ ركبَ المعتصمُ

---

(١) سورة العلق : ٦و٧

(٢) الواثق بالله هارون بن محمد المعتصم ، ولد سنة ٢٠٠هـ ، ولي الخلافة سنة ٢٢٧هـ ، ومات بسر من رأى سنة ٢٣٢هـ .

حتى صلّى عليه ، ثم قال للواثق : أقِمْ يا بني حتى تُجِنَّهُ (١) . وقيل : بل لم يُصَلِّ عليه تجرّحاً ، وأمرَ الواثق بالصلاةِ عليه ؛ فسأل عن وصيته ، فوجدَهُ قد أمَرَ بمالٍ عظيمٍ أنْ يُفَرَّق على أولادِ الصحابةِ كلهم ، إلا أولادَ عليٍّ رضيَ اللهُ عنه ؛ فقال الواثقُ : واللهِ لولا طاعةُ أميرِ المؤمنينَ لما وقفتُ عليهِ ، ولا انتظرتُ دَفْنَه . ثم انصرفَ وهو يقولُ : يَنْحَرِفُ عن شرفِه وخيرِ أهلِه ! والله لقد دلّيته في قبرِه كافراً ، وأمَرَ فَفُرِّق في وَلَد عليٍّ — رضي الله عنه — مالاً فاضلاً ؛ فأصابَ كلَّ رجل منهم ضِعفُ ما أصابَ غيرَهم من وصيته .

نظر الواثقُ إلى أحمد بن الخصيب (٢) يمشي فتمثّلَ :

مِنَ الناسِ إنسانانِ دَيْني عليهمَا
مَلِيَّانِ لو شاءَا لقَدْ قَضَيَانِي

(١) تجنه : تستره والمراد : تدفنه وتواريه في القبر

(٢) أحمد بن الخصب وزير للمنتصر والمستعين ، نفي إلى المغرب ، وتوفي سنة ٢٦٥هـ .

خليليَّ ، أمَّا أمُّ عَمْرٍو فمنهمـــــا
وأمَّا عن الأُخرَى فلا تَسَلاَني (١)

قال : فبلغ ذلك سليمانَ بنَ وهبٍ ؛ فقال : إنَّا لله ، أحمدُ بنُ الخصيبِ أمُّ عمروٍ ، وأنا الأُخْرَى ؛ فنكبَهُمَا بعد أيَّامٍ .

غَنَّى مخارقٌ (٢) في مجلس الواثق :

أظليمُ ، إنَّ مُصَابَكُم رَجُـــلٌ
أهدى السَّلامَ بحبكمُ ؟ ظُلْمُ (٣)

فغنَّاهُ « رجلٌ » فتابعَهُ بَعضٌ ، وخالَفهُ آخرُونَ ، فسأل الواثق عمن بقي من رؤساءِ النحويين بالبصرة ، فذكر له أبو عثْمانَ المازنيَّ ، (٤) قال : فأمر بحَمْلي ،

---

(١) البيتان لابن الدمينه .

(٢) مخارق بن يحيى ، كان مولى ، أعتقه الرشيد ، أحد الحاذقين في الغناء ، وأول من أدخل أنغاما فارسية على النغم العربي مات في خلافة المتوكل ، وقيل في آخر خلافة الواثق .

(٣) البيت للحارث بن خالد المخزومى .

(٤) أبو عثمان بكر بن محمد المازني ، إمام من أئمة النحو بالبصرة له تصانيف كثيرة ، توفي سنة ٢٤٩هـ .

وإزاحة عِلَّتِي فلما وصلتُ إليهِ وسلَّمتُ قال : مِمَّنِ الرجلُ ؟ قلتُ : من بنِي مازنٍ . قال : أمِن مازن قَيسٍ ، أم مازن تميم ، أم مازن ربيعةَ ، أم مازنِ اليمنِ ؟ فقلت : مِن مازنِ ربيعةَ . فقال لي : بَاسمُكَ ؟ يريدُ : مَا اسمُكَ قال : وهيَ لغةٌ كثيرةٌ في قومنَا ، فقلتُ على القياس : مَكْرٌ ، أي : بكرٌ ، يا أميرَ المؤمنينَ ؛ فضحكَ وقال : اجلِس واطبَئنَّ . فجلستُ ، فسألَنِي عن البيتِ ، فأنشدتُه :

أظليمُ ، إنَّ مصابَكُم رَجلاً .

فقال : أين خبرُ إنَّ ؟ قلت : ظلمُ . أما ترَى يا أميرَ المؤمنينَ أنَّ البيتَ كلَّهُ متعلقٌ بهِ ، لا معنىَ لهُ حتَّى يتم بهذَا الحرفِ ، إذ قال :

« أظليمُ إنَّ مصابَكُم رجلاً أهدى السلامَ إليكم » .

فكأنهُ ما قالَ شيئاً ، حتى يقولَ : ظلم . قال : صدقتَ . ألكَ ولدٌ ؟ قلت : بُنَيَّةٌ . قال : فما قالتْ حين ودَّعتَها ؟ قلت : أنشدتْ شعرَ الأعشى :

تقولُ ابنتي حينَ جدَّ الرَّحيلُ
أرانَا سواءً ومن قَدْ يَتِمْ

أبانَا . فلا رِمْتَ (١) من عندنَا
فإنَّا بخيرٍ إذا لَم تَرِمْ

قال : فما قلتَ لها ؟ قال : قول جريرٍ :

ثِقي باللهِ ليسَ لَهُ شريكٌ
ومِن عِنْدِ الخليفةِ بالنجاحِ

فقال : ثِقْ بالنجاحِ إنْ شاء اللهُ . ثم أمر لي بألفِ دينار وكسوة وطيب .

وكان الواثقُ عالماً بكلِّ شيءٍ ، وله صنعة حسنة في الغناء ، وكان يُسمَّى المأمونَ الصغير ؛ لأَدبِه وفضلهِ ، وكان المأمونُ يجالسه ، وأبوهُ المعتصمُ واقفٌ . وكان يقول : يا أبَا إسحاق لا تُؤدِّب هارونَ ، فإني أرضى أدَبَه ، ولا تعترضْ عليهِ في شيءٍ يفعَلُه .

* * *

(١) رام عن المكان يريم : تحول .

المُتَوَكِّلُ (١)

قال يزيدُ المهلبي(٢) : أنِسَ بي أميرُ المؤمنينَ في سبعةِ أيامٍ فوق أُنْس محمدٍ(٣) كانَ بي في سبع سنينَ . فقال : إنما أنستُ بكَ في سبعةِ أيام لأنسِ محمدٍ كانَ بكَ في سبعِ سنينَ .

قيل للمتوكل : لم لا تقلّد الحسنَ بنَ وهب(٤) ديوانَ الرسائل . قال : أخافُ أن يحيضَ في الديوانِ .

قال عليُ بن يحيى : تغدَّيتُ مع المتوكل ، فقُدِّم لونٌ كان اشتهاهُ ، فوجدَ فيه ذُبابةً ، فألقاها وأكلَ ، ثم وجد أخرى وأخرى ، فلما رُفع من بينِ يديه قال :

---

(١) المتوكل هو جعفر بن محمد المعتصم ، ولد سنة ٢٠٦هـ ، وتولى الخلافة سنة ٢٣٢هـ ، وأراد نقل مقرها إلى دمشق ، ولكنها لم تطب له ، فعاد إلى سر من رأى .

(٢) يزيد بن محمد ، من أولاد المهلب ، شاعر ، اتصل بالمتوكل ومدحه ، توفي ببغداد سنة ٢٥٩هـ .

(٣) المراد بمحمد : المنتصر ابن المتوكل

(٤) الحسن بن وهب بن سعيد كاتب شاعر ، كان وجيها سريا ، ومات سنة ٢٥٠هـ

أعيدُوا علينا هذا اللَّونَ غداً ، وليكن أقل ذباباً مما هو اليومَ ! !

قال إبراهيم بن المدبّر(١) ، قال المتوكلُ : إذا خرج توقيعي إليك بما فيه مصلحةٌ للناس ، ورفقٌ بالرعيةِ فأنفذه ، ولاتراجعني فيه ، وإذا خرج بما فيه حَيفٌ(٢) على الرعية فراجِعْني ، فإنَّ قلبي بيدِ الله عزَّ وجلَّ .

بلغ المتوكلُ أنَّ أحمدَ بن حمدونَ النَّديمَ يحملُ رِقاع الفَتْح إلى خادمِه فائرٍ ، فأعدَّ له حَجّاماً ، وأوصاه بما يريدُ . فلما جلسَ أحمدُ مع الجلساء قال : ياأحمدُ ، ماجزاءُ مَنْ أفسدَ غُلامَ فتىً ؟ قال : تُقْطَع أذنُه ، فدعا بالحجام فقطَع من أذُنِه قطعةً ، وإنما قال له هذا لأنه كان يحدثُه كثيراً بحديث الفتيان والعيارينَ ويتنادرُ بذلك بين يدَيهِ ، ثم نفاه إلى بغداد إلى أن كلمه الفتحُ فيهِ ، فرضِيَ عنه .

* * *

---

(١) إبراهيم بن المدبر ، شاعر كاتب ، كان المتوكل يحبه ويقربه ، ثم انقلب عليه وحبسه مدة ثم أطلقه . مات سنه ٢٧٠هـ

(٢) الحيف : الظلم والجور .

المُنْتَصِرُ (١)

قال : لذَّةُ العفوِ أطيبُ من لذَّةِ التشفِّي ، وذلك لأنَّ لذةَ العفوِ يلحقُها حمدُ العاقبة ، ولذةُ التشفِّي يلحقُها ذمُّ النّدَم .

ولما تمت لهُ البيعةُ كان أولَ شيءٍ عمله أن عزلَ صالحَ بن عليٍّ عن المدينةِ ، وولاَّها عليَّ بن الحسينِ بنِ إسماعيلَ بنِ العباسِ بنِ محمدٍ ، وقال له : إنما وليتُك لتخلُفَني في برِّ آل أبي طالبٍ ، وقضاء حوائجهم ، ورفعها إليَّ ، فقد نالتْهُم جفوةٌ ، وخُذْ هذا المالَ ففرِّقْه على أقدارهم .

فقال له علي بن الحُسين : سأبلُغُ بعون الله رضا أميرِ المؤمنينَ ، فقال : إذاً تسعدُ بذلكَ عند اللهِ وعندي .

قال بعضهم : سمعتُه يوماً وهو يناظر قوماً : والله لاعَزَّ وَفْرُ باطلٍ ، ولو طَلَعَ من جبينِهِ القَمَرُ ، ولاذَلَّ ذو حقٍّ ، ولو كان العالَمُ عليه .

---

(١) هو محمد بن جعفر المتوكل ، ولد سنة ٢٢٣هـ ، تولى الخلافة بعد قتل أبيه سنة ٢٤٧هـ ، توفي في السنة نفسها بعد ستة أشهر من ولايته .

قال بعضُهم : سمعتُ بُغا الكبير(١) يقول : ما مَشيتُ بينَ يدي خليفة أهيَبَ من المنتصر ، وقد كان مَشْيي بينَ يديْ المأمونِ ، والمعتصمِ ، والواثقِ والمتوكّلِ .

قال أحمدُ بن الخصيب : سمعتُ المنتصر لَمّا عفا عن الشاريِّ(٢) يقول : أحسنُ أفعالِ القادرِ العفوُ ، وأقبحُها الانتقامُ .

* * *

المُسْتَعِينُ (٣)

قيل : لما جيء بكتاب الخلع إليه ، وقيل له : وقع بخطك فيه ، أخذ الكتابَ فابتدأ ابنُ أبي الشوارب يُملي عليه ، فقال له المستعين : أمسِك عافاك الله ، ثم كتب :

أقرَّ أحمدُ بنُ محمدِ ابنِ أميرِ المؤمنين المعتصمِ بالله : « أنه قد بايعَ أبا عبدِ الله المعتزَّ بالله ، هذه البيعةَ

(١) بغا الكبير : أحد قواد الترك ، كان قائدا للمعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر ، مات سنة ٢٤٨هـ .

(٢) الشاري : نسبة إلى الشراة ، إحدى فرق الخوارج .

(٣) هو أحمد المستعين بن محمد المعتصم ، ولد سنة ٢٢١هـ ، ولاه الترك الخلافة سنة ٢٤٨هـ ، ثم خلعوه وقتلوه سنة ٢٥٢هـ ، وكان عهده عهد فتن واضطراب .

المنسوخةَ في هذا الكتابِ ، مُوجِباً على نَفْسه كلَّ مافيهِ من الشرائطِ المثبتة فيه ، والعهودِ المؤكَّدَة . وأُشْهِدُ الله وملائكته على جميع ذلك ، وأشهدُ مَنْ حضر . وكَفَى باللهِ شهيداً » .

قال : فعجبَ الناس من فهمِهِ وبلاغتهِ .

وقال له الحسنُ بنُ أبي الشوارب(١) : يا أميرَ المؤمنين ، أشهدُ عليكَ بما في هذا الكتابِ ؟ . قال : نعم خارَ الله لك ياأبا العباسِ .

* * *

المُعْتَزُّ (٢)

قال الزبير(٣) : لما وفدْتُ على المتوكّل قال لي : ادخل إلى أبي العباس يعني : المعتز فدخلتُ إليه وهو

(١) الحسن بن محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب الأموي قاضي المعتمد ، توفي سنة ٢٦١هـ ،

(٢) المعتز هو محمد بن جعفر المتوكل ، وقيل أحمد ، وقيل الزبير ، ولد بسر من رأى سنه ٢٣٢هـ ، وبايعه الأتراك بالخلافة سنة ٢٥٢هـ ، كثرت الفتن في أيامه . واضطره القواد أن يخلع نفسه ، وعدبوه حتى مات سنه ٢٥٥هـ .

(٣) الزبير بن بكار أديب أخباري كان قاضي مكة توفي سنة ٢٥٦هـ .

صبيٌّ فحدّثتُه وأنشدتُه فسألني عن الحجازِ وأهله، ثم نهضت لأنصرف فعثرتُ فسقطْتُ، فقال لي المعتزُّ: يازُبير:

كَمْ عَثْرةٍ لي باللسانِ عثرتُها
تُفَرِّقُ من بعد اجتماعٍ من الشمْلِ

يموتُ الفتى من عَثْرةٍ بلسانِهِ
وليس يموتُ المرءُ من عَثْرةِ الرِّجلِ

* * *

المُهْتَدِي (١)

كان يقولُ: لو لم يكنِ الزُّهدُ في الدنيا، والإيثارُ للحقِّ، مما لَطُفَ اللهُ تعالى فيهما، ووفَّقَني لهما، وإنيِّ أرجو بذلك الفَوزَ يومَ القيامة، لتَصَنَّعْتُ بما أفعلُهُ للناسِ، لِئَلا يكونَ مثلُ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ في خلفاءِ بني أُمية، ولا يكونُ في خلفاء بني هاشمٍ بعدهم مثله، وهم من رسول اللهِ — صلى الله عليه وسلّم — أَقْرَبُ.

(١) هو محمد المهتدي بالله بن هارون الواثق، ولد سنة ٢٢٧هـ، وتولى الخلافة سنة ٢٥٥هـ، كان حميد السيرة زاهدا، خلعه الترك وقتلوه سنة ٢٥٦هـ.

قال بعضهم : سمعتُه يوماً يقولُ لعيسى بن فرخانشَاه (١) : عاوِن على الخير تَسْلَمْ ، ولاتَجُزْه فتندَمْ . فقيل لهُ : إنَّ هذا بيتُ شعرٍ . قال : ماتعمَّدتُ ذلك ، ولكني رويت قولَ الشاعرِ :

تَعَاوَنْ على الخيراتِ تَظْفَرْ ، ولاتكنْ
على الإثمِ والعُدوانِ مِمَّنْ يُعَاوِنُ

* * *

المُعْتَمِدُ (٢)

قال محمدُ بنُ عبيد الله بن يحيى بن خاقان(٣) : بعثني أَبي إلى المعتمد في شيءٍ ، فقال لي : اجلس . فاستعظمتُ ذلك ، فأَعادَ ، فاعتذرتُ بأَنَّ ذلك لايجوزُ ،

* * *

(١) عيسى بن فرخانشاه ، وزير المعتمد .

(٢) أحمد المعتمد بن جعفر المتوكل ولد سنة ٢٢٩هـ ، وولي الخلافة سنة ٢٥٦هـ طالت أيام ملكه ، وعاونه أخوه الموفق معاونة كبيرة على قهر أعدائه ، ثم استبد بالأمر ، مات سنة ٢٧٩هـ

(٣) محمد بن عبيد الله بن يحيى أبوه وزير المعتمد ، صار محمد بعده وزيراً للمقتدر وكاتبه .

فقال لي : يامحمدُ ، إنّ أدبَك في القبول مني خيرٌ من أدبِكَ في خِلافِي .

وقال يوماً لبعضِ نُدَماثِه : إذا عدمَ أهلُ التفضّل ، هَلَكَ أهلُ التجمّل .

* * *

المُعْتَضِد (١)

حدّث العلاءُ بنُ صاعدٍ(٢) قال : لما حُمِلَ رأسُ صاحبِ البصرة(٣) ركب المعتضدُ في جيش لم يُرَ مثلُه ، فاشْتَقّ أسواقَ بغدادِ ، والرأسُ بين يديهِ ، فلما صرنا ببابِ الطاقِ(٤) صاح قومٌ من دربٍ من تلك الدروبِ :

(١) أحمد المعتضد بن طلحة الموفق ، ولد سنة ٢٤٢هـ ، أظهر بسالة في الحروب ، تولى الخلافة سنة ٢٧٩هـ وكان مهيبا حازما ، توفي سنة ٢٨٩هـ .

(٢) العلاء بن صاعد أبو عيسى كاتب أديب ، كان يتعاطى علم النجوم .

(٣) صاحب البصرة أو صاحب الزنج على بن محمد ، ادعى أنه علوي سمي بصاحب البصرة لأنه دخلها وذبح كثيراً من أهلها ، وبصاحب الزنج لأن أتباعه منهم ، خرج سنة ٢٥٢هـ ، وقتله الموفق سنه ٢٧٠هـ .

(٤) باب الطاق : محلة كبيرة ببغداد بالجانب الشرقي منها تعرف بطاق أسماء .

رَحِمَ اللهُ معاويةَ . وزادَ حتَّى علَتْ أصواتُهم ، فتغيَّر وجهُهُ وقال : أما تسمع ياأبا عيسى ؟ ماأعجبَ هذا ! ماذِكْرُ معاويةَ في هذا الأمرِ ؟والله لقد بلغ أبي الموتَ ، وماأفلتُّ أنا منهُ إلاَّ بعد مُشارَكته ، ولقينا كل جهد وبَلاءٍ ، حتى أرحناهُم من عدوِّهم ، وحصَّنَّا حُرَمَهم وأموالَهم . تركوا أنْ يترحَّموا على العباسِ ، أو عبدِ الله بن العباس ، أو مَن وُلِدَ من الخلفاء ، وتركوا الترحُّمَ على أمير المؤمنين عليٍّ ، وحمزةَ وجعفرٍ والحسنِ والحسينِ ، والله لابرحتُ أو أُؤثِّر في تأديب هؤلاء أثراً لا يعاودُون بعدهُ مثلَه .

ثم أمر بجَمْعِ النفَّاطينَ(١) لتحريق الناحية ، فقلتُ : أيُّها الأميرُ ، هذا من أشرفِ أيام الإسلام فلا تُفْسِدْهُ بجهلِ غِلْمَةٍ لا أخلاقَ لهُم ، ولم أزل أداريه وأرفُقُ به حتى سارَ .

لما ولي المعتضد حسُنَتْ آثارُه ، وأمر بالزيادة في

(١) النفاطون : جمع نفاط ، الجندي المتخصص برمي النفط المشتعل لإحراق العدو .

المسجدَ الجامعَ بالمدينـــة ، وأمر بتسهيلِ عقبةِ حُلْوَان(١) . وأنفق عليها نَيِّفاً وعشرين ألف دينار ، وأمر بردِّ المواريثِ على ذوي الأرحام . وأخّرَ النَّيْروزَ ، واستبدَّ(٢) الخراج إلى وقْتِ إدراكِ الغلاَّت ، وعمّر الدُّنيا ، وضَبَطَ الأطرافَ ، وأحسنَ السياسة . وقيل : إنَّه أُفضَتْ إليه الخلافةُ وليس في الخزانة إلا سبعةَ عشرَ درهماً زائفةً ومات وخَلَّفَ مايزيد على عشرين ألفَ ألفِ دينار.

* * *

المُكْتَفِي(٣)

نظر إلى رَأسِ صاحبِ الزنج ، وقد أخرجَ إليه من من الخزانة ، فقال : لعنهُ الله ! فإنه عدا على الأنساب(٤) ، كما عدا على الأسلابِ .

* * *

(١) حلوان : المراد التي بالعراق وعقبه حلوان التي بها نخلتا حلون الشهيرتان وقد غرم فيها عشرين ألف دينار ، فسهلها بعد أن كان الناس يلقون منها مشقة عظيمة .

(٢) استبد الخراج . أخر ميعاد تسديده

(٣) المكتفي بالله : هو علي بن المعتضد ، ولد سنة ٢٦٣هـ وتولى الخلافه سنة ٢٨٩هـ تغلب على الثائرين عليه ، وتوفي سنة ٢٩٥هـ .

(٤) المراد : ادعى النسب إلى العلويين وليس منهم . والأسلاب غنائم الحرب .

المُقْتَدِر (١)

حُكي أنَّ علي بن عيسى الوزير(٢) كتب عنه كتاباً إلى ملكِ الروم ، فلما عرض عليه . قال : فيه موضعٌ يحتاجُ إلى إصلاحٍ ، فسألوه عن ذلك — وكان قد كتب في الكتاب : « إن قَرُبْتَ من أمير المؤمنين قرُبَ منك ، وإن بعُدْتَ بعُدَ عنك » — فقال : ماحاجتي إلى أن أقرُبَ منه ؟ اكتبوا : « إن قرُبتَ من أمير المؤمنين قرَّبَك ، وإنْ بعُدت بعّدَك » .

ولم يُعرفْ للمقتدرِ مثلُ هذا الكلام ، ولامثلُ هذه الفِطْنة ، وقد ذكرناه على ماحُكِيَ ، وهو بكلام غيره من الخلفاء أشبه .

* * *

---

(١) المقتدر ، هو جعفر بن المعتضد ، ولد سنة ٢٨٢هـ . وتولى الخلافة سنة ٢٩٥هـ ، خلعه الناس وبايعوا المعتز ، ثم خلع المعتز وأعيد هو ثانية ، كثرت الفتن في أيامه ، قتله مؤنس سنة ٣٣٠هـ .

(٢) علي بن عيسى بن داود ، وزير المقتدر ، ولد سنة ٢٢٤هـ ، وولي الوزارة سنة ٣٠٠هـ ، وتوفي سنة ٣٣٤هـ ، وله مؤلفات .

الرّاضي (١)

لما استوزر ابن البَريدِيّ (٢) ، وهو غائبٌ عن حضرتِهِ ، وأجابهُ إلى مقترحاتِهِ ، قال الراضي كالآنفِ من طَرْحِهِ الوزارة على من يَشْتَرِطُ فيها : إنّ الوزارةَ قطعةٌ مِنَ الخلافةِ ، وَوَهنها وهْنُ الخلافةِ .

* * *

إبراهيمُ بنُ المهديّ (٣)

كتب إليّ أحمد بن يوسف(٤) الكاتب : لعن الله زماناً أخّركَ عمّن لايساوي كلُّهُ بعضَكَ .

وقال محمد بن راشدِ : سألنِي إبراهيمُ بنُ المهديّ

---

(١) هو محمد الراضي بن المقتدر بن المعتضد ، ولد سنة ٢٩٧هـ ، وتولى الخلافة سنة ٣٢٢ هـ ، تفككت في عهده الدولة العباسية ، ولم يعد تحت يديه إلا بغداد ، مات سنة ٣٣٩هـ .

(٢) تولى الوزارة للراضي ٣٢٧هـ ، وللمتقي سنة ٣٣٠هـ ، وكانت « واسط » تحت نفوذه ، حارب الحمدانيين ، توفي سنة ٣٣٢هـ .

(٣) إبراهيم بن المهدي أخو الرشيد ، ولد سنة ١٦٢هـ ، كان أديبا شاعراً حاذقا في الغناء ، خرج على المأمون عندما ولى علي بن موسى الرضا ولاية العهد ، وقد انتصر عليه المأمون ثم عفا عنه ، توفي سنة ٢٢٤هـ .

(٤) أحمد بن يوسف بن القاسم من أشهر كتاب الدولة العباسية تولى ديوان الرسائل للمأمون وتوفي سنة ٢١٣هـ .

عن رجلٍ ، فقلت : يساوي فلسَيْن . فقال : زدتَ في قيمته درهمين .

وكتب إليّ صديقٌ لهُ : لو عرفْتَ فضلَ الحَسَنِ لتَجنّبْتَ القَبيحَ وأنا وإياكَ كما قال زهير (١) :

وذِي خَطَلٍ في القولِ يحسَبُ أنَّهُ
مصيبٌ ، فما يُلمِم به فهو قائلُهْ
عبَأتُ له حلمِي ، وأكرمتُ غيرَهُ
وأعرضْتُ عنهُ ، وهو بادٍ مقاتِلُهْ

ومن إحسانِ اللهِ إلينا ، وإساءتكَ إلى نَفْسِك أنّا صَفَحْنَا عمّا أمكننا ، وتناولتَ ما أعجزكَ .

ولما أُدخِل على المأمون عند الظفَر به سَلَّم عليه ، وقال : يا أمير المؤمنين وليُّ الثأرِ مُحَكَّمٌ في القِصاص ، والعفوُ أقربُ للتقوى ، ومن مُدَّ له في الأناةِ حَسُنَ عندهُ الذَّنْب ، وقد جعلكَ اللهُ فوقَ كل ذي ذَنْبٍ كما جعل كل ذي ذنب دُونَك ، فإن عاقبتَ فبحقِّكَ ، وإن عفوتَ فبفَضْلِك .

(١) زهير بن أبي سلمى ، شاعر جاهلي من أصحاب المعلقات .

فقال المأمون : ياإبراهيمُ ، إنِّي شاورتُ العباسَ ابني ، وأبا إسحاقَ أخي في أمركَ ، فأشارا عليَّ بقَتْلِكَ إلا أني وجدتُ قدرَكَ فوقَ ذنبكَ ، فكرهتُ القتلَ لِلازمِ حُرْمَتِكَ .

فقال : ياأميرَ المؤمنين ، قد نصح المشيرُ لما جرت به العادة في السياسةِ ، وحياطةِ الخلافةِ إلا أنك أبيتَ أن تطلبَ النصر إلاَّ من حيثُ عُوِّدتَهُ من العفو ، فإن عاقبتَ فلك نظيرٌ ، وإن عفوتَ فلا نظيرَ لَكَ ، فإن جُرمي أعظمُ من أن أنطِقَ فيه بعذرٍ ، وعفوُ أميرِ المؤمنينَ أجلُّ من أن يَفيَ به شُكر .

فقال المأمون : مات الحقدُ عند هذا العُذر .

فاستَعْبَرَ إبراهيمُ ، فقال المأمون : ماشأنُكَ ؟ قال : الندمُ ، إذ كان ذنبي إلى مَنْ هذه صفته في الإنعام عليَّ ، ثم قال : ياأميرَ المؤمنين ، إنه وإن بلَغ جُرمي استحلالَ دمي فحِلْمُ أميرِ المؤمنينَ وفضلهُ يُبلغاني عَفْوَه ، وإنَّ لي لشفعةَ الإقرارِ بالذنب وحقَّ العمومةِ بعد الأبِ فلا يسقُطْ عن كَرَمِك عَمُّك ، ولايقع دون عفوِكَ عندك .

فقالَ له المأمونُ : لو لم يكن في حقِّ نسبِكَ حقُّ الصفحِ عنكَ لبلَّغَكَ ماأمَّلْتَ حُسْنُ تَنَصُّلِكَ ، ولطفُ تَوَصُّلِكَ .

ثم أمره بالجلوسِ ، وقال له : ماالبلاغةُ ياإبراهيمُ ؟ قال : أن يكونَ معناكَ يُجَلِّي عن مَغْزاكَ .

فقال المأمون : هذا كلامٌ يشذَّرُ(١) بالذهب ، لقد ذهبَ بهِ وَغَراً(٢) كان في صدرِي عليه .

* * *

عبدُ الله بنُ المُعْتَزِّ (٣)

كتب إلى بعضِ إخوانِهِ : لو كنتُ أعلمُ أنك تحبُّ معرفةَ خبرِي لم أبخل به عليك ، ولو طمعتُ في

---

(١) يشذر بالذهب : يفصل به .

(٢) الوغر : احتراق الغيظ ، وذهب وغر صدره ، ووغم صدره : زال ما فيه من غل وعداوة .

(٣) عبد الله بن المعتز بن المتوكل ، الشاعر المبدع ، والأديب الناثر ، صاحب كتاب طبقات الشعراء ، ولد سنة ٢٤٧ﻫ ، بويع بالخلافة سنة ٢٩٦ﻫ ، وبقي بها يوما واحداً ، ثم خلع وقتل .

جوابك لسألتُ عن خبرك ، ولو رجوتُ العُتْبى منك لأكثرتُ عِتابَك ، ولو ملكتُ الخواطرَ لم آذَن لنفسي في ذكرك . ولولا أنْ يضيع وصفُ الشوقِ لأطلتُ به كتابي ، ولولا أنّ عزّ السلطان يشغلك عني لشغلت به سروري ، والسلام .

وكتب يذمُّ رجلاً : ذكرتَ حاجةَ أبي فُلانٍ المُكْنَى ليُعرفَ ، لاليُكْرَمَ ، فلا وصلَهَا اللهُ بالنجاح ، ولايَسّرَ بابها للانفتاح وذكرتَ عُذراً نَضَحَ(١) به عن نفسه ، فو اللهِ مانضحَ عنها لكنه نَضَحَ عليها(٢) ، وأنا والله أصونُك عنه ، وأنصحُ لكَ فيه ، فإنه خبيثُ النية ، متلقّفٌ للمعايب ، مُقَلِّبٌ للسانهِ بالملَق ، شائن(٣) بالتُخلُّق وَجهَ الخُلُق ، موجودٌ عند النعمةِ ، مفقودٌ عند الشِّدة ، قد أنِسَ بالمسألة ، وضَرِيَ(٤) بالرَّد ، فلا تَعُقَّ عقلكَ باختياره ، ولاتوحِش النعمةَ بإذْلالها به .

---

(١) نضح عن الشيء : ذب ودفع عنه ، وأصل نضح من رمي السهام .

(٢) نضح عليها : رماها .

(٣) شائن : عائب ، والتخلق : إبداء الإنسان ما ليس من خلقه .

(٤) ضري : تعود .

وقال ابنُ المعتز : الخضابُ مِنْ شهودِ الزّورِ .

ولعبد الله بن المعتز آدابٌ مجموعة ، ومواعظٌ وحِكَمٌ تمرُّ أكثرها في كلام المتقدمين ، وفيها نوادرُ من كلام أميرِ المؤمنين عليٍّ كرم الله وجهه وغيرِه ، وقد اخترتُ بعضَها ، وأوردته هذا المكانَ ، فمنها :

إعادَةُ الاعتذارِ تذكيرٌ بالذنبِ .

في العواقبِ شافٍ أو مريحْ .

العقلْ غريزةٌ تربيها التجاربُ .

النصحُ بينَ الملأ تَقْريعٌ .

أقمِ الرّغبةَ إليك مقام الحُرمَةِ بِكَ ، وعظّم نفسك عن التعظّمِ ، وتطوّلْ ولا تتطاوَل(٢) .

الأملُ رفيقٌ مؤنسٌ ، إن لم يُبْلِغْكَ فقد استمتعتَ به.

لايقومُ عِزُّ الغَضبِ بذُلِّ الاعتذار .

الشفيعُ جناحُ الطالبِ .

إن بقيتَ لم يَبقَ الهم .

---

(١) التطاول : الاستطالة والترفع ، والتطول : التفضل . والتطول عند العرب محمود ، والتطاول مذموم .

لاتُنكحْ خاطبَ سرّك(١) .

من زاد أدبُه على عقلِه كان كالرّاعي الضعيفِ مع غنمٍ كثيرةٍ .

الدارُ الضيقةُ العَمى الأصغَر .

إذا هرب الزاهدُ من الناسِ فاطلُبْه ، وإذا طلبهم فاهربْ منه .

النّمّامُ جسرُ الشرِّ .

لا تشِن وجهَ العفوِ بالتّقريع .

إذا زال المحسودُ عليهِ علمتَ أنّ الحاسدَ كان يحسدُ على غيرِ شيءٍ .

العجزُ نائمٌ ، والحزْم يقظانُ .

منْ تجرّأ لكَ تجرّأ عليك

ماعفا عن الذنبِ مَنْ قرّع به .

أمرُّ المكارهِ ما لم يُحتَسَب (٢) .

---

(١) أي لا تطلعه على ما يريد من سرك .

(٢) يحتسب : أي ينتظر المثوبة في الآخرة .

عبدُ الشهوةِ أذلُّ من عبد الرقّ .

لا ينبغي للعاقل أن يطلبَ طاعةَ غيره ، وطاعةُ نفسِهِ عليهِ ممتَنعَة .

الناس نَفْسان : واجدٌ لا يكتفي ، وطالبٌ لا يجد .

ذُلُّ العَزْلِ يضحك مِنَ تيهِ الولايةِ .

كلما كثُر خزّانُ الأسرارِ ازدادَت ضياعاً .

بشّر مال البخيل بحادثٍ أو وارثٍ .

* * *

الباب الرابع

كلام جماعة

من بني أمية

قال سعيدُ بن العاص (١) : لا تمازحِ الشريفَ ؛ فيحقدَ عليك ، ولا الدنيء فيجترىء عليك .

ودخل عمرُو بن سعيد إلى معاوية فقال له : إلى من أوْصَى بك أبوك ؟ قال : إنَّ أبي أوصى إلي ، ولم يوصِ بي . قال : فبأيِّ شيءٍ أوصاك ؟ قال : أوصانِي ألا يفقدَ إخوانُه منه إلا وجهَه . فقال معاوية لأَصحابه : إن ابن سعيدٍ هذا لأَشدق (٢) .

قال عُتبة بن أبي سفيان (٣) لمعلم ولده (٤) : ليكن

(١) المراد هنا سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص ، من أجواد العرب وأشراف بني أمية ، توفي سنة ٥٩هـ .

(٢) الأشدق : الواسع الشدق ، كناية عن الفصاحة .

(٣) عتبة بن أبي سفيان أمير مصر

(٤) اسمه : عبد الصمد بن الأعلى الشيباني .

أوّلَ إصلاحِكَ لوالدي إصلاحُ نفسِكَ ؛ فإنَّ عيونَهم معقودةٌ بعينِكَ ، فالحسَنُ عندهم ما استحسنتَه ، والقبيحُ عندهم ما استقبحتَه ؛ علِّمْهم كتابَ اللهِ ، وروِّهم من الحديث أشرَفَهُ ، ومن الشعر أعفَّه ، ولا تُكْرِهْهم على علْمٍ فيملُّوه ، ولا تَدَعْهُم فيهجرُوه ، ولا تخرجْهم من علْمٍ إلى علْمٍ حتى يُتقِنُوه فإنَّ ازدحامَ العلم في السَّمْع مَضَلَّةٌ للفهْم ؛ وعلِّمهم سِيرَ الحكماءِ ، هدِّدهم بي ، وأدبهُم دوني ولا تَتَّكِل على عُذرٍ منِّي ؛ فإني اتَّكلتُ على كفايةٍ منك .

أطعم أبو سفيان الناس في حجَّة الوداع ، فقصَّر طعامُه ، فاستعانَ برسولِ الله – صلى الله عليه وسلم – فأعانه بألْفِ شاةٍ ؛ فقال أبو سفيان : بأبي أنتَ وأُمي ؛ لقد حاربناك فما أجْبَنَّاك (١) ، وسألناك فما أبْخلْناكَ (٢).

قال سعيدُ بن العاصِ ؛ موطنان لا أعتذرُ من العِيِّ فيهما : إذا سألتُ حاجةً لنفسي ، وإذا كلمتُ جاهلاً .

---

(١) أجبنه : وجده جبانا .

(٢) أبخله : وجده بخيلا .

وكان سعيدُ بن العاص والياً على المدينة من قِبَلِ معاويةَ . وكان معاويةُ يعاقِبُ بينهُ وبينَ مروانَ (١) في ولايتها ، وكان يُغري بينهما ؛ فكتبَ إلى سعيد : أن اهدمْ دارَ مَروان ، فلم يهدمها ، وأعاد إليه الكتاب بهدمها ، فلم يفعل ، فعزله ، ووَلَّى مَرْوانَ ، وكتب إليه : أن اهدم دارَ سعيد ؛ فأرسل الفَعَلَةَ ، وركبَ ليهدمَها فقال له سعيدٌ : يا أبَا عبدِ الملك ؛ أتهدمُ داري ؟ قال : نعم ، كتبَ إليَّ أميرُ المؤمنين ، ولو كتب إليكَ في هدم داري لفعلتَ . فقال : ما كنتُ لأَفْعلَ . قال : بلى ، واللهِ لو كتَبَ إليكَ لهدمتَها . قال : كلاً يا أبَا عبد الملك ؛ وقال لغلامه : انطلِقْ فجئني بكتاب معاوية ؛ فجاء به ، فقال مَرْوان : كتب إليك يا أبَا عثمانَ في هدم داري ، فلم تهدمها ولم تُعلِمني ؟ قال : ما كنتُ لأَهدمَ داركَ ، ولا أَمُنَّ عليك ، وإنما أرادَ معاويةُ أن يحرِّضَ بيننا ؛ فقال مروان : فداكَ أبي وأمي ، أنتَ واللهِ أكثرُ مني رِيشاً (٢) وعقِباً ، ورجع فلم يهدم دارَ سعيد .

---

(١) مروان بن الحكم .

(٢) الريش : الخصب والمعاش والمال المستفاد واللباس الحسن الفاخر والعقب : الأولاد .

ذكر العتبيُّ : أنَّ معاويةَ بن أبي سفيان أسرَّ إلى عمرو بن عنْبسة بن أبي سفيانَ حديثاً ، قال عمرو : فجئتُ إلى أبي ، فقلت : إنَّ أمير المؤمنين أسرَّ إليَّ حديثاً ، أفأُحدِّثك به ؟ قال : لا ؛ لأنَّهُ من كتمَ حديثَه كان الخيارُ إليه ، ومن أظْهرَه كان الخيارُ عليه . فلا تجعلْ نفْسَك مملوكاً ، بعد أن كنتَ مالِكا . فقلت : أو يدخلُ هذا بين الرجل وابنِه ؟ قال : لا ، ولكن أكرهُ أن تُذلِّلَ لسانَك بإفشاء السرِّ . قال : فرجعتُ إلى معاويةَ ، فذكرتُ ذلك له . فقال : أعتقَك أخي من رِقِّ الخطأ .

خطب عُتْبةُ بن أبي سفيان الناسَ بالموسم في سنةِ إحدى وأربعينَ ، وعهدُ الناسِ حديثٌ بالفِتنْةِ فاستفتح ، ثم قال :

أيُّها الناس ، قد ولِّينَا هذا الموضعَ الذي يضاعِفُ الله عزَّ وجل للمحسنينَ فيهِ الأجرَ ، وعلى المسيءِ الوِزْرَ (١) ، فلا تمدُّوا الأعناقَ إلى غيرنا ، فإنها تنقطعُ

(١) الوزر : الذنب .

دُونَنا ، ورُبَّ مُتَمَنٍّ حَتْفُه في أمنيتِه . اقبلُوا العافية ما قبلناها منكم وفيكم ، وإياكم و « لو » ، فقد أتْعَبت من كان قبلَكم ، ولن تُريحَ من بعدكم . أسألُ الله أنْ يعينَ كُلاًّ على كلٍّ .

قالوا : لما استتبَّ الأمر لمعاوية ، قدم عليه عبدُ الله بن عباس ، وهي أولُ قَدْمَةٍ قدمها عليه ، فدخل وكأنه قرحةٌ (١) تَتَبَجَّسُ (٢) ، فجعل عتبةُ بن أبي سفيان يُطيلُ النظرَ إلى ابنِ عباسٍ ، ويُقِلُّ الكلام معه . فقال ابنُ عباس : يا عتبةُ ، إنكَ لتُطيل النظر إليَّ ، وتُقِلُّ الكلام معِي . ألِمَوْجِدةٍ فدامتْ ، أو لمعتبةٍ فلازالَتْ ؟ قال له عُتْبة : ماذا أبقيْتَ لما لا رأيت ؟ أمَّا طُولُ نظري إليكَ فسروراً بكَ ، وأما قِلةُ كلامي معك فقِلَّتُه مع غيرك ، ولو سلَّطْتَ الحقَّ على نفسك لعلمتَ أنه لا ينظر إليك عينُ مُبْغِض .

فقال ابن عباس : أمهيْتَ (٣) يا أبا الوليد ، أمهيت ! لو تحقق عندنا أكثرُ ممَّا ظننَّاه لمحاه أقلُّ مما قلتَ .

---

(١) القريحة والقرح : أول ما يخرج من البئر حين تحفر .

(٢) تتبجس · تتفجر

(٣) أمهيت . بلغت ما تريد ، وأصله : بلغ الماء في حفره .

فذهب بعضُ من حضر أن يتكلم ، فقال معاوية : اسكتْ . وجعل معاوية يصفق بيديه ويقول :

جَنْدلتَانِ اصطكّتا (١) اصْطِكاكا

دعوتُ عركاً إذ دعَوْا عِراكـــا

إنّ الداخل بين قريش لحائنٌ (٢) نفسه .

وقال سعيدُ بنُ العاصِ : قبّحَ اللهُ المعروفَ إذا لم يكن ابتداءً من غير مسألةٍ ، فأمّا إذا أتاك ترى دمَه في وجهه ، مُخاطِرا لايدري أتُعطيه أم لا ، وقد بات ليلتَه يتَملْملُ على فراشه ، يُعاقب بين شِقّيه ، مرةً هكذا ، ومرةً هكذا ، مَنْ لحاجته ، فخطرتُ بباله أنا وغيري ، فَميَّلَ (٣) أرجاهم في نفسه ، وأقربهم من حاجته ، ثم عزم عليّ وترك غيري ، فلو خرجتُ له مما أملكُ لم أكافِه (٤) ، وهو عليّ أمَنٌّ مني عليه .

---

(١) الجندلة : الصخرة و« جندلتان اصطكتا » مثل يضرب للقرنين يتصاولان .

(٢) الحائن : الهالك . أي أتاه الحين : وهو الهلاك .

(٣) ميل بين أمرين : تردد ، ثم اختار أنفعهما له .

(٤) لم أكافه : لم أكافئه ، وكافأ وكافى بمعنى واحد .

قالوا : لمّا وُلّي عبدُ العزيز بنُ الوليد بنِ عبدِ الملك(١) دمشقَ ، ولم يكن في بني أُميةَ أَلَبُّ(٢) منه في حداثةِ سِنِّه ، قال أهلُ دمشقَ : هذا غُلام شابٌّ ، ولاعلمَ له بالأمور ، وسيسمعُ منا ، فقام إليه رجلٌ فقال : أصلحَ الله الأمير ، عندي نصيحةٌ . قال له : ليت شعري ماهذه النصيحةُ التي ابتدأْتني بها ، من غير يدٍ سبقَتْ منّي إليك ؟ قال : جارٌ لي عاص مُتخلّفٌ عن ثغر(٣) . فقال له : مااتقيتَ الله ، ولاأكرمتَ أميرك ، ولاحفظت جِوارك . إن شئتَ نَظَرْنا فيما تقولُ ، فإن كنتَ صادقاً ينفعكَ ذلك عندنا ، وإن كنتَ كاذباً عاقبناك ، وإن شئتَ أقلْناك . قال أقلْني . قال : اذهبْ حيثُ شئتَ لاصَحِبَكَ اللهُ . إني أراك شرّ جبلٍ(٤) رجلاً .

---

(١) عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك ، ولي نيابة دمشق لأبيه وغزا الروم سنة ٩٤هـ .

(٢) ألب اسم تفضيل من لب : صار ذا لب .

(٣) عن ثغر : عن حرب العدو . والثغر : الموقع على الحدود مع العدو .

(٤) الجبل . كل صنف من الناس .

ثم قال : ياأهلَ دمشق ، أَمَا أعظمتُم ماجاء به الفاسقُ ؟ إن السعايةَ ــ أحسبُ منهُ(١) ــ سجيَّةٌ ، ولولا أنه لاينبغِي للوالي أن يُعاقِب قبل أن يُعاتِبَ كان لي في ذلك رَأيٌ ، فلا يأتِيَنَّنِي أحدٌ منكم بسعايةٍ على أحدٍ بشيء ، فإنَّ الصادقَ فيها فاسقٌ ، والكاذبَ فيها بهَّاتٌ(٢) .

* * *

(١) المعنى : إني أظن أن السعاية طبيعة فيه .

(٢) البهات : صيغة مبالغة من بهته : إذا قال عنه ما لبس فيه.

الباب الخامس

نكت لآل الزبير

قدم فَضالةُ بنُ شَريكٍ(١) ، على عبد الله بن الزبير ، فقال : إني سِرتُ إليكَ الهواجرَ(٢) ياأميرَ المؤمنين . قال : ولِمَ ؟ أما كان لكَ في البَرْدَيْن(٣) ماتسيرُهما ؟ كأنك تبادرُ نَهْساً ، لاأبالكَ ، فقال : إنّ ناقتي قد نَقِبَ(٤) خُفُّها فاحملني . قال : ارقَعها بجلد ، واخصِفْها بهُلْب(٥) ، وأنْجد بها(٦) ، وسرْ بها

---

(١) فضالة بن شريك الأسدي ، شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام .

(٢) الهواجر جمع هاجرة ، وهي وقت اشتداد الحر في الظهيرة .

(٣) البردان : الغداة والعشي لبرود الجو فيهما .

(٤) نقب الخف : رق .

(٥) الهلب : الشعر أو خصلة منه .

(٦) أنجد بها : سر بها في النجد ، وهو ما غلظ وارتفع واستوى من الأرض .

البرْدَين . قال : إنما أتيتك مُستحملا(١) ، ولم آتيك مُستوصفا ، لعنَ الله ناقةً حملتني إليكَ . قال : إن(٢) وراكبَها ، فانصرفَ وهجاهُ بالأبياتِ التي يقول فيها :

أرى الحاجاتِ عند أبي خُبيبٍ(٣)
نَكِدْنَ ، ولاأميَّةَ في البلادِ(٤)

كان مُصْعَبٌ(٥) يقول : المرأةُ فراشٌ فاستوثِروا .

نازع ابنُ الزبير مَرْوانَ في مجلس معاوية ، فرأى أنَّ ضَلْعَ(٦) معاويةَ مع مروانَ . فقال : ياأمير المؤمنين . إنَّ لك حقّاً وطاعةً علينا ، وإنَّ لنا سِطَةً(٧) وحرمة ، فأطعِ الله يُطِعْكَ ، فإنه لاطاعةَ لكَ علينا إلاَّ في حقٍّ

---

(١) مستحمل : طالب منه أن يحمله .

(٢) إن : نعم

(٣) أبو خبيب : كنية ابن الزبير ، يقولها له من يذمه ، أما من يمدحه فيكنيه أبا بكر .

(٤) نكد الزمان : ضاق واشتد

(٥) مصعب بن الزبير : أمير وقائد من قواد أخيه ، ولد سنة ٢٦ هـ .

(٦) ضلع معاوية مع مروان : ميله معه .

(٧) السطة : مصدر وسط ، ووسط القوم كناية عن الرفعة والشرف .

الله ، ولاتُطْرِقْ إطراقَ الأفْعُوانِ (١) في أصول السَّخْبر (٢) .

وقال له مرةً : يامعاوية ، لاتدعْ مَرْوانَ يرمي جماهيرَ (٣) قريش بِمشَاقِصِه (٤) ويضربُ صَفَاتهم (٥) بِمعْولِه ، لولا مكانُك لكان أخَفَّ على رقابنا من فَراشَة ، وأقلَّ في أنفسنا من خَشَاشة (٦) ، وايمُ اللهِ لئنْ مَلَكَ أعنَّة خيلٍ تَنْقادُ له ليركبَنَّ منك طَبَقاً (٧) تخافُه .

فقال معاوية : إنْ يطلبْ هذا الأمرَ فقد طَمِعَ فيه منْ هو دونَه وإن يَترُكْهُ يتركْهُ لمَنْ فوقَه ، ومأأراكُم بمُنْتَهِينَ حتى يبعثَ اللهُ عليكم مَنْ لايعطِفُ عليكم

---

(١) الأفعوان : ذكر الأفاعي ، شبهه به لأنه يطرق عند نفث السم .

(٢) السخبر : الشجر .

(٣) الجماهير : جمع جمهور ، وهو معظم الناس .

(٤) المشاقص : جمع مشقص وهو ما طال وعرض من النصال والمراد : لا تدعه يصيبهم بالأذى .

(٥) الصفاة : الحجر الأملس .

(٦) الخشاشة : واحدة الخشاش وهو الهوام .

(٧) الطبق : جمع طبقة ، وهي منزلة فوق منزلة ، والمعنى : ليركبن منك أحوالا ومنازل في العداوة مخوفة .

بقَرابةٍ ، ولايذكرُكُم عند مُلِمَّةٍ ، ويسومُكم(١) خَسْفاً(٢) ، ويورِدُكُم تَالفاً .

قال ابنُ الزبير : إذاً والله نطْلِقُ عِقالَ الحَرب ، بكتائب تمورُ كرجل الجراد(٣) ، تتبعُ غِطريفاً(٤) من قريش لم تَكُنْ أُمُّه براعيةِ ثَلّةْ(٥) .

قال معاويةُ : أنَا ابنُ هند ، أطلقْتُ عِقالَ الحربِ ، فأكلتُ ذَروة السَّنامِ ، وشَربتُ عَنَفوانَ المَكْرَعِ (٦) . وليس للآكلِ إلاّ الفِلْذَةُ (٧) ، ولاللشاربِ إلا الرَّنْقُ (٨).

لِيمَ مُصعَبُ بنُ الزُّبيرِ على طُول خُطبتهِ عَشيةَ عرَفَة ، فقال : أنا قائِمٌ وهم جلوسٌ وأتكلم وهم سكوتٌ ويضجرون ! .

---

(١) سامه الأمر : ألزمه إياه عسرا

(٢) الخسف : القهر والإذلال .

(٣) رجل الجراد : القطعه التي قوى بعضها بعضا

(٤) الغطريف : السيد .

(٥) راعية ثلة : راعية الغنم .

(٦) عنفوان المكرع : أوله وهو أصفى ما يكون .

(٧) الفلذة : القطعه من الكبد أو السنام

(٨) الرنق : الكدر .

وكان عبدُ الله بن الزّبير يقول : لاعاش بخيرٍ من لم يرَ برأيه مالم يرَ بعينه .

قال عروةُ(١) بنُ الزبير : التواضعُ أحدُ مصايدِ الشّرَف .

لما قال عبدُ الله بن الزبير : أكلتم تمْري ، وعصيتُم أمري . قال فيه الشاعر :

رأيتُ أبا بكرٍ — وربُّكَ غالبُ
على أمره — يبغي الخلافةَ بالتمرِ

قال عمرُ بن شبَّة(٢) : وقف ابنُ الزبير على باب ميَّةَ ، مولاةٍ كانت لمعاويةَ . تُرفَع حَوائجُ الناس إليها . فقيل له : ياأبا بكر تقفُ على باب ميَّةَ ! قال : نعم . إذ أعْيتكَ الأمورُ من رؤوسها فأتها من أذنابها .

---

(١) عروة بن الزبير بن العوام ، أحد الفقهاء العظماء ، كان صالحا كريما عالما بالدين ، ولد سنة ٢٣ هـ ، وتوفي سنة ٩٧هـ .

(٢) عمر بن شبة : شاعر راوية مؤرخ محدث ، ولد سنة ١٧٢هـ . وتوفي سنة٢٦٢هـ ، وله مؤلفات .

قال عُروة : لعهدي بالناس ، والرجل منهم إذا أراد أن يسوءَ جاره سأل غيرَه حاجتَه ، فيشكوهُ جارُه ، ويقول : تَجاوزني بحاجتِه ، أراد بذلك شَيْني(١) .

لما أتى عبدَ الله بنَ الزبير قتلُ مُصعبٍ ، خَطَبَ الناسَ ، فحَمِدَ الله وأثنى عليه ثم قال :

إنه أتانا خبرُ مَقْتَلِ المُصْعَبِ فسُررنَا واكْتَأَبْنَا ، فَأَمَّا السرورُ فلما قُدِّر له من الشهادة ، وخُيِّر لَهُ من الثواب ، وأمَّا الكآبةُ فَلوعةٌ يَجدُها الحميمُ لِفراق حَميمه . وإنّا والله لانموتُ حَبَجاً(٢) كميتةِ آل أبي العاص(٣) ، إنما نموتُ قَتْلاً بالرماح ، وقَعْصاً(٤) تحتَ ظِلالِ السيوف ، فإنْ يهلكِ المُصعبُ فإنَّ في آلِ الزبيرِ خَلَفاً .

وقال لما أتاه قَتْلُه : أشَهِدَهُ المُهَلَّبُ ؟ قالوا : لا .

---

(١) الشين : العيب .

(٢) الحبج : أن تنتفخ بطون الإبل من أكلها االعرفج ، وقد تموت من ذلك .

(٣) والمراد أنه يعيب عليهم إقبالهم على المطاعم والشهوات .

(٤) مات قعصاً : إذا أصابته ضربة أو رمية فمات مكانه .

كانَ المهلَّبُ في وجوهِ الخوارج . قال : أفَشَهِدَهُ عبَّادُ بنُ الحُصَيْنِ الحَبَطي(١) ؟ قالوا : لا . قال : أفشهدهُ عبدُ الله بنُ خازم السُّلَمي(٢) ؟ قالوا : لا . فتمثل عبدُ الله بن الزبير :

فَقلتُ لها عيثي جَعَارِ(٣) ، وَجَرِّري
بلحمِ امرئٍ لم يشهدِ اليومَ ناصِرُهْ

خَرَج عُروةُ بنُ الزبير إلى الوليدِ ، فوَطِئَ عَظْماً ، فلم يَبْلُغْ دمشقَ حتى ذُهِبَ به كلَّ مَذْهبٍ ، فجمعَ الوليدُ الأطباءَ ، فأجمع رأيُهم على قَطْعِها . فقالوا له : اشربْ مُرْقِداً(٤) ، فقال : ماأحبُّ أنْ أغفُلَ عن ذِكْرِ الله ، فأُحْمِيَ له مِنْشَارٌ ، وكان

---

(١) عباد بن الحصين بن يزيد الحبطى ، فارس ابي تميم ، ولي شرطة البصرة لابن الزبير .

(٢) عبد الله بن خازم بن أسماء السلمي ، ولي إمرة خراسان لبني أمية .

(٣) جعار : اسم للضبع أصله جاعرة ، وعيثي جعار : مثل يضرب إذا أتت الضبع الغنم وغاب الحارس .

(٤) المرقد : شراب يشربه الرجل فينام .

قَطْعاً وحَسْماً(١) ، فما تَوَجّعَ ، وقال : ضعوها بين يديّ ، لئن كنتْ ابتُليتُ في عضو لقد عُوفيت في أعضاء .

فبينا هو على ذلك أتاه نَعيُ ابْنِه محمدٍ ، وكان قد اطّلعَ من سَطحٍ على دوابٍ للوليد ، فسقط بينها فخَبَطَته فقال عروهُ : الحمد الله ، لئن أخذتَ واحداً لقد أبقَيتَ جماعةً ، ولئن ابتَلَيْتَ في عضو لقد أبقيتَ أعضاءً .

حدّث وهبْ مَوْلى آلِ الزبير أنه قال : كنت مع عبد الله بن الزّبير بمكة في ولايته ، فكتب إليه رجل كتاباً يعظه فيه :

أما بعدُ ، فإنّ للتقوى في أهلها علامات يُعرفون بها ، ويعرِفونَها من أنفسهم ، مِنْ صَبرٍ على البلاء ورِضىً بالقَضاء . وشُكرٍ للنِّعمةِ ، وذلٌّ لحُكمِ القرآنِ ، وإنما الإمامُ كالسُّوقِ . يُحمل إليها مازَكا(٢) فيها ، فمن كان مِن أهل الحقّ أتاهُ أهلُ الحق بحقِّهم ،

---

(١) المعنى : وكان القطع قطعا حسما . والحسم هو الكي بعد القطع حتى لا ينزل الدم .

(٢) زكا : طهر .

وَمن كان من أهلِ الباطل أتاه أهلُ الباطل بباطلهم ، فانظر أيّ الإمامين أنت . والسلام .

قال : فكان عبدُ الله يعجب من بلاغةِ هذه الرسالةِ وإيجازها ، ويضعُها تحتَ فراشه ، ويتعَاهدُ قراءتَها .

كان لعبد الله بن عروة مَولاةٌ يُقال لها : شُهْدة ، ففزعتْ ليلاً ؛ فسمعها تقول : اللهمَّ إنْ أحسنتُ فأحسنْ إليّ ، وإن أسأتُ فأسِيءْ إليَّ . فقال : أيْ شَهَادُ . عَتَقَ ما يملكُ (١) إن لم يكنْ هذا أقلَّ مالكِ عندْ ربِّك .

قال عبد الله بن عُروة بن الزبير : إلى الله أشكُو عيبي مالا أدعُ ، ونَعْتِي مالا آتي ، وإنما يُبْكَى للدنيا بالدين .

نازع عبد الله بن الزُّبير أخاه عَمْراً (٢) ، والأمير بالمدينة سعيدُ بن العاص ، فاستعلى عبدُ الله في القول ؛ فأقبل سعيدٌ على عمرو ، فقال : إيهاً يا بنَ أبي ؛ فأقبلَ

---

(١) وعتق لما يملك جملة دعائه ؛ فوجده وناداها شهاد تدليلا لها ومعنى : شهدة في الأصل العسل ، وجمعه شهاد .

(٢) عمرو بن الزبير بن العوام ، كان شديد العارضة ؛ قويا .

عليه عبدُ الله ، فقال : هيهاً يا بنَ أبي أُحيحة (١) ، فو الله لأَنا خيرٌ منك . ولأَبي خيرٌ من أبيك : ولأُمّي خيرٌ من أمّك ، ولخالي خيرٌ من خالك ، ولجدّي خيرٌ من جدّك . ثُمّ ، اللهُ رفع بالإسلام بيوتاً ووضع به بيوتاً ، فكان بيتي من البيوت التي رفع ، وكان بيتُك من البيوت التي وضع ، وإنْ خنَس (٢) أنفُك ، وانتفخت لغاديدُك (٣) .

اختصم رجلان في حدٍّ بينهما بالأعوص (٤) ، فتهاترا وتخاصما ، فأتيا الزُّبيرَ بنَ هشامِ بنِ عُروةَ (٥) ، وجعلاه حكَماً بينهما . قال : فقال لهما : كان رجلان من بني إسرائيل اختصما في أرضٍ ، فأذِنَ اللهُ للأرض ، فكلّمتْهما فقالت : لقد ملكَني سبعون أعورَ ، وليس

---

(١) وأبو أحيحة : هو سعيد بن العاص ، جد سعيد هذا ، توفي سنة ٣هـ ، وهو مشرك .

(٢) خنس : من الخنس ، وهو تأخر في الأنف مع ارتفاع قليل في أرنبته .

(٣) اللغاديد : جمع اللغدود : لحمة في الحلق .

(٤) الأعوص : موضع قرب المدينة على أميال يسيرة منها .

(٥) الزبير بن هشام بن عروة محدث ثقة .

منهمُ الآنَ أحدٌ على ظَهْرِ الأرض . قال : فتفرّقا . وقال كل منهما : لا حاجة لي بها ، وترادّاها .

قيل لعُروة الزبيريّ حين حُمل إلى الرشيد مُقَيَّداً : اختضبْ (١) . فقال : حتى أعلم أرَأْسي لي أم لكم ؟ فأُدخل عليه في سِلْسِلَةٍ ، فقال : كنت أشتهي أن أراك فيها ، اخلعُوا عليه . فقال : يا أمير المؤمنين ؛ خلعةَ شتاءٍ لا خلعةَ صيفٍ .

* * *

(١) اختضب : صبغ شعره بالحناء .

الباب السادس

نوادر أبي العيناء(١) ومخاطباته

حَمَلَه بعضُ الوزراءِ على دابّةٍ ، فانتظَرَ علَفَها ، فلما أبطأ عليه قال : أيها الوزير هذه الدابّةُ حَمَلْتَني عليه أو حملتَهُ عليّ (٢) .

قال : وقال لي يوماً : لا تكثر الوقيعةَ في الناس . فقلتُ : إنّ لي في بصري شغلاً عن ذلك . فقال : ذاك أشدُّ لحقْدِك على أهل العافية .

وقال له يوماً المتوكلُ : إنّ سعيدَ بنَ عبدِ الملك

(١) محمد بن القاسم ، كنيته أبو العيناء ، ولد سنة ١٩١ هـ ، هاشمي بالولاء وأديب فصيح ، اشتهر بنوادره ، كاتب شاعر ، ولكنه خبيث اللسان . كف بصره في الأربعين ، وتوفي بالبصرة سنة ٢٨٧ هـ .

(٢) الدابة تطلق على المذكر والمؤنث .

يضحكُ منك ، فقال : (إنَّ الذين أجرَمُوا كانوا منَ الَّذين آمَنُوا يَضْحكُونَ) (١) .

وقال يوماً بحضرته لِخُراشةَ : ابنُ كَمْ أنتَ ؟ قال : ابن نَيِّفٍ وخمسين . قال أبو العيناء : زَانيةً .

ودخل يوماً إلى ابنِ ثَوَابةَ (٢) ؛ فقال : بلغني ما خاطبتَ به أمس أبا الصَّقرِ (٣) ، وما منعه من استقصاءِ الجوابِ إلا أنَّه لم يجد عِرْضاً فيضعَه ، ولا مجداً فيهدمَه ، وبعدُ فإنه عافَ لحمَكَ أنْ يأْكله ، وسَهِكَ (٤) دمَكَ أن يسفِكَه . فقال : ما أنتَ والكلام يا مُكدي (٥) ؟ فقال أبو العيناء : لا تنكر على ابن ثمانين ، وقد ذهبَ بصرُه ، وجفاه سلطانُه ، أنْ يعوِّلَ على إخوانه ، فيأخذَ من أموالهم ، ولكن أشدّ من هذا من يستنزلُ ماءَ أصلابِ

---

(١) سورة المطففين : ٢٩ .

(٢) أحمد بن محمد بن ثوابة من الكتاب في العصر العباسي ، وكان كاتب الرسائل لمعزالدولة . توفي سنه ٢٤٩هـ .

(٣) أبو الصقر : هو إسماعيل بن بلبل ، وزير ، كان صديقاً لابن المدبر .

(٤) سهك : استقذر رائحته .

(٥) المكدي : الشحاذ .

الرجال ، يستفرغه في جوفه ، فيقطع أرزاقهم ، ويعظم إجرامهم

فقال ابن ثوابة : ما تشاجر اثنان إلا غلب ألأمهما .
فقال له : بها غلبت أبا الصقر .

وقال ابن ثوابة يوماً : كتمت (١) أنفاس الرجال
قال : حيث كانوا وراء ظهرك .

وقال له يوماً نجاح بن سلمة (٢) : ما ظهورك وقد خرج توقيع أمير المؤمنين في الزنادقة ؟ فقال : نستدفع الله عنك وعن أصهارك .

ودخل على عبيد الله بن عبد الله بن طاهر (٣) وهو يلعب بالشطرنج ، فقال : في أي الحيزين أنت ؟ فقال (٤) : في حيز الأمير أيده الله .

---

(١) كتمت أنفاس الرجال : جمعتها .

(٢) نجاح بن سلمه كان على ديوان الضياع، ثم ديوان التوقيع والتتبع على العمال للمتوكل .

(٣) عبيد الله بن عبد الله بن طاهر الخزاعي ، ولد سنة ٢٢٣هـ ، أمير شجاع محب للأدب، ولى شرطة بغداد ، وكان له ولع بالهندسة والموسيقا توفي سنة ٣٠٠هـ

(٤) المراد : مع أي اللاعبين أنت .

وغُلب عبيدُ الله فقال : يا أبَا العيناء ؛ قد غُلبنا ، وقد أصابك من النَّدب (١) خمسون رطْلاً ثلجاً . فكن أنتَ في حيلتها . قال : فقام ومضى إلى ابن ثوابة ، وقال : إن الأَمير يدعوك ، فلما دخلا قال : أيَّد اللهُ الأَميرَ ، قد جئتُك بجبل هَمَذان ومَا سَيَذان (٢) ، فخُذْ منه ما شئتَ .

وقال يوماً لولد حجاج بن هارون : في أي بابٍ أنت من النحو ؟ قال : في باب الفاعل والمفعول . فقال : أنتَ في باب أبويكَ إذاً .

ومرَّ على دار عدوٍّ له ؛ فقال : ما خبَرُ أبي محمد ؟ فقالوا : كما تحبُّ . قال : فما بالي لا أسمعُ الرنَّة والصُّراخَ ؟ .

ووعده ابنُ المدبِّر (٣) بدابَّةٍ ، فلما طالبه قال :

---

(١) ندب : الندب والسبق ما يوضع في الرهان فمن سبق أخذه .

(٢) ماسيذان ، موضع على يمين حلوان في العراق .

(٣) ابن المدبر . هو إبراهيم بن محمد بن عبيد الله بن المدبر ، وزير من الكتاب المترسلين من أهل بغداد ، استوزره المعتمد سنة ٢٦٩هـ ، وتوفي سنة ٢٧٩هـ .

أخافُ أنْ أحملَك عليه فتقطعَني ولا أراك . فقال : عِدْني أن تضُمّ إليه حماراً لأواظبَ مُقْتضيا (١)

ووعده أنْ يحمله على بَغْل ، فلقيهُ في الطريق ؛ فقال : كيف أصبحت يا أبا العيناء ؟ قال : أصبحتُ بلا بَغْلٍ ، فضحكَ من قوله ، وبعثهُ إليه .

وحمله بعضهم على دابّةٍ ، فاشتَراها ابنُ الرجلِ منهُ بثمنٍ أخّره ، ولقيه بعدَ أيام ؛ فقال : كيف أنتَ يا أبا العيناء ؟ قال : بخيرٍ يا مَنْ أبُوه يحملُ وهو يُرْجِل .

وقالت له قَيْنَةٌ (٢) : هَبْ لي خاتمَكَ أذكرْكَ به . فقال : اذكُريني بالمنْع .

وقالت له قينةٌ : أنتَ أيضاً يا أعمى ! فقال لها : ما أستعينُ على وجهك بشيءٍ أصلحَ من العمى .

وقال له ابن السِّكِّيت (٣) يوماً : تُراكَ أحطتَ

---

(١) مطالباً بما وعدت

(٢) القينة الجارية المغنية .

(٣) ابن السكيت : هو يعقوب بن اسحق ، من علماء الفقه واللغة والشعر والأدب

بما لم أحِطْ به . قال : ما أنكرتَ ؛ فو الله لقد قال الهدهُدُ ، وهو أخسُّ طائرٍ لسليمانَ : (أحَطْتُ بمَا لم تُحِطْ به)(١) .

وقال : وقُدِّمَ إلى مائدةٍ ـ عليها أبو هفَّان (٢) وأبو العيناء ـ فالوذَجٌ (٣) ، فقال أبو هفَّان : لهذه أحَرمن مكانك في جهنم . فقال أبو العيناء : إن كانت هذه حارَّةً فبرِّدْهَا بِشِعْرِكَ .

وقال له صاعدٌ يوماً : ما الذي أخَّرَكَ عنا ؟ قال : بُنَيَّتِي قال : وكيفَ ؟ قال : قالت : يا أبَهْ ؛ قد كنتَ تغدُو من عندنا فتأْتي بالخِلعة السَّرِيَّة ، والجائزةِ السنيَّة ، ثم أنتَ الآن تغدُو مُسْدِفاً (٤) ، وترجعُ مُعتماً ، فإلى من ؟ قلت : إلى أبي العلاء ذي الوزارتين .

---

(١) سورة النمل : ٢٢ .

(٢) أبو هفان : هو عبد الله بن أحمد المهزمي ، راوية ، شاعر ، أديب أخذ عن الأصمعي ، كان منهتكا فقيرا ، وله تصانيف بعضها مطبوع .

(٣) الفالوذج . نوع من الحلوى

(٤) السدف : الظلمة والليل . وأعتم . أبطأ وتأخر .

قالت : أيُعطيكَ ؟ قلتُ : لا . قالت : أيُشَفِّعك ؟ قلت : لا ، قالت : أفيرفَع مَجلسَك ؟ قلت : لا . فقالت : يا أبَهْ ، ((لِمَ تَعبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عنْكَ شيْئاً)) (١) .

وقال له عُبيدْ الله بن سُليمان (٢) : إنَّ الأخبارَ المذكورةَ في السخاءِ وكثرة العطاء أكثرُهَا تصنيفُ الورَّاقين ، وأكاذيبُهم . قال : ولِمَ لا يكذبون على الوزير أيَّده الله .

وقال له محمد بنُ مُكَرَّم (٣) : همَمتُ أنْ آمر غلامي بدَوْسِ بطنك . فقال : الذي تخلفه على عيالك إذا ركبتَ ، أو الذي تحمله على ظهركَ إذا نزلتَ ؟

وقال يوماً لرجل سلَّمَ عليه : من أنتَ ؟ . قال : رجلٌ من ولدِ آدم . قال : ادنُ مني عانِقْني ، فما ظننتُ أنه بقِيَ من هذا النَّسلِ أحد .

---

(١) سورة مريم : ٤٢

(٢) عبيد الله بن سلمان بن وهب ، كاتب في العصر العباسي ، ولد سنة ٢٢٦هـ ، استوزره المعتمد والمعتضد وتوفي سنة ٢٨٨هـ .

(٣) كان مشهورا في بغداد بالعلم والادب ، توفي سنه ٢٣١ هـ

وقال له أحمدُ بن سعيدٍ الباهليّ : إني أصبتُ لباهلةَ فضيلةً لاتُوجَد في سائر العرب . قال : وماهي ؟ قال : لايُصابُ فيهم دَعِيّ . فقال : لأنه ليس فوقَهُم من يقبلُهم ، ولادُونَهم أحدٌ فينزلُون إليه .

وحضره يوماً ابنُ مكرَّم فأخذَ يُؤذيه ، فقال له ابنُ مكَرَّم : الساعةَ والله أنصرفُ . فقال : مارأيتُ من يتهدَّدُ بالعافية غيرَك .

وقال له يوماً مايُعَرِّض به : كم عَددُ المُكْدينَ (١) بالبصرة ؟ قال : مثلُ عدد البغّائين ببغداد .

وقدم ابن مكرَّم من سفر ، فقال له أبو العيناء : ماأهديتَ لي ؟ . قال : قدمتُ في خُفٍّ . قال : لو قدمتَ في خفٍّ لخاتَّفْتَ نفسكَ .

وقال له ابن مكرَّم : مذهبي الجمعُ بين الصَّلاتَين . قال : صدقتَ ، ولكن تجمعُ بينهما بالتَّرك .

وقال له ابنُ بدْرٍ (٢) يوماً وهو على بابه : أهذا

(١) المكدين : جمع مكدي ، وهو المتسول السائل الملح .

(٢) هو أحمد بن بدر الشرابي كانت إليه الشرطة زمن الراضي .

المنزل ؟ قال : نعم ، فإن أردتَ أنْ ترى سوءَ أثرِكَ فانزِل .

قال له أبو الجمّاز : كيف ترى غِنائي ؟ . قال : كما قال الله عزّ وجل : (إنّ أنكَرَ الأصوَات لَصَوتُ الحميرِ) (١) .

ودخل إلى المتوكّل ، فَقَدّم إليه طعام ، فغمسَ أبو العيناء لقمته في خَلٍّ كان حامضاً ، فأكلها وتأذّى بالحموضة ، وفطن المتوكل فجعل يضْحك ، فقال : لاتلمني ياأمير المؤمنين ، فقد مَحت الإيمان من قلْبي .

وقال له السّدْرِيّ : أشتهي أن أرى الشيطانَ . فقال : انظر في المرآة .

قال أبو العيناء : رأيت محمد بن مكرم يصلي صلواته كلّها ركعتين ركعتين ، فقلتُ : يامحمد ، ماهذا الذي أراك تفعله ؟ قال : عزمتُ وحياتك على الخروج إلى قُمّ (٢) إلى عند أبي .

---

(١) سورة لقمان : ١٩ .

(٢)قم : بتشديد الميم مدينة بفارس افتتحها المسلمون سنة ٢٣هـ .

قيل لأبي العيناء : لمَ اتَّخَذْتَ خادمين أسودين ؟ فقال : أما أسودان فلئلا أُتَّهَم بهما ، وأما خادمان فلئلا يُتَّهَمَا بي .

ونظر إلى رجل قبيح الوجه ، فقال : كأنما خُلِقَ هذا الرجلُ ليَعْلَمَ الناسُ نعمةَ الله عليهم .

وقدمَ صديقٌ له من بعضِ الأعمال السلطانية ، فدعاهُ إلى منزله وأطعمه وجعل الرجلُ يكثرُ الكذبَ ، فالتفت أبو العيناء إلى من كان معه فقال . نحن كما قال الله تعالى : (سَمَّاعُون للكذبِ أكَّالُونَ للسُّحْتِ)(١)

وقيل : ابنُ كَمْ أنتَ ؟ فقال : قبضه ، يعني : ثلاثاً وتسعين .

وقيل له : كيف حمدُك لفلان ؟ فقال : أحمده للُؤْمِ الزمان ، فأمّا عن حُسْنِ اختيار فلا .

واعترضه يوماً أحمد بن سعيد ، فسلَّم عليه ، فقال أبو العيناء : من أنتَ ؟ قال : أحمدُ بن سعيد ، فقال : إني بك لَعارف ، ولكن عهدي بصوتك يرتفعْ

---

(١) سورة المائدة ٠ ٤٢ .

إليَّ من أسفل . فماله ينحدر عليَّ من علو ؟ قال : لأني راكب . قال : لا إله إلا الله . لعهدي بك وأنت في طِمْرين(١) او أقسمتَ على الله في رغيفٍ لأعضَّك بما تكره .

وقال يوماً لعبيد الله بن سليمان : إلى كم يرفعني الوزير ، ولايرفع لي رأسا ؟ .

وقال له يوماً : كيف حالُك ؟ فقال : أنتَ الحالُ ، فإذا صَلُحْتَ صَلُحتُ .

وقال يوماً لعُبيد الله بن يحيى : أيها الوزير ، قد برَّح بي حُجّابُك ، فقال له : ارفقْ . فقال : لو رفق بي فعلُك رفق بك قولي .

وقيل له : لاتعجل ، فإنَّ العَجلةَ من الشّيطان ، فقال : لو كان كذلك لما قال موسى عليه السلام : (وعَجِلْتُ إليك ربِّ لترضى) (٢) .

وقال لرجل : واللهِ مافيكَ من العقلِ شيءٌ إلا مقدارَ ما تجبُ به الحجةُ عليك ، والنارُ لكَ .

---

(١) الطمر : الثوب الخلق البالي

(٢) سورة طه ٨٤ .

قال المتوكلُ : لولا ذهاب بَصرِ أبي العيناء لأردتُ منادمتَه ، وبلغه ذلك ، فقال : قولُوا له : إنّي إن أُعفيتُ من قراءة نقوش الخواتم ، ورُؤْية الأهلّة صلحتُ لغير ذلك . وأنهي ذلك إلى المتوكل فضحك وأمرَ بمنادمته .

قال أبو العيناء : سمعتُ جاراً لي أحمقُ وهو يقول لجارٍ له : والله لهممت أنْ أُوكّلَ بكَ مَنْ يصفعُ رقبتَك ، ويُخرِجُ هذه الجفون من أقصى حجرٍ بخراسانَ .

ودخل إلى ابن مكرمٍ ، فقال له : كيف أنتَ ؟ قال : كما تحبُ ، فقال : فلم أنتَ مُطْلَقٌ ؟(١) .

* * *

ومِنْ رَسَائِلِ أبي العَيْنَاءِ وكَلامِه المُسْتَحْسَنِ

كتب إلى أبي الوليد بن دواد : جُعلتُ فداك ، مَسّنَا وأهلَنا الضرُّ ، وبضاعتُنَا المودةُ والشكر ، فإنْ تعطنا أكنْ كما قال الشاعر :

أنا الشّهابُ الذي يحمي دياركُم
لايَخْمُدُ الدهرَ إلاّ ضوءُه يَقِدِ

---

(١) مطلق : غير متقلد لشؤون الوزارة .

وإن لم تفعل فلسنا ممّن يَلْمِزُكَ(١) في الصَّدَقَاتِ . ﴿ فَإِنْ أُعطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّم يُعْطَوا مِنها إذا هُم يَسْخَطُون ﴾ (٢) .

قال ابن مُكرَّم : مَنْ زعم أن عبدَ الحميدِ أكْتَبُ من أبي العيناءِ إذا أحسَّ بكرمٍ أو شَرَع في طمعٍ فقد وَهِم.

كتب إلى عُبيد الله بن سليمانَ وقد نكبه وأباه المعتمدُ ، وهما مطالبان بمالٍ ، يبيعان له مابملكان من عقار وأثاثٍ ، وعبدٍ وأمَةٍ . وأعطِي بخادمٍ أسودَ لعبيدِ الله خمسون ديناراً ، فكتب إليه أبو العيناء :

قد علمتَ - أطال الله بقاءك - أنَّ الكريم المنكوب أجدَى على الأحرارِ من اللئيم الموفورِ (٣) ، لأن اللئيم يزيدُ مع النعمةِ لؤماً ، ولاتزيدُ محنةٌ الكريم إلاّ كرماً ، هذا مُتّكِلٌ على رَازقه ، وهذا يسيءُ الظن بخالقه ، وعبدُك إلى مِلْكِ كافورٍ فقيرٌ ، وتمنّه على مااتّصل به

(١) يلمز : يعيب ويغتاب .

(٢) سورة التوبة : ٥٨ .

(٣) الموفور : الكثير الوفر والمال

يسير ، فإن سمحتَ فتلكَ منك عادتي ، وإنْ أمرتَ بأخذِ ثمنِه فمالُكَ منه مادّتي . أدام الله لنا دولتَك ، واستقبل بالنعمةِ نكبتَك ، وأدام عِزّكَ وكرامتكَ .

فوهب الخادمَ إليه .

قال أبو العيناء : قال ملكٌ لبَنيه : صِفُوا لي شَهواتِكم من النساء . فقال الأكبر : تُعجبُني القُدودُ والخُدودُ والنهودُ . وقال الأوسط : تُعجبُني الأطرافُ والأعطافُ والأردافُ . وقال الأصغر : تُعجبني الشعورُ والثغورُ والنحورُ .

كان بين أبي العيناء وبين إبراهيم بن رَباح خلّةٌ ومودةٌ وصداقةٌ قديمة ، فلما نُكِبَ مع الكتّاب في أول خلافة الواثق(١) أنشأ أبو العيناء كلاماً حكاه عن بعضِ الأعراب ، فلما وصلَ إلى الواثق وقرِئ عليه . قال : واضعُ هذا الكلام ما أراد به غير إبراهيمَ بنِ رباح ، وكان أحدُ أسبابِ الرِّضا عنه . ونسخةُ الكلام : قال :

---

(١) في سنة ٢٢٩هـ حبس الواثق بعض الكتاب ، وألزمهم أموالا عظيمة .

لقيتُ أعرابيّاً من أهلِ البادية ، فقلتُ : ماعِنْدكَ من خَبر البلادِ ؟ قال : قتلَ أرضاً عالِمُها(١) . قلتُ : فما عندكَ من خبرِ الخليفة ؟ قال : تبحبَح في عزّةٍ(٢) فضربَ بِجرانِه(٣) ، وأخذ الدُّرهم من مِصره ، وأرعفَ كل قلم خيانته(٤) .

قلتُ : فما عِندكَ من خبر ابن أبي دُواد ؟ قال : عُضْلَةٌ(٥) لاتُطاق ، وجَنْدلَةٌ لاتُرام . يُنْتَحى بالمُدَى لِنَحرهِ فتحور(٦) ، وتُنْصبُ له الحبائلُ حتى يقول : الآنَ ، ثم يَضْبرُ(٧) ضبْرَةَ الذئب ، ويتَملَّسُ

(١) كناية عن الخبرة بما سئل عنه

(٢) تبحبح : توسط ، كناية عن التمكن

(٣) الجران في الأصل باطن العنق ، وقيل : مقدم العنق من مذبح البعير .

(٤) أرعف الإناء : ملأه حتى سال

(٥) العضلة : الشديدة الداهية والجندلة : الحجر ، أو ما يجتمع في النهر من حجارة تمنع الملاحة .

(٦) تحور : ترجع .

(٧) يضبر : يثب ، وأصلها نوع من سير الفرس

تَمَلْمُسَ الضَّب ، والخليفةُ يحتو(١) عليه ، والعراق(٢) يأخذُ بضَبْعَيْه .

قلتُ : فما عندك من خبر عُمَرَ بنِ فَرَج (٣)؟ فقال : ضُخامٌ حِضَجْر (٤) وغضوبٌ هِزبرٌ ، قد أهدَفَه القومُ لبغيهم ، وانتَضَوْا له عن قِسِيِّهِمْ وأحْرِ لُه بمثلِ مصرعِ من يُصرعُ منهم !.

قلت : فما عندكَ من خبر ابن الزيات ؟ قال : ذاكَ رجلٌ وسِعَ الورى بِشْرُه ، وبطن بالأُمور خِبْرُهُ . فله في كل يوم صريعٌ لا تظهرُ فيه آثارُ مِخلبٍ ولا نابٍ ، إلا بتسديدِ الرأْي .

قلت : فما عندك من خبر إبراهيم بن رباح ؟ قال : ذاك رجلٌ أوْبَقَهُ كَرَمُه ، وإنْ يفُزْ للكرام قِدحُ (٥).

---

(١) الحتو : العدو الشديد .

(٢) الضبع : العضد .

(٣) عمر بن فرج حبسه المتوكل ، وكان أحد من حبسهم الواثق من الكتاب .

(٤) الضخام : العظيم من كل شيء ، وقيل العظيم الجرم ، الكثير اللحم ، والحضجر : العظيم البطن .

(٥) القدح : السهم .

فأحرِ بمنجاته ، ومعه دُعاءٌ لا يخذُلُه ، وفوقهُ خليفةٌ لا يظْلِمُه .

قلت : فما عندك من خبر نجاح بن سلَمة ؟ قال : لادرُّه من خافِضِ أوتادٍ ، يقدُ كأنَّهُ لهبُ نارٍ ، له في الفينَةِ بعد الفينة جِلْسة عند الخليفةِ كحُسْوةِ طائر ، أو كخِلْسةِ سارق ، يقومُ عنها ، وقد أفادَ نِعماً ، وأوقعَ نِقَما .

قلت : فما عندك من خبر الفضل بن مروان ؟ قال : ذاك رجلٌ حُشِر بعد ما قُبِر ، فله نشرةُ الأحياء ، وفيه خفوتُ الموتى .

قلت : فما عندك من خبر أبي الوزير **(١)** فقال : إخالهُ كبش الزنادقة . ألا ترى أنَّ الخليفةَ إذا أهمله خَضِم**(٢)** فرتَع ، حتى إذا أمَرَّ بنفْضِه أمطر فأمرع .

قلت : فما عندكَ من خبرِ أحمدَ بن الخصيب ؟

(١) أبو الوزير : وزير المتوكل

(٢) الخضم : الأكل بالفم كله .

فقال : أحمدُ أكَلَ إكْلة نهَم ؛ فأخافَ خِلْفَةَ بَشَم (١) .

قلتُ : فما عندكَ من خبر المعلَّى بن أيوبٍ ؟ قال : ذاك رجلٌ قُدَّ مِن صَخْرة ، فصبرُه صبرُها ، ومَسُّهُ مسُّها .

قلتُ : فما عندك من خبر أحمد بن إسرائيل ؟ قال : كتومٌ غرورٌ ، وجَلْدٌ صبورٌ ، له جلد نَمِر ، كأنَّما قَدُّوا له إهاباً أنشأ اللهُ له إهاباً (٢) .

قلتُ : فما عندك من خبر عبد الله بن يعقوب ؟ قال : (أَمْوَاتٌ غَيْرُ أحياءٍ وَما يَشْعُرُونَ أيَّانَ يُبعَثُونَ) (٣)

قلتُ : فما عندكَ من خبرِ سليمانَ بن وَهب ؟ فقال : ذاك رجلٌ اتَّخَذَه السلطانُ أخاً ، فاتَّخَذَ نفسَهُ للسلطانِ عبْداً .

---

(١) بشم : بالغ في الطعام حتى التخمة
(٢) الإهاب : جلد الحيوان قبل دبغه
(٣) سورة النحل : ٢١ .

قلتُ : فما عندكَ من خبر أخيهِ الحسن ؟ : فقال
بئس ما استنوقتَ (١) مسألتك ! ذاك حرمةٌ حبستْ
بحريرهِ المجرمِ . ليس في القوم في خلٍّ ولا خمرٍ ،
هيهات .

كُتِبَ الحبْسُ والخراجُ عليهم
وعلى المحصناتِ جرُّ الذيولِ (٢)

---

(١) مأخوذ من المثل : « استنوق الجمل » . إذا ضعف أمره .

(٢) مأخوذ من بيت عمر بن أبي ربيعة

كتب القتل والقتال علينا وعلى المحصنات جر الذيول

الباب السابع

نوادر مزبد[١]

أخذه بعضُ الولاة وقد اتّهمه بالشُّرب ، فاستنكَهَهُ (٢) ، فلم يجد منه رائحةً ، فقال : قيّئُوه . قال : منْ يضمنُ عَشَائي أصلحك الله ؟ .

قيل له مرة — وقد أفحش في كلامه — : أملِ على كاتبَيْكَ (٣) خيراً . قال : أكرهُ أنْ أخلِط عليهما .

وادّعى رجل عليه شيئاً ، وقدّمه إلى القاضي ، فأنكره ، وسألَهُ إقامة البيّنة ؛ فقال : ليس لي بيّنةٌ . قال : فأستحلِفُه لك ؟ قال : ومَا يعبئُ مزبدٌ أصلحك الله ؟

(١) مزبد المديني كان يضرب به المثل في الهزل والدعابة .

(٢) استنكهه : شم أي : رائحته

(٣) المراد : الملكان الكاتبان .

فقال مُزَبِّد : ابعث ، أصلَحكَ الله ، إلى ابن أبي ذئب (١) فاستحلِفهُ له .

وتناولَ رجلٌ من لحيته شيئاً ، فسكتَ عنه ، وكانَ الرجلُ قبيحَ الوجه ، فقال : ويحكَ لِمَ لا تدعُولي ؟ فقال : كرهتُ أن أقولَ صرفَ الله عنكَ السوء فتبقى بلا وجه .

وقيل له : أيسرُّك أنَّ هذه الجُبَّةَ لك ؟ قال : نعم ، وأضربُ عشرين سوطاً . قيل : ولِمَ تقولُ ذلك ؟ قال : لأنَّهُ لا يكونُ شيءٌ إلا بشيءٍ .

وأتاه أصحابُ له يوماً ؛ فقالوا له : يا أبا إسحاق ؛ هل لك في الخروج بنا إلى العَقيق (٢) ، وإلى قُباء (٣) ، وإلى أحد ناحيةَ قبور الشهداء ؛ فإن يومَنا كما ترى يوم طيِّب . قال : اليومَ يوم الأربعاء ولستُ أبرحُ من

---

(١) ابن أبي ذئب من الصالحين .

(٢) العقيق · يطلق على كثير من المواضع ، والمراد هنا عقيق المدينة ، بجانبها ، فيه عيون ونخل .

(٣) قباء ، في طرف المدينة ، يقصر ويمد ، بها مساكن بعض الأنصار ومسجد قباء المشهور

منزلي . قالوا : وما تكرهُ ؟ . يومُ الأربعاءِ فيهِ وُلِدَ يونسُ بن متّى عليه السلام . قال : بأبي وأمي أنتم فقد التقمهُ الحوتُ . قالوا : فهو اليوم الذي نُصِرَ فيه النبيُّ عليه السلام يومَ الأحزاب . قال : أجل . ولكنْ بعدَ إذْ زاغتِ الأبصارُ ، وبلغتِ القلوبُ الحناجرُ . وظنُّوا بالله الظنونَ .

استأْذن مُزَبِّد على بعض البخلاء وقد أُهدي له تينٌ في أولِ أوانه ، فلما أحسَّ بدخوله تناول الطبقَ . فوضعه تحت السرير ، وبقيتْ يدُه معلّقة ، ثم قال لمزبّد : ما جاء بك في هذا الوقت ؟ قال : يا سيدي ، مررت الساعة بباب فلان ، فسمعتُ جاريته تقرأ لحناً ما سمعتُ قطُّ أحسنَ منه ، فلمّا علمتْ من شدة محبّتك للقرآن ، وسماعك للألحان ، حفظتُه، وجئتُ لأقرأه . عليك . قال : فهاتِه ، فقال : بسم الله الرحمن الرحيم ((والزّيتون ، وطُورِ سينين .)) (٣) فقال : ويلك ! أين التين ؟ قال : تحت السرير ! ! .

---

(١) سورة التين : ١و٢ .

احتاج مزبِّدٌ أن يبيع جُبته لسوء حاله ، فنادى عليها المنادي ، فلم يطلب بشيءٍ ؛ فقال : مزبِّد : ما كنتُ أعلمُ أني كنت عُرياناً إلى الساعة .

ونظر يوماً إلى امرأته تصعد في درجة ، فقال : أنتِ الطلاق إنْ صعدتِ ، وأنت الطلاق إن وقفتِ ، وأنت الطلاق إن نزلتِ . فرَمت بنفسها من حيث بلغتْ . فقال لها : فداك أبي وأُمي ! إن مات مالكٌ احتاجَ إليك أهلُ المدينةِ في أحكامهم .

وقالت امرأةُ مزبِّد — وكانت حُبلى ، ونظرتْ إلى قُبح وجهه — . الويلُ لي إن كان الذي في بطني يُشْبِهكَ ، فقال لها : الويل لي إنْ كان الذي في بطنِك لا يشبِهُني .

دُفع مرّةً إلى والي مكه ، وقد أفطر في شهر رمضان ؛ فقال له الوالي : ياعدوَّ الله ، تُفْطِر في شهر رمضان ! قال : أنت أمرتَني بذلك . قال : هذا شرٌّ ، كيف أمرتُك ؟ وَيلك . قال : حَدَّثْتَ عن ابن عباسٍ :

أنه من صام يوم عرفةَ عَدَل صومهُ سنةً ، وقد صُمتُه .
فضحك الوالي وخلاّه

واعتلّ عاهٌ ، وأشرف منها إلى الهلاك ، وأراد أنْ يوْصي ، فدعا بعض أوليائه ، وأوصى إليه ، وكتب كتاب وصيته ، وأمر للوصيّ بشيءٍ ؛ فلما فرغ من الكتابة رآه مُزَبِّدٌ وهو يُتْرِبُ الكِتَاب ؛ فقال وهو على تالك الحال : نعم يا سيدي ، فهو أقضى للحاجة (١) .

ونظر إلى قومٍ مُكتَّفين يُذْهَب بهم إلى السجن ، فقال : ما قصّةُ هؤلاءِ ؟ قالوا : خيرٌ . قال : إن كان خيراً فاكْتِفُوني معهم .

* * *

(١) أشار إلى الحديث الشريف . « إذا كتب أحدكم فليترب فإنه أنجح » .

الباب الثامن

نوادر أبي الحارث جمين[1]

قيل له : ماتقولُ في فالوذجة ؟ قال والله لو أنّ موسى لَقِيَ فرعونَ بفالوذجةٍ لآمن ، ولكنه لقيَه بعَصًا .

وقيل له يوماً : ماتشتهي ؟ فقال : نَشيشَ مِقْلاةٍ بين غليان قِدرٍ على رائحة شِواء .

وكان لايأكل الباذنجانَ ، فكايده محمدُ بنُ يحيى واتخذَ ألوانَه كلَّها بباذنجان ، فجعل كلما قُدِّمَ لونٌ فرابهُ الباذنجانُ فيه توقَّاه ، وأقبل على الخبز والملح ، فلما عطش قال : ياغلامُ ، اسقِني ماءً ليس فيه باذنجان .

وكتب يوماً إلى صديق له : أُوصيكَ بتقوى الله ، إلاّ أن ترَى غيرَ ذلك خيراً منه .

(١) أبو الحارث حمين ، أحد المشهورين بالنوادر والمزاح .

وقيل له : سبقْتَ ببرذونك هذا قط ؟ قال : بلَى ، مرة ، دخلنَا زقاقاً لامنفذَ له وكنُت آخرَ القوم ، فلما رجعنا كنتُ أولَ الموكب .

ودخل جماعة من إخوانـِه . فاشتهَوا عليه لوناً يطبخهُ لهم ، فدنا أحدُهم من القدرِ ليذوقَها ، وأخرج قطعة لحم وأكلهَا ، وفعل كلٌ واحد منهم كذلك ، فقال أحدهم : هي طيبةٌ لكنها تحتاج إلى شيءٍ لاأدري ماهو ؟ فقال أبو الحارثِ : أنا أعلمُ . هو ذا تحتاج إلى اللحم .

وحكى دِعبلٌ قال : بلغني أنَّ أبا الحارثِ قد فُلج ، فاغتممتُ لظرفه وملاحته ، فصرتُ إليه فوجدتُه في عافية ، فحمدتُ الله وسألتُه عن خبره ؟ فقال : دخلتُ الحمَّام وأكلتُ السمك ، ودعوتُ المزيِّنَ فأخذ شعري ، فظنَّ الفالجُ لما رأى المزينَ عندي أني احتجَمت ، فلما علمَ أنه أخذَ من شعري تركني وانصرف .

ونظر يوماً إلى بِرْذون يُسْتَقى عليه ، فقال :

* ومَا المرءُ إلا حيثُ يَجعَلُ نفسَهُ *

لو أن هذا همْلَجَ ماكان هذا(١) .

وأكل يوماً مع الرؤساء بيضاً مسلوقاً ، فجعل يأكل الصفْرةَ ، وينحّي البياضَ إلى بين يدي أبي الحارث عبثاً به ، فقال لما طال ذلك عليه – وتنفّس الصعداء – : سقى اللهُ روح العجّة فما أعْدَلها .

ودخل إلى بعضِ أصدقائه يوماً ، فقال له : ماتشتهي ؟ قال ، أما اليوم فماء حِصْرِم ، وأما غدا فهَرِيسة .

قال بعضهم : دخلتُ على جمّين أعوده من مرضٍ به ، فقلت له : ما تَشتهي ؟ فقال : أعْيُنَ الرقباءِ ، وألْسنَ الوشاة ، وأكبادَ الحُسّاد .

قيل لجمّين – وقد رأى سوداء قبيحة – : ابتلاك الله بحبّها ، قال : يابغيض ، لو ابتلاني بحبها كانت عندي من الحُور العين ، ولكن ابتلاك الله بأن تكونَ في بيتكَ وأنت تبغضها .

وقال له الرشيد : اللوزينج أطيبُ أم الفالوذج ؟

---

(١) هلج . أسرع في سيره

قال : أحضِرْهُما ياأمير المؤمنين ، فأُحضرا ، فجعل يأكلُ من هذا وهذا ، ثم قال : ياأمير المؤمنين ، كلما أردتُ أن أشهد لأحدهما غمزني الآخر بحاجبه .

قال بَصريٌّ لجمين : يأتينا المدُّ والجزرُ في كل يوم مرتين . قال : يستأذنُ اللهَ في هلاككم مرتين ، وكأنْ قَدِ .

ودعته امرأةٌ كان يحبُّها ، فجعلت تحادِثُه ولاتذكر الطعام ، فلما طال ذلك به قال : جعلني الله فِداءَك ، لاأسمعُ للغداء ذِكْراً . قالت له : أما تستحي ! أما في وجهي مايشغلك عن هذا ؟ قال : جعلني الله فداءك ، لو أنَّ جميلا وبُثينة قعدا ساعةً لايأكلان شيئاً لَبَزَقَ(١) كل منهما في وجه صاحبه .

* * *

(١) بزق : بصق

الباب التاسع

نوادر الجمّاز (١)

قال الجمّازُ لأبي شُراعة(٢) : كيف تجدُك ؟ قال : أجدني وقيذا(٣) من دماميل قد ظهرت في أقبحِ المَوَاضع . قال : ماأرى في وَجهِك منها شيئاً .

قال بعضُ إخوان الجمّاز — وقد دخل إليه وهو يطبخُ قِدراً — : لا إله إلا الله ماأعجب الرِّزق ! فقال الجماز : أعجبُ منه الحرمان . امرأتُهُ طالق إن ذُقْتَها .

---

(١) أبو عبد الله محمد بن عمرو الجماز ، بصري خبيث اللسان ماجن وهو ابن أخي سلم بن عمرو الخاسر الشاعر ، كان الجماز شاعراً صاحب، مقطعات ، توفي سنة ٢٥٠هـ في أيام المتوكل .

(٢) هو أحمد بن محمد بن شراعة ، شاعر بصري جزيل اللفظ ، مات في أيام المتوكل

(٣) الوقيذ المريض المشرف على الموت .

وقال له السهريّ : وُلِد لي البارحة ابنٌ كأنه الدينار المنقوش . فقال الجمّاز : لاعِنْ أمَّهْ(١)

صلّى رجلٌ صلاةً خفيفة . فقال له الجمّاز : لو رآك العجاج(٢) لُسُرَّ بك . قال : ولِمَ ؟ قال : لأنَّ صلاتك رجز .

رأى رجلٌ الهلالَ فاستحسنه ، فقال له الجمّاز : وماتستحسنُ منه ؟ فوالله إنَّ فيه لخِصالاً لو كانت إحداهنَّ في الحمار لرُدَّ بها ، قال : وماهي ؟ قال : إنه يدخل الروازن(٣) ، ويمنعُ من الدبيب ، ويدلُّ على اللصوص ، ويسخن من الماء ، ويخرق الكتّان ، ويورث الزكام ، ويحل الدين ، ويزهِم اللحم .

كان المتوكل يُحَدَّث عن الجمّار ، فكتبَ في حَمْلِه ، فلما دخل عليه لم يقع الموقعَ الذي ظنَّه ، فقال

(١) لاعن الرجل زوجته إذا قذفها بالزنى .
(٢) عبد الله بن رؤبه العجاج شاعر اشتهر بالرجز .
(٣) الروازن : الكوى .

المتوكل . تكلم فإني أريد أن استبرِئَك(١) . فقال الجمّاز : بحيضةٍ أو بحيضتين ، فضحكت الجماعة .

وقال له الفتح : قد كلّمتُ أميرَ المؤمنين فيكَ حتى ولاكَ جزيرة القرودِ ، فقال له الجمّاز : أفلَسْتَ في السمع والطاعةِ أصلحك الله ؟ فحُصِرَ الفَتْحُ وسكتْ .

فقال له بعضُ مَنْ حضر : إنّ أميرَ المؤمنين يريد أن يهبَ لك جاريةً . فقال : ليس مثلي مَنْ غرَّم نفسه ، ولاكذّب عند أمير المؤمنين. إن أرادتني أن أقودَ عليها ، وإلاّ فمالها عندي شيء ، فأمر له المتوكل بعشرة آلاف درهم ، وأخذها وانحدر ، فمات فرحاً .

* * *

---

(١) من معاني استبرأ إن الرجل لا يطأ امرأته إذا كانت متزوجة قبله ، أو منه حتى تحيض .

الباب العاشر

نوادر المجانين

قال مجنونٌ — ولقي الناسَ منصرفين من الجمعة — : أيها الناس : (إنِّي رسُولُ الله إليَكُم جميعاً) (١) . فقال له مجنونٌ آخر . (ولا تَعجلْ بِالقُرآن أن يُقْضى إليْكَ وَحْيُهُ) (٢) .

ومرَّ مُوسَى بن أبي الروقاء ، فناداه صبَّاحٌ الموسوس : يابْنَ أبي الرَّوقاء أسمَنْتَ برذَوْنَك ، وهزَلت دينَك (٣) . أما والله إنَّ أمامك لعقبةً لايجوزها إلاَّ المُخِفُّ . فحَبَس موسى برذونَه ، فقيل له : هذا صَبَّاحٌ الموسوس . قال : ماهو بموسوس ؟ .

---

(١) سورة الأعراف : ١٥٨ .

(٢) سورة طه · ١١٤

(٣) هزل لازم ومتعد .

وقف رجلٌ على بُهلول ، فقال له : تعرفُني ؟ فقال بُهلول : إيْ واللهِ ، وأنْسِبُكَ نسبة الكمْأة ، لا أصلٌ ثابتٌ ، ولا فرعٌ نابِت .

ودعا الرشيدُ بُهلولاً ليضحكَ منه ، فلما دخلَ دعَا له بمائدةٍ فقُدِّمَ عليها خبزٌ وَحَنْدَه ، فولى بُهلولٌ هارباً ، فقال له : إلى أين ؟ . قال : أجيئكُم يوم الأضحى ، فعسى أن يكون عندكم لحمٌ .

أخرجَ بلال بن أبي بُردَة(١) من حَبسِه مجنوناً يمازِحُه ، فقال له : أتَدرِي لم أخرجتك ؟ قال : لا . قال : لأسخَرَ منك . قال : إنَّ المسلمينَ حكَّمُوا حكَمَين فسخر أحدُهما بالآخر .

قال المُبرِّد : دخلتُ يوما دَيْر هِزْقِل ، فرأيتُ في صَحنِ الدارِ مجنوناً ، فدلَعْتُ لِسَاني(٢) في وَجهه ، فنظر إلى السماء ، وقال : الحمدُ والشكرُ مَن حلُّوا ومن ربطُوا .

---

(١) بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري ، أمير البصرة وقاضيها .

(٢) دلع لسانه : أخرجه .

قال بعضُهم : رأيتُ بحمصٍ مجنوناً يقول : ياقوم ، مَن يتعلمُ : « لاأدري » ؟ ياهذا ، تعلم : « لاأدري » ، فإنَّك إذا قلتَ : « لاأدري » علَّموك حتى تَدْري وإذا قلتَ : « أدري » سألوكَ حتى لاتدري .

وجاء مجنونٌ فوقفَ عند شجرة مَلْساء ، فقال : مَن يعطيني نصفَ درهم حتى أصعد ؟ فعجبَ الناسُ وأعطَوه ، فأحرزَه ، ثم قال : هاتُوا سلَّما . قالوا : ماكان السلم في الشرط . قال : وكانَ بلا سلم في الشرط ؟ .

ووقف بُهلول على رَجُل ، وقال : خبِّرني عن قول الشاعر :

* وإذا نَبَا بكَ منزلٌ فتحوَّلِ *

كيفَ هو عندك ؟ قال : جيدٌ . قال : فإن كنت في الحبس فكيف تتَحول ؟ . قال : فانقطع الرجلُ ، فقال بهلول : الصوابُ قولُ غيرهِ :

إذا كُنتَ في دارٍ يسوءُكَ أهلُها
ولم تكُ مكبُولا بها فتحوَّلِ

أصيب إسحاقُ بنُ محمدِ بنِ الصبَّاح الكندي بابنِ

له ، فجزع ، فدخل أهلُ الكوفة يعزُّونه ، ودخل فيهم بُهلول ، فقال : أيسرُّكَ أنه بقَي وأنه مثلي ؟ . قال : لا واللهِ ، وإنها لتعزية ! .

هرب مجنون من الصبيان ، ودخل دهليزا ، وأغلقَ الباب في وجوههم وجلس ، فخرج إليه صاحبُ الدار ، فقال : لِمَ دخلتَ داري ؟ . قال : من أيدي هؤلاء أولاد الزِّنَى . فدخل صاحبُ الدار ، وأخرج طبقاً عليه رُطَبٌ كثيرٌ ، فجلس المجنون يأكل ، والصبيان يصيحون على الباب ، فأخرج المجنونُ رأسه إلى صاحب الدار ، فقال : بابٌ بَاطِنُه فيهِ الرَّحمَةُ وظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ العَذَابُ .

قيل لمجنون كان بالبَصرَةِ : عُدَّ لنا مجانينَ البصرة. قال : كلفتموني شَطَطاً ، أنا على عَدِّ عقلائِهم أقْدَر .

قال الفزاري : رأيتُ مجنوناً يُسَوِّي رأسَ سكرانَ ، ويقول له : يؤيؤ(١) ، والله لا أفلحت أبداً .

شدَّ مجنونٌ على رجل بالبَصرَةِ ، فأخذه الرجل

---

(١) اليؤيؤ : طائر صغير أصفر اللون يضرب إلى الزرقة .

فضربه . فقال الناس : إنه مجنون ، وجعل المجنون يقول مِنْ تحته : ويحكم أفْهموه .

وجاز بهلول بسُوق البزّازين ، فرأى قوماً مُستجمعِين على باب دُكّان ينظرونَ إلى نقبٍ قد نُقِبَ على بعضهم ، فاطّلع في النّقب ، ثم قال : وكلكم لا تعلمون ذا مِنْ عملِ مَنْ ؟ قالوا : لا . قال : فإني أعلم . فقال الناس : هذا مجنونٌ يراهم بالليل ولا يتحاشَونَه ، فأنعِمُوا له القول لعله يخبرُ بذلك . فسألوه أن يخبرهم . فقال : إني جائع ، فهاتوا أربعةَ أرطال رقاقٍ ورأسين ، فأحضروا ذلكَ وأكل ، فلما استوفى قال : هو ذا أشتهي شيئاً حُلوا ، فأحضروا له رطلين فالوذج فأكله . وفرغ منه وقام وتأمّل النقب ، ثم قال : كأنكم الساعةَ لستم تعلمون هذا مِن عَمَل مَن ؟ قالوا : لا . قال : هذا من عمل اللصوص لاشكّ . وعدَا .

جاءت امرأةٌ دَنْدانَ المجنونِ إلى القاضي ؛ فقالت . أصلحك اللّه ، إنه يُجيعُني ويضربُني ! قال القاضي .

ما تقُول ؟ . قال دندانُ : أما الضربُ فنعم ، وأما الجوعُ فهي طالقٌ ثلاثاً إن لم تجيء معي إلى منزلي مع أصحابك أيها القاضي . فقال لأصحابه : قومُوا بنا لا يَحنَث . فقام القاضي ، وذهب معه ، فلما دخل جاء به إلى مَزْبلة فيها رَجيعٌ (١) عظيم ، فقال : أصلحك الله . هذا يخرجُ مِنْ بطن جائعٍ ؟ . قال : أخزاك الله ، فإنك أحمقٌ . قال : أحمقُ مني مَنْ أطاع المجانينَ .

كان بُهلول يوماً جالساً والصبيانُ يؤذُونه وهو يقول : لاحول ولاقوة إلا بالله . يُعيدهُ مِرَاراً ، فلما طال أذاهم له أخذَ عصاه وقال : حَمِيَ الوطيسُ ، وطابتِ الحَربُ ، وأنا على بيِّنةٍ من رَبِّي . ثم حمل عليهم وهو يقول :

أشُدّ علــى الكتيبــةِ لا أبَالي
أفيها كــان حَتْفي أم سِوَاها(٢) .

---

(١) الرجيع : الروث .
(٢) البيت للعباس بن مرداس .

فتساقط الصبيانُ بعضُهم على بعض ، وتهارَبُوا ، فقال : هُزِم القوم وولّوا الدبر . أمرنا أمير المؤمنين — رضي الله عنه — ألاّ نتبعَ مُوَلّياً ، ولا نُدَفّفَ(١) على جريح ، ثم رجع وجلس وطرح عَصَاه ، وقال :

فألقَتْ عَصَاها واستقرّ بها النّوَى
كما قرّ عينـاً بالإيَاب المُسافِرُ(٢)

* * *

(١) دفف على الجريح : أجهز عليه .

(٢) ألق المسافر عصاه : بلغ موضعه واستقر به

الباب الحادي عشر

نوادر البخلاء

قال بعضهم لبخيل . لم لا تدعوني يوماً ؟ . قال . لأنك جيِّدُ المَضْغِ ، سريعُ البَلْع ، إذا أكلتَ لُقْمَةً هيّأت أخرى . قال : فتريدُ مني إذا أكلتُ لقمةً أن أصلّي ركعتين ، ثم أعودُ إلى الثانية ؟ .

دخل واحدٌ إلى بعضِهم وهو يأكل ، ومعه آخر ؛ فقال للدّاخِل : تعالَ كُلْ . قال : قد تَغَدّيتُ . فقال : هذا أيضاً زعم أنه تغدّى .

ودخل آخرُ على بعضِهم وبين يديه طبقٌ عليه تين ؛ فلما أحسَّ بالدّاخل غطّى الطّبَق بذَيله ، وأدخَل رأسه في جيبه ، وقال للدّاخل : كُنْ أنتَ في الحجرةِ الأُخرى حتى أفرغَ من بَخوري

أكل ابن المدبّر يوماً عند ابن الفيّاض(١) ، فقدّمت جُوادابة(٢) في نهاية الجوده ، وأمعن ابنُ المدبّر فيها ، فلم يصبر ابنُ الفيّاضِ حتى قال له : أليسَ زعمتَ أنك لستَ صاحبَ جُوداب .

وقال بعضُ المبخّلين لرجلٍ على مائدته : اكسر ذلك الرّغيفَ . فقال : دعهُ يُبتَلى به غيري .

دعا بخيلٌ قوماً ، واتّخذ لهم طعاماً . فلما جلسُوا يأكلون وهو قائم يخدُمهم ، وأمعنُوا في الأكلِ جعل صاحبُ البيت يتلُو فيما بينه وبين نفسه . (وَجَزَاهُم بما صبَرُوا جنّةً وَحريراً) (٣)

وكان جعفرُ بن سليمان بخيلاً على الطعام ، فرُفِعَت المائدةُ من بين يديه وعليها دجاجة ، فوثب عليها بعضُ بنيه وأكل منها ، وأُعيدتْ عليه من غدٍ ، فلما رآها وقد أُكِلَ منها شيءٌ . قال : من هذا الذي تعاطى فعقر (٤)

---

(١) علي بن محمد الفياض ، كاتب

(٢) الجوداب : طعام يتخذ من اللحم والرز والسكر والبندق .

(٣) سورة الإنسان ، ١٢

(٤) إشارة إلى الآية : (فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر)سورة القمر ، ٢٩.

قالوا : ابنُكَ فلان . فقطع أرزاقَ بنيه كلِّهم ، فلما طال عليهم قال بعضُ بنيه : أفتهلكُنا بما فعل السفهاءُ منّا(١) ، فأمر بردِّ نصفِ أرزاقهم .

وقف واحدٌ على الحُطيئة استقرَيه(٢) فمنعه . فقال : إنَّ الرَّمْضَاءَ قد أحرقت قدميّ . قال . بُلْ عليهما تبردا قال : وما عندكَ غيرُ هذا ؟ . قال : بلى ، هراوةٌ من أرزن(٣) معتجِّرة . قال : إني ضيف . قال : للضيفان أعددْتُها .

قال أبو الأسود الدُّؤلي – وكان بخيلاً – : لو أطعنا المساكينَ في أموالنا كُنّا أسوأ حالاً منْهم .

قال الجاحظ : حدّثني بعضُ أصحابنا قال : كنا منطلقين إلى رجلٍ من كبارِ أهل العسكر . وقد كان لُبْثُنا عنده يطولُ ، فقال له بعضُنا : إن رأيتَ أن تجعل

---

(١) إشارة إلى الآية : (أتهلكنا بما فعل السفهاء منا) سورة الأعراف : ١٥٥ .

(٢) يستقريه . يطلب منه القرى ، وهو طعام الضيف .

(٣) الأرزن : شجر صلب والخشبة العجراء التي بها عقد .

انا أماره إذا طَهرتْ خفقْنا ، ولم نُنْعِلك بالقعود .

وقد قال أصحابُ معاوية مثلَ الذي قلنا لك ، فقال : أمارةُ ذلكَ إذا قلتُ : إذا شئتم . وقال أصحابُ يزيدَ مثلَ ذلك . فقال : إذا قلتُ : على بركة الله ، وقيل لعبد الملك ، فقال : إذا ألقيتُ الخيزرانةَ من يدي ، فأيُّ شيء تجعل انا أصلحك الله ؟ فقال : إذا قلتُ : يا غلام ، الغداء .

قال جُحْظَةُ(١) : دخلتُ وأنا في بقايا علةٍ على كاتب ، فقدم إلينا مَضيرةً ، فأمعنتُ فيها ، فقال : جُعِلْتُ فداكَ ، أنتَ عليلٌ ، وبَدَنُك نحيل ، واللبن يستحيل ، فقلت : والعظيمُ الجليل لا تركتُ منها كثيراً ولا قليلاً ، وحسبُنا الله ونِعْمَ الوكيلُ .

حُقِنَ عُمَرُ بنُ يزيدَ الأسديِ(٢) بحُقنةٍ فيها دُهْنٌ ؛ فلما حرَّكتَهُ بطنُه كرهَ أن يذهبَ الدهنُ

---

(١) جحظة . هو أحمد بن جعفر بن موسى البرمكي ، لقب بجحظة لجحوظ عينيه ، أديب ، وشاعر ، ونديم ، ولد سنة ٢٢٤هـ ، وتوفي سنة ٣٢٤هـ .

(٢) هو عمر بن يزيد الأسدي ، أحد الشجعان المقدمين في حكم بني مروان .

صياعاً ، فدعا بطَسْتٍ وجلس عليه . ثم قال : صَفّوا هذا الدهن فإنه يصلح للسِّراج .

وأوصى بعضُهم ابنه ، فقال : كُن مع الناسِ كلاعب الشِّطْرنج يحفظُ شَيْئَه .

كان بالكوفة رجلٌ من المُصلحين — وهذا لقبُ المُقَدَّمين منهم في اللؤم — فبلغه أنَّ بالبصرة رجلاً من المصلحين مقدَّما في شأنه ، فقام الكوفيّ ، وصارَ إلى البصرة ليَلْقَى صاحبَه . فلما قدم عليه قال له : مَنْ أنتَ ؟ . قال : أنا مصلحٌ من أهل الكوفة ، وقد بلغني خَبَرُكَ ، فرحَّب به ، وأدخله البيت وأجلسَه ، وأخذ قطعةً ومرَّ ليشتري له شيئاً يأكله ، فلما خرج إلى السوق دَنا من البقال ، فقال : عندك خبز ؟ فقال : عندي خبزٌ كأنَّه السمنُ فقال المصلحُ في نفسه : لِمَ لا أشتري ما نعته به ؟ فذهب إلى آخرَ ، وقال : أعندك سمن ؟ فقال : عندي سمنٌ كأنّه الزّيت فقال في نفسه : أذهبُ فآخذُ ما نعته به ، فذهب إلى بقّالٍ آخر ، فقال : عندك زيت ؟ قال : عندي زيت كأنه الماء . فقال في نفسه : عندي واللّه راويةُ ماء . فرجع إلى البيتِ ، وأخذ الماء

في غَضَارة(١) وقدمه إلى الكوفيّ وقال : كُل هذا ، فإنه نَعْتُ النَّعت ، فقال الكوفي : أنا أشهدُ أنكم أحذقُ بالإصلاح منّا بألفِ دَرجة .

قال بعضهم : بِتُّ عند رجلٍ من أهل الكوفة . وهو من المُوسرين المعروفين بحُسنِ الحال ، وله صبيانٌ نيامٌ بحيث أراهم ، فرأيته في الليل يقومُ فيقلّبُهم من جَنْبٍ إلى جنب ؛ فلما أصبحنا قلت له : رأيتكَ يا أبا جعفر البارحة تفعلُ كَيْتَ وكيت ، قال : نعم ، هؤلاء الصبيانُ يأكلون وينامونَ على اليسار ، فيُمريهم الطعام فيصبحون جياعاً ، فأنا أقلّبُهم من اليسار إلى اليمين ؛ لئلا يَنْهَضِمَ ما أكلوه سريعاً .

قال بعضهم : دخلتُ الكوفةَ فسمعتُ امرأةً تقول : يا أبا جعفر الدّقاق ، حَسيبُكَ اللّه(٢) — وقد اجتمعَ الناسُ عليهما — فقال الدقاق : مالَكِ ؟ قالت : أعطيتني كَيْلَجَةَ(٣) دقيقٍ ما جاء منها إلا ثمانون رغيفاً . قال :

---

(١) غضارة : إناء كالقلة .

(٢) حسيبك الله : انتقم الله منك .

(٣) الكيلجة والكيلقة : شيء يكال به .

يا مُسْرِفَةُ ؛ إذا كنتِ تخبزين رُغفاناً مثل الأرْحِيَة فأيُّ ذنب لي ؟ .

قال آخرُ : رأيتُ بالكوفة صبياً ومعه قُرصة(١) ، وهو يكسر لقمةً لقمةً ، ويرمي بها إلى شَقٍّ في بعض الحيطان يخرج منه دُخانٌ ، ويأكلها . قال : فبقيتُ أتعجَّبُ منه ، إذْ وقفَ عليه أبوه يسأله عن خَبَرِه ؛ فقال الصبي : هؤلاء قد طبخُوا سِكباجة(٢) حامضةً كثيرةَ التوابل ؛ فأنا أتأدَّم برائحتها . قال : فصفَعَهُ أبوه صفعَةً صُلْبَةً كادَ يقطع بها رأسَه وقال : تريدُ تُعوِّد نفسكَ من اليوم ألاّ تأكل خبزاً إلا بأدَم .

نزل بكوفيٍّ ضَيفٌ ، فقال لجاريَته : يا جارية ، أصلحي لضيفنا فالوذَجاً . قالت الجاريةُ : ليس عندنا شيء . قال : ويلك ! فهاتي قطيفةَ إبريسم (٣) حتى ينام .

---

(٣) القرصة : الخبزة من الطعام ، ومثلها القرص .

(٤) السكباجة : طعام يصنع من لحم وخل وبصل وكراث وعسل مع الأفاويه .

(١) الإبريسم : الحرير

قال الضيفُ : يا سيدي ، فليس بين الفالوذَجِ والقطيفةِ رغيفٌ وقليلُ جبنٍ ؟ .

وقال آخر : رأيتُ كوفياً يُخاصِمُ جاراً له ويقاتلُه ، فقلت : ما قصتكما ؟ . فقال أحدهما : زارني زائرٌ ، فتشهّى عليّ رؤوساً ، فأطعمتهُ ، وأخذتُ العظام ؛ فرميتُ بها على باب داري أتجمّلُ بها ، وأكبِتُ العدوّ ، فجاء هذا . وأخذَها من باب داري ، وجعلها على باب دارِه .

وكان بعضُ المياسيرِ منهم له والدةٌ عجوز ، فقيل لها : كم يُجري عليك ابنُك ؟ . قالت : درهماً في كل أضحى . قيل : يا سبحانَ اللّه ! درهمٌ في كل أضحى ! . قالت : نعم ، وربما أدخلَ الأضحى في الأضحى .

وكان بعضُهم يأكل ومعه على المائده ابنهُ وزوجتهُ . فقال : لعن اللّه الزحمة . فقال له ابنهُ : يا أبَهُ ، تعنيني ؟ فليس ها هنا غيري وغيرُ أمي . قال : فترى أعني نفسي ؟ .

خرج نفرٌ من أهل مَرْو في سَفَر ، وصبروا على تَرْكِ السراج للارتفاق بما يرجعُ عليهم منه حتى أَبْلَغَ ذلك إليهم ، فاتفقوا على أن يُخْرِجَ كلٌّ واحد منهم شيئاً للسِّراج ، وامتنع واحدٌ منهم من أن يُعطِيَ شيئاً ؛ فكانوا إذا أسرجوا شدُّوا عينيه بمنديل إلى وقْتِ النوم ورَفْعِ السراج .

قال المنصورُ للوضين بن عَطَاء (١) : ما عِيالُكَ ؟ . قال : ثلاثُ بنات والمرأةُ . قال ، أربعٌ في بيتك . قال : فردَّد ذلكَ حتى ظننتُ أنه سَيَصِلُني . قال : ثم رفعَ رَأْسَه ، فقال : أنت أيْسَرُ العربِ ، أربعةُ مغازلَ تدور في بَيتِك .

وسقَى إنسانٌ بخيلٌ ضيفاً له نبيذاً عتيقاً على الرِّيق . فتأوَّهَ الرجل ، فقيل له : لِمَ لا تتكلم ؟ فقال : إن سكتُّ متُّ ، وإن تكلمتُ ماتَ ربُّ البيت .

وكان بعضُ البخلاء يأْكلُ نصفَ الليل ، فقيل له

(١) الوضين بن عطاء الشامي : محدث ثقة ، كان من الخطباء البلغاء ، مات سنة ١٤٩هـ

في ذلك ، فقال : يبردُ الماء وينقمعُ الذُّباب ، وآمن فجأة الدّاخل ، وصَرْخَةَ السّائل ، وصياحَ الصبيان .

قال الواقدي : خرجتُ أنا وابنُ أبي الزناد (١) إلى بعض المواضع بالمدينة ، ورجعنا نصفَ النهار في يومٍ صائفٍ ، فقال : ما أحوجنا إلى شربة ماءٍ باردٍ ! فإذا نحنُ بسعيد مولى ابن أبي الزّناد ، فقلت له : ابعث لنا شَرْبَةَ ماء ، فقال : نعم وكرامة ، اجلس.وبادَر مستعجلاً ، فدخل الدار ومكثَ طويلاً ، ثم خرج إلينا ، فقال : تعودونَ العشيةَ إن شاء الله .

قال العتبيُّ : لو بُذِلَتِ الجنّةُ للأصمعي بدرهمٍ لاستنقص شيئاً .

سأل مُتَكَفِّفٌ الأصمعيّ ، فقال : لا أرتضي لك ما يحضُرني ، فقال السائلُ : أنا أرضى به ، فقال الأصمعي : هو ، نورك فداك .

---

(١) هو عبد الرحمن بن أبي الزناد من العلماء الأجلة ، ولد سنة ١٠٠هـ ، وتوفي سنة ١٧٤هـ .

أعطى المنصور بعضهم شيئاً ثم ندم ، فقال له : لا تنفق هذا المال واحتفظ به ، وجعل يكرر عليه ذلك ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ، إن رأيت فاختمه حتى ألقاك به يوم القيامة فضحك وخلاّه .

كان رجلٌ على طعام بعضِ البخلاء ؛ فأَخذ عُراقا (١) فلم يجد عليه لَحْماً ، فوضعه لِيأْخذَ غيره ، فقال صاحبُ البيت : العيب بِمَسِّك (٢) .

قال بعضُهم : فلان عينُه دولابُ لقَمِ أضيافه .

قال بعضُهم لغلامه : هاتِ الطعامَ وأغلق البابَ .فقال الغلام : هذا خطأ . أغْلقُ البابَ ، ثم أُقدمُ الطعامَ ، فقال : أحسنت أنت حُرّ

* * *

---

(١) العراق العظم .

(٢) أى لم تجد الا نتقاء فلا تأخذ غيرها .

الباب الثاني عشر

كلام الشطّار (١)

ومن مجريات محاوراتهم ، ونوادرهم

حكى بعضهم أن شاطراً افتخر . قال : فحفظتُ من كلامه :

أنا الموجُ الكادِرُ ، أنا القُفْل العَسِر ، هذا وجهي إلى الآخرة ، تأْمُر بشيء ؟ لك حاجة إلى مالكٍ خازنِ النار ؟ . أنا النّارُ ، أنا العارُ ، أنا الرّحا (٢) إذا دار ، أنا مشيتْ سبْبوعين (٣) بلا رَأْس ، لولا أني عليلٌ لتَخرتُ نخره نصفُها صاعقة ونصفُها زلزلة . أضعلُك

---

(١) الشاطر من أعيا أهله خبثاً .

(٢) الرحا مؤنث ، هكذا كتبها المؤلف ، مراعيا السجع ، متجاوزا في الباب التقيد بالفصحى أحيانا

(٣) أسبوعين كتبها المؤلف بلهجة الشطار .

في جيبي ، وأنسلك حتى بعد الساعة . أقطعك آرابك وأجعله زر قميصي ، أو أستنشقك فلا أعطسك إلا في الجحيم ، أو آثرك فلا أبولك إلا على الصراط إذا صاح آدم : وامحموداه . والباه (١) لو كلمني الفيل لم يخرس ، أو البحر لم ييبس ، أو عضني الأسد لم يضرس ، أو رآني نمروذ (٢) لم يتهوس . أصدقائي أكثر من خوص البصرة ، وخردل مصر ، وعدس الشام ، وحصى الجزيرة ، وسمك القاطول (٣) . وحنطة الموصل وقصب البطائح (٤) ، وذي الأدوار ، ورد دون فلسطين

كان يمر ورجل يتفتى ويتشطر ، ولم يكن له يوم من أيام الفتيان قط ولا عشيرة من فتيانهم ، إلى أن

---

(١) لعل أصلها . وآلك أو وبالك ، وهي من كلام الشطار .

(٢) نمرود — بالذال أو الدال — ملك جبار

(٣) القاطول . اسم نهر كان في موضع سامرا ، كأنه مقطوع من دجلة

(٤) البطائح . هي بطائح واسط أرض بين واسط والبصرة ، كانت قديما مدنا متصلة ، ثم علا الماء فغمرها ، وبعد الخسارة نبت فيها قصب أكثر زرعها رز

وقع بينه وبين رجل قصّار شغبٌ شديد، فضربه ضرباً وجيعاً وأذلّه، فكان يفتخر بذلك ويتطاولُ عند الفتيان به، فتأذّى جيرانه بأحد قصّابي حانوته، فجاؤوه وقالوا: فلان قد آذانا، فكفّ عنّا شرّه وتدلّله، واكفناه. قال: لا أدري مَنْ فلان؟ ولكن إن شئتما ضربتُ لكم القصّار وأنزلتُ كلّ مكروه به.

وقع بين شاطر وشيخ له كلامٌ، فقال أحدهما للآخر: لولا أنك أكبرُ سِناً مني لجرّحتُك. ثم مضى غيرَ بعيد، فوقع بينه وبين آخر فقال: والله لولا أنك أصغرُ مني لشاتمتك. فقال له رفيقه: يا ابنَ الزانية، متى يتفقُ لك مَنْ تشاتمه؟

قال بعضهم: رأيتُ شاطراً يُضرَب بالقلْس (1)، وهو ينظر إلى الأرض. فلما فرغ الضربُ منه قال له الوالي: ارفع رأسكَ. فقال: يا سيدي، بقيَ رأسُها. قال: وما معنى بقي رأسُها؟ قال الجلاّد: كنت

(1) القلس: حبل غليظ من حبال السفن، أو حبل ضخم من الليف.

أبصرناه وهو يدوس برجله في الأرض بطّةً وقد بقي رأسها .

قال إسحاق بن إبراهيم الموصليّ : دخلتُ على فتيان من أهل المدينة يشربون ، وإذا هم متكئُون على كلاب كُرْديّة ، فقال بعضهم : هاتُوا وسادة لأبي محمد ، فجاءُوا بكلب ، فلما اتكأت عليه قالوا : هاتوا له أيضاً مخدّة ، فجاءُوا بجَرْو ، فلما تناولوا الأقداحَ جاء غلامٌ وفي يده قادحة يقدحُ في لحية من يحبسُ القدحَ .

قال : وجاء من ناحيته ، فجاء قومٌ إلى المعزولِ يتوجّعون له ، فقال بعضهم : لو كان غريباً عذرناه ، وإنما العجبُ أنه أخوك . فقال : اعذُروه فإن الملكَ عقيمٌ ، وإنما عقيم

وكان سليمان بن طراد سمهم ، وكان لا يقعدُ في دهليزه ، ولا يضرب من جناحه ، بل يصير في قَصْرٍ من قصور الأُبُلّة (١) ، ولا يطّلع في كوّةٍ ، ويأمُر

(١) الأُبُلّة : بلدة على شاطئ دجلة في زاوية الخليج الذي يدخل البصرة ، وهي أقدم من البصرة .

بذلك أصدقاءه وأصحابه . ويقول : إنْ تعوَّدتُم النظر إلى الماء والخروجَ إلى المتنزهات جزعتم من الحبس ، لم تدعوا ضيما ، ولم تكسبوا مالاً .

كان يقول : لا يُعجبني الفتىَ يكونُ لحاظا . وكان صاحبَ إطراقٍ .

كان يقولُ : إياكم وفضولَ النظرِ ، يدعو إلى فضولِ القول والعمل .

ومنهم بابويه ، وكان شيخاً كبيراً ذا رأْي ونجدة ، وصدق وأمانة وهمةٍ بعيدة ، وأنفةٍ شديدة وكان محبوساً بعدة دماء فلما نَقَبَ حميرُ بنُ مالك السجن وقام على باب النقب يُشرِب الناس ويحميهم ؛ ليستتمَّ الكرامة ، وجاء رسولُه إلى بابويه ، فقال : أبو نعامة ينتظرك . وليس له همٌّ سِواك ، وما بَرَدْتَ مِسْماراً ، ولا فككت حلقةً ، وأنت قاعد غيرُ مكترثٍ ولا محتفلٍ وقد خرج الناسُ حتى الضعفاء ؛ فقال بابويه . ليس مثلي يخرجْ

في الغمار . وتندفعُ عنه الرجالُ . لم أُشاوَر ولم أؤامر (١) . ثم يقال لي الآن : كن كالظّعينه (٢) . والأَمة ، والشيخ الفاني . والله لا أكون في الجنة تابعاً ذليلاً .

فلم يبرح . وخرج سائرُ الناس — وإجرامه وحده كإجرام الجميع — فلما جاء الأميرُ ودخل السجنَ فلم يرَ فيه غيرَه قال للحرس : ما بالُ هذا ؟ . فقصّوا عليه القصّة ؛فضحك وقال له : خُذ أي طريق شئْتَ ؛ فقال بابويه : هذا عاقبةُ الصّبر .

* * *

(١) تؤامر : يشاور

(٢) والظعينة . الزوجة .

الباب الثالث عشر

العيّ ومكاتبات الحمقى(١)

كتب بعض الرؤساء إلى وكيلٍ له في ضَيْعَةٍ : وقد وصلتِ النعاج،هي : تسعُ نعاج . وتسعُ نعاجٍ نصفها أربعٌ ونصفٌ نعاج .

قال بعضُهم : ما مِن شرٍّ من دَيْن ؛ فقيل له : ولِمَ ذاك ؟ . قال : من جرّاءِ يتعلّقون .

قال قاسمُ التمّار في كلامٍ له · بينهما كما بين السماء إلى قريبٍ من الأرض .

وقال أيضاً : لو رأيتَ إيوان كسرى كأنّما رُفعتْ عنه الأيدي أول من أمس .

---

(١) أبقى المؤلف في هذا الباب على كلام الحمقى وذوي العي على الرغم من مخالفة بعضه لقواعد اللغة ، لأنه أراد أن يقدمه كما نطقوه .

قال أبو هفّان : رأيت شيخاً بالكوفة قاعداً على باب دارٍ ، وله زيٌّ وهيئة وفي الدار صُراخ . فقلت : يا شيخ . ما هذا الصراخ ؟ فقال : هذا رجلٌ افتصد أمس فبلغ المضع شادَرْوانه فمات . يريد : بلغ المبضع شريانه .

وصف بعضُهم امرأةً ؛ فقال : عينُها الأخرى أكبر من عينها الأخرى .

كتب بعضُ من وَزَرَ بالريّ آنفا كتاباً في معنى أبيه إلى صديق له ببغداد — وكان قد حج أبوه — : هذا الكتابُ يوصله فلانٌ ابن فلان ، وهو والدي ، وقديمُ الصحبة لي ، واجبُ الحق على . ولي بأمره عناية .

ودخل أبو طالب صاحب الطعام على هاشميَّة جارية حمدونة بنت الرشيد ، على أنْ يشتري طعاماً من طعامهم في بعض البيادر ، فقال لها : إني قد رأيتُ متَاعَكِ . فقالت هاشميةُ : قُل طعامك . قال : وقد أدخلتُ فيه يدي فإذا متاعك قد خمَّ وحَمِيَ(١) . وقد صار مثل

---

(١) خم : أنتن .

الجيفة . قالت : يا أبا طالب ، أليس قد قلّبت الشّعير ، فأعطِنا ما شئت ، وإن وجدتَه فاسِداً .

ودخل أبو طالب هذا على المأمون ، فقال : كان أبوك يابا خيراً لنا منك ، وأنتَ يابا ليس تعدّنا . وليس تبعثُ إلينا . ونحن يابا تجّارُك وجيرانُك . والمأمون في كل ذلك يتبسّمُ .

وكان ابنٌ لسعيدٍ الجوهري يقول : صلّى اللّهُ تبارك وتعالى على محمدٍ صلى اللّه عليه وسلم .

وكان بالريّ ورّاقٌ حسن الخط ، وكان إذا كتب اسم اللّه تعالى أو اسم النبي في القرآن أو الشعر كتبَ بعده ما ما يكتبه الإنسان في سائر المواضع ، فكان يكتب في القرآن : « إنّ اللّه ـ عزّ وجلّ ـ يأمُرُ بالعدلِ والإحسان »(١) « وما مُحمّدٌ ـ صلى اللّه عليه وسلم ـ إلاّ رَسُولٌ قد خلت من قبلهِ الرّسُل »(٢) . وكان يكتبُ في الشعر :

---

(١) زائد في الآية : « عز وجل » والآية في سورة النحل : ٩٠ .

(٢) زائد في الآية صلى الله عليه وسلم ، والآية في سورة آل عمران : ١٤٤ .

إنَّ تَقْوَى رَبِّنَا – عَزَّ وَجلَّ – خَيرُ نَفَلْ
وبإذن اللّه – تبارك وتعالى – ربْي وعجل(١)

ويكتب:

هجوتَ محمداً – صلى اللّه عليه وسلم – فأجبت عنه
وعِنْدَ اللّهِ – تعالى – في ذاك الجزاء (٢)

وقال الجاحظ قلتُ لنفيس غلامي: بعثتك إلى السوق في حاجةٍ فلم تقضِها؛ فقال: يا مولاي، أنا ناقهٌ من مرضِي، وليس في ركبتي دماغ.

وقال الجاحظُ: قال الحجاجُ لأبي الجهير الخراساني النخاس: أتبيع الدوابَّ المعيبةَ من جُندِ السلطان؟ فقال: شَرِيكاتُنا في هوازها وشريكاتنا في مَدائنها، وكما يجيء يكون. قال الحجاجُ: ما تقول؟. قال بعضُ من كان قد اعتاد الخطأ وكلام العلوج بالعربية: يقولُ: شركاؤنا

(١) زاد في الشطر الأول: «عز وجل». وفي الثاني «تبارك وتعالى» والبيت للبيد.

(٢) زاد في البيت: صلى الله عليه وسلم» في الشطر الأول و«تعالى» في الثاني، والبيت لحسان يرد به على أبي سفيان.

بالأهواز وبالمدائن يبعثون إلينا هذه الدّوابّ ؛ فنحن نبيعُها على وجوهها .

قال ابن أبي فنن(١) : طلبتُ من عبد اللّه بن أحمد بن الخصيب بُخوراً ، فكتب إليه : فدتك نفسي من السوء برحمته ، كتابي إليك وأنا وحدي ، والجواري عندي ؛ فأمّا البخور فإنّ أبا العباس في الحمّام إنْ شاء اللّه .

وكتب بعضُ الشيوخ الفُضَلاء إلى شيخ من العدول بالري نَفَقَتْ بغلتُه : نُبِّئْتُ أنّ الشيخَ قد ماتَ بغلته ، هيهاتَ هيهاتَ .

* * *

(١) أبو عبد الله أحمد بن أبي فنن ، شاعر مطبوع من شعراء العصر العباسي .

الباب الأوّل

كلام للنساء الشرائف

فاطمة ابنة رسول الله عليها السلام

قالوا : لما بلغ فاطمةَ عليها السلامُ إجْماعُ أبي بكر مَنْعَهَا فَدَكاً(١) لاثتْ(٢) خِمارَها على رأسها ، واشْتَمَلَتْ بجلبابها ، وأقبلت في لُمَّةٍ من حفَدَتِها ونساء قومها ، تطَأُ ذُيُولَها ، ما تَخْرِمُ(٣) مِشْيَتُها مِشْيَةَ رسولِ اللّهِ صلّى اللّه عليه ، حتى دخلت على أبي بكر وهو في حَشْدٍ من المهاجرين والأنصار وغيرِهم، فنيطَتْ دُونها مُلاءةٌ ، ثُمَّ أنَّتْ أنَّةً أجهش لها القوم

---

(١) فدك : قرية بينها وبين المدينة يومان ، أفاءها الله على رسوله ، ذكرت فاطمة أن الرسول تصدق عليها بها .ولم تستطع الإتيان بشاهدين على ذلك ، فحرمها أبو بكر منها

(٢) لاثت الخمار تلوثه : أدارته .

(٣) ما تخرم مشيتها . ما تنقص عنها .

بالبكاء ، وارتجّ المجلس ثم أمهلت هنيّة (١) حتّى إذا سكن نشيجُ القوم ، وهدأت فورتُهم افتتحت كلامها بحمد اللّه والثناء عليه والصلاة على رسوله صلى اللّه عليه . ثم قالت :

« لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ »(٢) . فإنْ تعرفُوه تجدوهُ أبي دونَ آبائكمْ ، وأخا ابن عمّي(٣) دونَ رجالكم ، فبلّغ الرسالةَ صادعاً بالنّذارة ، بالغا بالرسالة ، مائلا عن سَنَن المشركين ضاربا ثَبَجهم(٤) ، يدعو إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة ، آخذاً بأكْظام(٥) المشركين ، يُهَشّم الأصنامَ ويَفْلقُ الهامَ ؛ حتى انهزم الجمعُ وولّوْا الدُّبُر ، حتّى تفرّى(٦) الليلُ عنْ صبحه ، وأسفر الحقُّ عن

(١) هنة : بمعنى هنيهة ، تصغير هنة ، وهي القياس في التصغير .

(٢) سورة التوبة ١٢٨ .

(٣) إشارة إلى مؤاخاة رسول الله لعلي

(٤) الثبج : الوسط

(٥) الأكظام جمع كظم وهو مخرج النفس .

(٦) تفرّى : تشقق .

مَحْضِه(١) ، ونطقَ زعيمُ الدين ، وخرسَتْ شقَاشق(٢) الشيطان ، وتمّتْ كلمةُ الإخلاص ، « وكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النّار(٣) » . نُهزَةَ(٤) الطامع ، ومَذْقَةَ الشّارب(٥) ، وقَبْسةَ العجلان ، وموطِئَ الأقدام ، تَشربون الطّرْق(٦) ، وتقتاتون القِدّ ، أذلةً خاسئين ، يخطفكم الناسُ من حولِكم ، حتّى أنقذكم اللّهُ برسوله صلى اللّه عليه بعدَ اللُّتيّا والتي ، وبعد أن مُنِيَ ببُهَم الرجال(٧) وذُؤْبان العرب ، ومَرَدةِ أهل الكتاب « كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أطْفَأَهَا اللّهُ »(٨) . أوْ نجَم قرنٌ للشيطان ، أو فغرَتْ

(١) المحض الخالص .

(٢) والشقاشق القول فيه كذب .

(٣) سورة آل عمران : ١٠٣ .

(٤) نهزة الطامع : اسم للشيء المعرض لك كالغنيمة .

(٥) المذقة : الشربة من اللبن المخلوط بالماء وفي القول الشبيه

(٦) الطرق : ماء السماء الذي تبول فيه الإبل. والقد : السير يقد من الجلد . والقديد : اللحم المجفف .

(٧) بهم الرجال : شجعانهم

(٨) سورة المائدة ٠ ٦٤

فاغِرَةٌ للمشركين ، قذَفَ أخاه في لَهَواتها ، فلاَ ينكفِئُ حتّى يَطَأَ صِماخَها (١) بأخْمَصِه ، ويُطْفِئ عاديةَ لَهَبِها بسيفِه -أو قاتَ- ويُخْمِدَ لهيبَها بحدِّه مكدوداً في ذات اللّه . وأنتمْ في رفاهة فَكِهُون آمنُون وادعون .

حتى إذا اختار الله لنبيه صلى اللّه عليه دارَ أنْبيائه ظهرت حسَكَةُ (٢) النفاق ، وسمَل (٣) جلبابُ الدّين ، ونطق كاظِمُ (٤) الغاوين ، ونبغَ خامِلُ الأقلّين ، وهدَرَ فنيقُ (٥) المبطلين ، فخطر في عرصاتِكم ، وأطلعَ الشيطانُ رأسَه صارخاً بكم ، فدعاكم فألفَاكم لدعوته مستجيبين وللعزَّة ملاحِظين ؛ ثم استنهضَكم فوجَدَكم خِفافا وأحْمَشَكُم(٦) فألفاكُم غِضَابا ؛

---

(١) الصماخ : فتحة الأذن الباطنة وفي القول استعارة .

(٢) الحسكة : الشوكة .

(٣) سمل الجلباب . بلى ورث .

(٤) الكاظم : المبطن للحقد .

(٥) الفنيق : الجمل الفحل .

(٦) أحمشكم : جعلكم تغضبون ، ومن معانيها : ساقكم بغضب .

فوَسَمْتم غيرَ إبلكم ، وأوردتم غير شِربكم ، هذا والعهْد قريب والكَلْمُ رحيبٌ، والجُرحُ لَمَّا يَنْدَمل .

أبماذا زَعَمْتُم : خوفَ الفِتْنة ؟ « ألا في الفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإنَّ جَهَنَّم لمحُيطة بالكافرينَ(١)» ، فهيهاتَ فيكم ، وأنّى بكم ، وأنىَّ تؤفكون ، وكتاب اللّه بين أظْهُرِكم ، زواجِرُه بيّنةٌ ، وشواهدُه لائحةٌ ، وأوامرُه واضحةٌ ، أرَغْبَةً عنهُ تريدُون ؟ أم بغيره تحكُمون ؟ « بئْسَ للظَّالمينَ بَدَلاً »(٢)« وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ في الآخِرَةِ مِنَ الخاسِرين » (٣) ثم لم تلبثُوا إلا رَيْثَ أن تَسْكُنَ نَفْرَتُها تشربون حَسْوا في ارتغاء(٤) ، وتصبرُ مِنكم على مثلِ حَزِّ المُدَى وأنتم الآن تَزْعُمون لا إرْثَ لنَا « أفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُون»(٥)

---

(١) سورة التوبة : ٤٩ .

(٢) سورة الكهف : ٥٠ .

(٣) سورة آل عمران : ٨٥ .

(٤) مثل يضرب لمن يظهر أمراً ويبطن غيره .

(٥) سورة المائدة : ٥٠ .

إيهاً معشرَ المُسْلِمةِ المهاجرَةِ ؛ أأُبْتزُّ إرثَ أبيَه ؟ أبَى اللّهُ في الكتاب بابْنِ قُحافة ، أن ترثَ أباكَ ولا أرثُ أبِيه . لقد جئتَ شيئاً فريّاً(١) . فدونكها مخطُومةً مرْحُولَةً ، تلقاكَ يومَ حَشْرك ، فنعمَ الحَكَمُ اللّهُ ، والزعيمُ محمدٌ صلى اللّه عليه ، والموعدُ القيامةُ ، وعندَ الساعةِ يخسرُ المُبْطِلُون « ولِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ وسَوفَ تَعْلَمُون » (٢) .

ثم انكفأت على قبر أبيها صلى الله عليه فقالت :

قَد كانَ بعدَكَ أنباءٌ وهنبثَــةٌ(٣)
لو كنتَ شاهِدَها لم تكثرِ الخُطَبُ
إنّا فقدْنَاك فقْدَ الأرض وابِلَهَا
واختلّ أهلكَ فاحضُرْهم ولا تغِب(٤)

* * *

فقالت :

---

(١) الفري : العمل الذي لم يسبق إليه .

(٢) سورة الأنعام ٦٧ .

(٣) الهنبثة : الاختلاط في الكلام .

(٤) في البيتين إقواء

عائشةُ أمُّ المؤمنينَ (رضي الله عنها)

رُوِيَ أنه لما كان يومُ الجَمَلِ قامتْ عائشةُ فتكلمتْ فقالت :

أيها الناسُ ؛ إنَّ لي عليكم حقَّ الأمومةِ وحقَّ الموعظةِ ، لا يتّهمني إلا منْ عَصَى رَبَّه . قُبِضَ رسولُ اللّهِ صلى اللّهُ عليه وسلم بين سَحري (١) ونَحْري ، وأنا إحدى نسائِه في الجنة ، اه ادّخرني ربي ، وخصني من كل بُضْعٍ(٢) وبي مُيِّزَ مؤمِنُكُم من مُنَافِقِكم(٣) ، وفيَّ رخّص اكم في صعيد الأبْواء(٤) وأبي رابع أربعة من المسلمين ، وأولُ مُسَمَّى صِدّيقاً . قُبِضَ رسولُ اللّه صلى اللّه عليه وسلمَ وهو عنهُ راضٍ فوقذ النفاقَ(٥) ، وأغَاض نَبْعَ الرِّدَةِ ، وأطفأ

(١) السحر : الرئة . وقد توفي عليه الصلاة والسلام ورأسه على صدرها

(٢) البضع : الفرج . وربما أرادت أنها الزوج البكر من بين أزواجه

(٣) اشارة إلى حديث الأفك .

(٤) الأبواء : المفازة .

(٥) وقذ النفاق : كسره ودمغه .

ماحشّتْ (١) يَهُود ، وأنتم حينئذ جُحظٌ . تنتظرون العَدوْة ، وتستمعُون الصَّيحة ، فرأبَ الثّأي(٢) ، وأوْذَم(٣) العَطِلة ، وامتاحَ من المَهوَات ، واجْتَهَرَ دُفْنَ الروَاء ، فقبضهُ اللّه واطئاً على هامة النفاق ، مذكياً ناراً لحرب المشركين ، يقظانَ في نصرة الإسلام ، صَفُوحاً عن الجاهلين .

ورُوِيَ أنه بلغها أن ناساً يتناولون أبا بكر ، فأرسلتْ إلى أزْفَلة(٤) من الناس ، فلما حَضروا أسْدَلَتْ أستارها ، وأعلتْ وِسَادَها ، ثُمَّ دنتْ فحَمِدَتِ اللّه ، وأثنتْ عليه ، وصلّت على نبيه صلى اللّه عليه وسلم ، وعَذلت وقرّعت وقالتْ :

أبي وما أبِيَهْ ! أبي واللهِ لا تَعْطُوه (٥) الأَيدي ، ذلود منيف ، وظلٌ مديد ، هَيْهَاتَ هيهات !

---

(١) حش الحرب . أشعلها .

(٢) رأب . أصلح ، والثأى : الفساد .

(٣) أوذم الشيء : جعل له وذاماً ، وهو سير للدلاء ، والعطلة : الدلاء ، التي بلا أوذمه

(٤) أزفله جماعه من الناس ، ومثلها أجفلة

(٥) تعطوه . تتناوله من قرب .

كذبتِ الظنّون . أنْجَحَ (١) والله إذْ أكديتم، وسبقَ! إذ ونيتُم

* سَبْقَ الجَوادِ إذا استولى على الأَمَدِ (٢) *

فتى قريش ناشئاً ، وكَهْفُها كهلاً ، يريشُ مُمْلِقَها ، ويفُكُّ عانيَها ويلُم شعثها ويرأبُ صَدْعَها حتى حَلَتْه قلوبها ، ثم استشرى في دينه فما برحت شكيمتُه في ذات الله ، حتى اتخذَ بفنائه مسجداً يُحْيي فيه ما أمات المبطلون .

وكان رحمةُ الله عليه غزيرَ الدمعة ، وقيذَ الجَوانح (٣) شَجِيّ النشيج ، فانقضّت إليه نِسوانُ مكّةَ وَوِلْدانُها يسخرون منه ، ويستهزئون به . ((اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)) (٤) وأكْبَرَتْ

---

(١) أي أصاب إذ أخطأتم .

(٢) صدره .

إلا لمثلك أو من أنت سابقه

والبيت للنابغه .

(٣) وقيذ الجوانح : محزوناً كأنه مكسور القلب .

(٤) سورة البقرة . ١٥ .

ذلك رجالاتُ قريش ، فَحَنَتْ إليه قِسِيَّها ، وفَوَّقت له سهامها وامتثلوه غرضا (١) فما حلُّو له صَفاةً ، ولا قَصَفُوا له قَناة ، ومَرَّ على سيسائه (٢) حتى إذا ضرب الدين بجرانه ، وألقى برْكه (٣) ، ورست أوتادهُ ، ودخل الناسُ فيه أفواجاً ، ومن كل شِرعةٍ أشتاتا وأرسالا اختار الله جلَّ اسمُه لنبيه صلواتُ الله عليه وسلامه وتحياته ما عنده ، فلما قَبَض اللهُ رسولَه ضربَ الشيطانُ برواقه ، ومَدَّ طُنُبَه ، ونصبَ حبائِلَه ، وأجلبَ بخيله ورَجله ، واضطربَ حبلُ الإسلام ، ومَرَجَ عهدُه ، وماج أهلُه وبغَى العوائل ، وظنتْ رجالٌ أن قد أكْثَبت نُهزَها ، ولاتَ حين التي يرجون ، وأنَّى والصِّدِّيقُ بين أظهرهم ؟ فقام حاسِرا مشمِّرا قد جمعَ حاشيتَيه ، ورفع قطريْه ، فرد نشْزَ الدين على غَرِّه ، (٤) ولمَّ

---

(١) امتثلوه : نصبوه . والقسي : جمع قوس ، وهو آلة رمي السهام .

(٢) السيساء من الدابة : ظهرها .

(٣) برك البعير : صدره .

(٤) على غره : على كسره ، والمراد تدبير أمر الدين ، وكسر الردة .

شعثَه بطِبه ، وأقام أَوَده بثقافِه ، فامْذَقَر (١) النفاقُ بوطئِه ، وانتاش الدينَ فنعَشَه .

فلما أراح الحقَّ على أهله ، وأقرَّ الرُّؤوسَ على كواهِلها ، وحَقَنَ الدماء في أُهبها (٢) حَضَرَتْه منيَّتُه ، نضَّرَ اللهُ وَجْهَه ، فَسَدَّ ثلْمَته بنظيره في الرحمة ومُقتفيه في السِّيرة والمَعْدلَة ؛ ذلكَ ابنُ الخطاب ، لله أمٌّ حملَت به ، ودرَّت عليه . لقد أوحَدَت ، فَفَنَّخ الكَفَرة ودَنَّخَها (٣) ، وشرَّدَ الشرك شَذَرَ مَذَرَ وبَعَجَ الأرضَ وبَجَعَها (٤) ، فقَاْتْ أُكُلَها ، ولَفظَتْ خبْأها ، ترْأمُه ويَصْدُفُ عنها ، وتَصَدَّى له وَيأْباها ؛ ثم وزّع فَيْئَها فيها ، وَوَدَّعها كما صحبها . فأروني ماذَا تَرْتَؤون . وأيَّ يَوْمَيْ أبي تنقِمونُ ؟ أيومَ إقامتِه إذْ عَدَلَ فيكم أو يوم ظَعْنِه إذ نَظَر لكُم . أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

---

(١) امذقر اللبن . تفرق .

(٢) جمع إهاب : الجلد .

(٣) فنخ : أذل وقهر ، ودنخها : أخضعها

(٤) بعج الأرض : شقها ، وبجعها : أذلها .

وقالت : لو نزل بالجبال الراسيات ما نزلَ بأبي لهاضَها ، قُبضَ رسولُ الله صلى الله عليه ، فاشرأبَّ النِّفَاقُ ، وارتدَّت العرب قاطبةً . وعادَ أصحابُ محمدٍ كأنهم معزًى مَطيرة في خِفْش (١) ، فما اختلفوا فيه من أمر إلا طار أبي بِغَلائه وغَنائه .

ومن رأى ابنَ الخطَّاب علم أنه كان عَوْناً للإسلام ، كان والله أحْوَذِياً (٢) نسيجَ وحْدِه ، قد أعدَّ للأُمور أقْرانَها .

وقالت : مَن أرضى الله بإسخاط الناسِ كَفاهُ الله ما بينه وبين الناسِ ، ومن أرضَى الناسَ بإسخاطِ الله جلَّ ذِكْرُه وَكَلَه الله إلى الناس .

وقالت : إنَّما النكاحُ رِقٌّ فلينْظُرْ امرؤٌ مَنْ يُرِقُّ كَريمَتَهُ .

وقالت : خرجتُ أقفُو آثارَ الناسِ يومَ الخَنْدَقِ ،

---

(١) الخفش : البيت الذليل .

(٢) الأحوذي والأحوزي : الحسن السياق للأمور .

فسمعتُ وَئِيدَ الأَرضِ (١) خلفي ، فالتفتُّ فإذا أنا بسعدِ بنِ معاذ (٢) .

وقالت لها امرأةٌ : أأُقيِّد جملي ؟ قالتْ : نعمْ ، قالت : أُقيدُ جملي ؟ فلما علمت ما تريدُ قالت : وَجْهِي من وَجْهِكِ حرَامٌ ؛ تعني بالجمل زوجَها أي أوحده عن النساء .

وقالت : لا تؤدي المرأةُ حقَّ زوجها حتى لو سألها نَفْسَها وهي على ظَهْرِ قتَبٍ (٣) لم تمنعه .

* * *

أم كلثوم بنت علي(٤)

رُوي عن بعضهم قال : رأيتُ أمَّ كلثوم بنتَ عليٍّ

---

(١) وئيد الأرض : شدة الوطء ، يسمع كالدوي من بعيد .

(٢) سعد بن معاذ الأوسي الأنصاري ، صحابي جليل ، وهو الذي حكم على يهود بني قريظة وتوفي في نفس السنة ، وله مواقف مشهورة في الإسلام .

(٣) أي على ظهر جمل . والقتب : الرحل الصغير على قدر سنام البعير .

(٤) أم كلثوم بنت علي أخت الحسين ولدت قبل وفاة الرسول ، تزوجها عمر بن الخطاب . وله منها ذرية .

بالكوفة ، ولم أرَ خَفِرَةً واللهِ أنطقَ منها ، كأنما تنطق وتُفرّع عن لسانِ أميرِ المؤمنينَ رضيَ الله عنه ، وقد أومأتْ إلى الناس وهم يبكونَ على الحسين — رضي الله عنه — أن اسكتُوا فلما سكنَتْ فورَتهم ، وهدأت الأجراسُ . قالت :

أبدأ بحمدِ اللهِ والصلاةِ على أبيه . أما بعد ، يا أهل الكوفةِ يا أهلَ الختْر (١) والخذْل ؛ ألاَ فلاَ رَقأت العَبْرَةُ ، ولا هدَأَت الرَّنَّةُ ، إنما مَثَلكُم كمثل التي ((نَقَضَتْ غَزْلَهَا من بعدِ قُوَّةٍ أنْكاثاً تتَّخذُونَ أيمَانكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ)) (٢) ألا وهلْ فيكُمْ إلا الصَّلَفُ والشَّنَفُ (٣) ، مَلَقُ الإماءِ وغَمْزُ (٤) الأعداءِ وهل أنتمْ إلا كمرعىً على دِمْنَةٍ ، وكفضَّةٍ على مَلْحُودةٍ . ألا ساءَ ما قدَّمَتْ لكمْ أنفسكُمْ أن سخطَ اللهُ عَلَيكُم وفي العذابِ أنتُم خالدون .

---

(١) الختر : أسوأ الغدر .

(٢) سورة النحل : ٩٢ .

(٣) الشنف : البغض .

(٤) الغمر : الحقد .

أتبكون ؟ إي والله ، فابكُوا ؛ فإنكم والله أحرياءُ بالبكاءِ ، فابكُوا كثيرا واضحكُوا قليلا ، فلقد فزتُم بعارِها ، وشنارِها ، ولن ترحضُوها (١) بغسْلٍ بعْدَها أبدا ، وأنّى ترحضُون قتلَ سليلِ خاتَم النبُوّة ، ومَعْدنِ الرسالةِ ، وسيدِ شبابِ الجنةِ ، ومنارِ محجَّتكم ، ومِدْرَهِ (٢) حُجَّتكم ، ومفزعِ نازلتكم ؟ فتعساً ونُكْساً ! لقد خابَ السعيُ ، وخسرت الصَّفْقَةُ ، وبؤْتم بغضبٍ من الله ، وضُربت عليكم الذِّلَّةُ والمسكَنَة . ((لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إدّاً * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطّرْنَ مِنْهُ وتَنْشَقُّ الأرْضُ وتَخِرُّ الجِبَالُ هَدّاً)) (٣) .

ما تدرونَ أيَّ كبدٍ لرسولِ اللهِ صلى الله عليه فريْتُمْ وأيَّ كريمٍ له أبرزْتم ، وأيَّ دمٍ لهُ سفكْتم . لقد جئتمْ بها شوهاءَ خرقاءَ طِلاعَ (٤) الأرضِ والسماءِ ،

---

(١) رحض الثوب : غسله .

(٢) المدره : المدافع عن الجماعة .

(٣) سورة مريم : ٨٩ ، ٩٠ . والإد : الأمر الداهي المنكر .

(٤) طلاع الأرض : ملؤها

أَفَعَجِبْتُمْ أنْ قَطَرَتِ السماءُ دماً ، ((وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لاَ يُنْصَرُونَ)) (١) .

* * *

حَفْصَةُ أُمُّ المؤمنين (٢)

خطبت حَفْصَةُ بنتُ عمر فقالت :

الحمد لله الذي لا نظير له والفَرْدِ الذي لا شريك له .

وأما بعدُ ، فكلُّ العَجَبِ من قوم زَيَّنَ الشيطانُ أفعالهم ، وارعَوى إلى صنيعهم ، ودبَّ في الفتنةِ لَهُم ، ونصبَ حبائلَه لِيختَتِلهم ، حتى همَّ عدُو اللهِ بإحياءِ البِدْعَة ، ونَبْشِ الفِتْنَةِ ، وتجديدِ الجَوْرِ بعد دُروسِه (٣) ، وإظهارِه بعد دُثُوره (٤) ، وإراقةِ الدماءِ ، وإباحَةِ الحِمَى ، وانتهاكِ مَحَارِمِ الله عَزَّ وَجَلَّ بعد تحصينها ، فتضرَّمَ وهاجَ ، وتوغَّرَ وثارَ

---

(١) سورة فصلت : ١٦ .

(٢) حفصة بنت عمر بن الخطاب أم المؤمنين ، تزوجها الرسول سنة ٣هـ . توفيت سنة ٤١ . أو سنة ٤٥هـ .

(٣) الدروس : البلى .

(٤) الدثور : الهلاك .

غَضَباً لله ونُصْرَةً لدينِ الله ، فأخْسَأَ الشيطانَ وَوَقَمَ (١) كَيْدَه ، وكَفَّفَ إرادتَه ، وقَدَعَ مَحسّته ، وصَعَّر خدَّه السَّبَقَةُ إلى مُشَايَعَةِ أوْلى الناسِ بخلافةِ رسولِ الله صلّى الله عليه ، الماضِي على سُنَّتِه ، المُقْتَدِي بدينِه ، المُقْتَصّ لأَثَرِه ؛ فلم يزلْ سِراجُه زاهراً ، وضَوْءه لامعاً ونورُه ساطعاً .

له من الأفعال الغُرَرُ ، ومن الآراء المُصاصُ (٢) ، ومن التقدم في طاعةِ اللّه عزّ وجلّ اللُّباب ، إلى أنْ قبضَه اللّه إليه ، قالياً لما خرجَ منه ، شانِئاً لما نزلَ من أمره ، شَنِفاً (٣) لما كانَ فيهِ ، صَبّاً إلى ما صارَ إليه ، وائلاً (٤) إلى ما دُعِيَ إليه ، عاشقاً لما هو فيه .

فلما صارَ إلى التي وَصَفْتُ ، وعايَنَ مَا ذكرتُ أومَأَ بها إلى أخيهِ في المَعْدَلةِ ونَظيرِه في السيرةِ ، وشقيقهِ في الديانةِ ، ولو كانَ غَيْرَ اللّهِ أرادَ لأمالها إلى

---

(١) وقم الكيد : أذله وقهره .

(٢) المصاص . خالص كل شيء .

(٣) شنفا . مبغضا كارها .

(٤) وائلا : لاجئا .

ابنه ، ولصيّرها في عقبه ، ولم يُخرجها مِنْ ذُرِّيته ، فأخذها بحقّها ، وقامَ فيها بقسطها ، لم يَؤُدْهُ ثِقلُها ، ولم يَبْهظه حِفظُها ، مُشرِّداً للكفر عن موطنه ونافراً له عن وكره ، ومثيراً له من مجثمه ، حتى فتح الله عز وجلّ على يديه أقطارَ البلاد ، ونصْرُ الله يقدُمه ، وملائكته تكنُفُه ، وهو بالله مُعتَصِمٌ ، وعليه مُتوكِّلٌ ، حتى تأكّدَتْ عُرَا الحقّ عليكُمْ عَقْدا ، واضمحلّت عُرَا الباطل عنكُم حَلاًّ ، نوره في الدُّجُنّاتِ ساطِعٌ ، وضَوْءُهُ في الظلماتِ لامِعٌ ، قالياً للدنيا إذْ عَرَفها ، لافظاً لها إذ عَجَمها ، وشانِئاً لها إذ سَبَرَها ؛ تخطُبه ويَقْلاها ، وتريدُهُ ويأباها (١) ، لا تطلبُ سواه بَعْلاً ،ولا تبغي سواه نُحْلا(٢)أخبرَها أن التي يَخْطِبُ أرغدُ منها عَيْشاً ، وأنْضَرُ منها حُبُورا ، وأدْوَمُ منها سُرورا ، وأبقَى منها خلُوداً ، وأطولُ منها أياما ، وأغْدقُ منها أرضاً ، وأنْعَتُ منها جَمالاً ،

---

(١) تريد : عمر بن الخطاب .

(٢) النحل : العطاء .

وأتَمُّ منها بُلَهْنِيَة، وأعذبُ منها رُفَهْنِية(١) فَبَشِعَتْ نَفْسُه بذلك لعادتِها، واقشعرّت منها لمخالفتها، فعركَها بالعَزْمِ الشديدِ حتى أجابتْ، وبالرأي الجليدِ حتى انقادتْ، فأقام فيها دعائمَ الإسلام. وقواعدَ السُّنّةِ الجاريةِ، ورواسيَ الآثارِ الماضيةِ وأعلامَ أخبارِ النُّبُوّةِ الظاهرةِ، وظلّ خميصاً من بهجتها، قالياً لأثاثها، لا يرغبُ في زبرجِها(٢) ولا تطمحُ نفسهُ إلى جِدَتِها، حتى دُعِيَ فأجابَ، ونُودِيَ فأطاعَ على تلكَ الحالِ، فاحْتذى في الناسِ بأخيهِ فأخرجَها مِنْ نسلِهِ، وصيَّرها شُورَى بينَ إخوته، فبأيِّ أفعالهِ يتعلقون؟. وبأيِّ مذاهبِهِ يتمسكون؟ أبطرائقهِ القويمةِ في حياته، أم بعدْلهِ فيكمْ عند وفاتهِ، ألْهَمَنَا اللّهُ وإياكمْ طاعتَهُ، وإذا شئتُمْ ففي حِفْظِ اللّه وكلاءته.

* * *

---

(١) الرفهنية : رغد العيش وخصبه .

(٢) الزبرج : الوشي .

أَرْوَى بنتُ الحارِث

قيل : دخلت أَرْوى بنتُ الحارثِ بنِ عبدِ المطلب على معاويةَ بنِ أبي سفيانَ بالمَوْسِمِ وهي عجوزٌ كبيرةٌ ، فلما رآها قال : مَرْحَباً بك يا عَمَّةُ . قالت :

كيفَ أنت يا بْنَ أخي ، لقد كَفَرْتَ بعدي بالنِّعْمَةِ ، وأسأت لابن عَمِّكَ الصُّحبهَ ، وتسمَّيْتَ بغيرِ اسمك ، وأخذت غيرَ حقِّك ، بغير بلاء كان منك ولا من آبائك في الإسلام ؛ ولقد كفرتُم بما جاءَ به محمدٌ صلى الله عليهِ . فأتْعسَ اللهُ الجدُودَ ، وصَغَّرَ منكم الخُدودَ ، حتى رَدَّ اللهُ الحقَّ إلى أهله ، وكانت كلمةُ اللهِ هي العليا . ونبيُّنا محمد صلّى الله عليه هُو المنصورُ على مَنْ ناوأه ولوْ كَرِهَ المشركون .

* * *

رُؤيا رُقَيْقَة (١)

قال مَخْرَمَةُ بنُ نَوْفل(٢) : حدثتني أميَ رُقَيْقَةُ بنتُ أبي صَيْفيّ بنِ هاشم بن عبدِ مَناف ، قالت :

---

(١) رقية بنت أبي صيفي بن هاشم ، قبل كانت صحابية .

(٢) مخرمة بن نوفل القرشي الزهري ، أمه رقيقة ، كان من مسلمة الفتح ، ومن المؤلفة قلوبهم شهد حنينا مع النبي. توفي سنة ٥٤ هـ وعمره ١١٥ سنة.

تتابعَتْ على قريش سنون أقْحَلَتِ(١) الضرع وأرقّت اللحم ، وأدقّتِ العظم فبينا أنا نائمةٌ ، لاهَمٌّ أو مُهَوِّمة (٢) إذا أنا بهاتف يهتفُ بصوت صَحِل(٣) اقشعرَّ له جلدي : معاشرَ قريش إن النبيَّ الأميَّ المبعوثَ منكم قد أظلتْكُم أيامُه ، وهذا أوان نُجُومِه(٤) ألا فحَيَّ هَلا(٥) بالخصْبِ والحيَا ، ألا فانظروا منكم رجلا وَسيطا(٦) عُظاما جُساما أبيض بَضّاً أوْطفَ الأهدابِ(٧) أشمَّ العرْنين(٨) سهلَ الخَدَّين ، له نَجرٌ يَكْظم عليه(٩) وسُنّة تهدي إليه . ألا فايدلُفْ هوَ وَولدُه ،

---

(١) أقحلت الضرع : أيبسته .

(٢) التهويم : هز الرأس من النعاس ، والمقصود هنا : الاستغراق . في النوم .

(٣) صحل : فيه بحة .

(٤) النجوم : الظهور .

(٥) حي هلا : أسرعوا .

(٦) الوسيط : النسيب .

(٧) أوطف الأهداب : غزيرها .

(٨) العرنين : الأنف . وأشم العرنين ، كناية عن الرفعة .

(٩) المراد : لا يظهره .

وليدْلُف معهُ من كلّ بطنٍ رجلٌ ، فلْيَشُنُّوا (١) من الماء ، وليمَسُّوا من الطِّيب ثُمَّ ليَسْتامُوا الرُّكْنَ ، وليَرْقَوا أبا قُبَيسْ (٢) ، وليدعُ الرجل ، وليُؤَمِّن القومُ على دعائه ، فغُثْتُم ما شئتُم(٣) .

قالت : فأصبحتْ — علمَ اللهُ — مَذْعورةً قد وَلَهَ قلبي ، واقشعرَّ جلدي لما رأيتُ في منامي فقصصتُ رُؤْيايَ ، ونَمَتْ في شعاب مكّةَ ، فوالحُرْمةِ والحَرَم ، ما بَقِيَ أبْطَحيٌّ إلا قالَ : هذا شَيْبَةُ الحَمْدِ ، هذا عبدُ المطلبِ . فتنامَت(٤) إليه رجالاتُ قريشٍ ، وهبطَ إليهِ من كل بَطْنٍ رجلٌ ، فشنُّوا ومسُّوا واستلموا ، ثم ارتقوا أبا قُبَيْسٍ ، وطفقُوا يَزِفُّونَ(٥) حواليه ، ما أن يبلغُ سعيهُمَ مَهله ، حتى إذا استووا بذروةِ الجبل قام عبد المطلب ، ومعهُ رسول اللهِ صلّى اللهُ

---

(١) شن الماء : صبه متفرقاً ، وسنه : صبه مجتمعاً .

(٢) جبل بمكة .

(٣) أتاكم الغيث : وغثتم : فعل مبني للمجهول . .

(٤) تنامت إليه : تناهت إليه .

(٥) يزفون : يسرعون الخطو مع تقارب وسكون .

عليهِ ، غلامٌ قد أيفعَ أو كربَ(١) ، فرفعَ يدهُ إلى السماء وقال :

اللهمَّ كاشفَ الكُربة ، وسادَّ الخلّة ، أنت عالمٌ(٢) غير معلّم ، مَسؤُول غير مُبتخّل هذه عُبداك(٣) وإماؤك بعَذرَاتِ(٤) حرَمكَ ، يشكون إليك سَنتَهم التي أذهبت الظّلفَ والخُفَّ(٥) ، فاسمعنَّ اللهم لنا ، وأمطرنَّ غيثاً مُغْدِقاً مَريعاً (٦) . فما رامــوا الكعبةَ(٧) حتّى تفجرتِ السماء بمائها ، وكظَّ الوادي بثجيجهِ (٨) فلَسَمعتُ شيخانَ قريش وجِلّتَها : عبد اللّهِ بنَ جُدعان ، وحَربَ بنَ أُميّةَ ، وهشامَ بنَ المغيرةِ يقولون لعبد المطلب : هَنيئاً لكَ أبَا البَطْحاء هنيئاً لك .

* * *

---

(١) كرب . أوشك .

(٢) في أسد الغابة : أنت معلم .

(٣) عداك : عبيدك .

(٤) عذرات : أفنية .

(٥) المراد : الغنم والإبل .

(٦) مريع : ترتع فيه الدواب .

(٧) رام يريم : فارق .

(٨) الثجيج : السيل .

هِنْدُ بنتُ عُتْبَةَ (١)

قالت هندُ بنتُ عُتْبَةَ لأبيها : إني امرأةٌ قد ملكتُ أمري ، فلا تزوجْني رجلاً حتى تعرضَه عليّ . فقال : لكِ ذاك . وقال لها ذاتَ يومٍ : إنّهُ قد خطَبَكِ رجلان من قومك ، ولستُ مُسَمِّياً لكِ واحداً منهما ، حتى أصِفَه لكِ ، أمَّا الأولُ ففي الشَرَفِ الصَّميم ، والحَسَب الكريمِ ، تخالين به هوجًا من غفلتهِ ، وذلك إسْجَاحٌ(٢) من شيمته ، حَسَنُ الصَّحابة ، سريعُ الإجابة ، إن تابعته تابَعكِ ، وإن ملتِ كان معكِ ، تَقضين عليهِ في ماله ، وتَكْتَفين برأيكِ عنْ مَشُورته .

وأما الآخرُ ففي الحَسَبِ الحَسيب ، والرأي الأريب ، بَدْرُ أرُومتهِ ، وعزُّ عشيرته ، يؤدّبُ أهله ولا يُؤَدّبونه ؛ إن اتَّبعوه أسهلَ بهم ، وإن جانبُوه توعَّر عنهمْ ، شديدُ الغَيْرَة ، سريعُ الطَّيْرَة ، صَعْبُ

---

(١) هند بنت عتبة القرشية الهاشمية زوج أبي سفيان ، أسلمت يوم الفتح ، وعفا عنها الرسول . بعد تمثيلها بحمزة بعد أن قتل ، وتوفيت في خلافة عمر بن الخطاب .

(٢) الإسجاح : حسن العفو .

حجاب القبة ، إن حاجَّ فغير منزور(١) ، وإن نوزع فغيرُ مقسور ، قد بينتُ لك كليهما . .

قالت : أما الأول فسيدٌ مضياعٌ لكريمته ، مُوات لها ؛ فما عسى إنْ لم تعتص أنْ تلينَ بعد إبائها ، وتضيعَ تحتَ خبائها ؛ إن جاءته بولد أحمقتْ وإن أنجبتْ فعنْ خطأ ما أنجبتْ . اطوِ ذكرَ هذا عني لا تُسَمِّه لي .

وأما الآخرُ فبعْلُ الحُرَّة الكريمة ، إني لأخلاق هذا لوامقةٌ ، وإني له لموافقةٌ ، وإني لآخذُه بأدب البعْلِ ، معَ ازومي قُبتي وقلة تلفتي ، وإنَّ السليلَ بيني وبينهَ لحريٌّ أن يكونَ المدافعَ عن حريم عشيرته ، الذائدَ عن كتيبتها المحاميَ عن حقيقتها ، المُثبتَ لأرومتها ، غير متواكلٍ ولا زُميلٍ(٢) عندَ صعصعةِ(٣) الحروب .

---

(١) غير منزور : غير قليل في حجته .

(٢) الزميل : الضعيف .

(٣) صعصعة الحروب : حركتها أو اضطرابها .

قال : ذلك أبو سفيان بنُ حَرْب . قالت : فزوّجْه ولا تُلْقني إليه إلقاءَ الشّكس ولا تسُمْه سَوْمَ الضَّرِس(١) ، ثم استخرِ اللّه عزّ وجلّ في السماء يَخرْ لكَ في القضاء . فزوجها أبا سفيان . وكان الآخرُ سُهيل بنُ عمرو(٢) .

* * *

رُؤْيَا عاتِكَةَ بنتِ عبدِ المُطّلِب (٣)

كانت عاتكَةُ بنتُ عبد المطلب عَمَّةُ رسولِ الله صلى الله عليه ، ساكنةً بمكَةَ مع أخيها العباس بنِ عبد المطلب ، فرأت رؤيا قبلَ يومِ بَدْرٍ ، وقبل قُدومِ ضَمْضَمٍ عليهم ، ففزعتْ منهَا ، فأرسلت إلى أخيها العبّاسِ بن عبد المطلب من ليلتها ، فجاءها فقالت :

---

(١) الضرس : السيء الخلق .

(٢) سهيل بن عمرو القرشي أحد أشراف قريش ، وهو الذي منع قريشاً عن الارتداد بعد وفاة الرسول ، خرج إلى الشام مجاهداً واستشهد سنة ١٤هـ .

(٣) عاتكة بنت عبد المطلب ، اختلف في إسلامها ، فقال بعض العلماء : لم يسلم من عمات النبي غير صفية .

رأيتُ الليلة رؤيا قد أشفقتُ منها ، وخشيتُ على قومك الهَلَكَةَ . قال : وماذا رأيتِ ؟ قالت : لن أحدِّثك حتى تعاهدَني ألا تذكرَها لقومك ، فإنهم إنْ سمعوها آذَوْنا وأسمعُونا مالا نُحبُّ . فعاهدها العباسُ فقالت :

رأيتُ راكباً أقبل على راحلةٍ من أعلى مكة يصيح بأعلى صوته : ياآلَ غُدَرَ(١) ، اخرجوا في ليلتين أو ثلاثٍ ، ثم أقبلَ يصيحُ حتى دخلَ المسجدَ على راحلَته فصاح ثلاثَ صيْحاتٍ ، ومالَ عليه الرجالُ والنساءُ والصبيانُ ، وفزعَ الناسُ له أشدَّ الفزعِ . قالت : ثم أراه مَثَلَ على ظَهْرِ الكعبةِ على راحلته فصاحَ ثلاثَ صيحات فقال : ياآل غُدَرَ ، ياآل فُجَرَ(٢) اخرجوا في ليلتين أو ثلاث . ثم أراه مَثَلَ على أبي قُبَيْسٍ كذلك يقول ياآل غُدَرَ وياآل فُجَر حتى أسمعَ مَنْ بين الأخْشبَين(٣) من أهل مكة ، ثم عَمَدَ لصخرةٍ عظيمة فنزَعها من أصلها ثم أرسلهَا على أهل

---

(١) غدر : معدول عن غادر .

(٢) فجر : معدول عن فاجر .

(٣) الأخشبان : جبلان يضافان تارة لمكة وتارة لمنى .

مكة ، فأقبلتْ الصخرةُ لها حسٌ شديدٌ ، حتى إذا كانت عند أصْلِ الجبلِ ارفَضَّتْ ، فلا أعلمُ بمكةَ بيتاً ولا داراً إلاّ وقد دخلتْها فلقةٌ من تلك الصخرةِ ، فقد خشيتُ على قومك .

ففزعَ من رؤياها العباسُ ثم خرجَ من عندِها ، فلقيَ الوليدَ بنَ عُقْبَة بنِ ربيعةَ من آخرِ تلكَ الليلةِ ، وكان خليلاً للعباس ، فقصَّ عليه رُؤيا عاتكةَ وأمرَهُ ألا يذكرَها لأحد ، فذكرها لأبيه عُتبةَ ، وذكرها عتبةُ لأخيه شيبةَ ، فارتفعَ الحديثُ حتى بلغَ أبَا جهلٍ واستفاضَ في أهلِ مكة .

* * *

فاطمَةُ بنتُ عبدِ المَلِكِ بنِ مَرْوان

روي عن عطاء ، قال : قلت لفاطمةَ بنتِ عبد الملك : أخبريني عن عُمَرَ بن عبد العزيز . قالت : أفعل ، ولو كان حياً مافعلت . إن عمرَ — رحمه الله — كان قد فرَّغ للمسلمين نفسَه ، ولأمورهم ذهنه ، فكان إذا أمسَى مساءً لم يَفْرُغْ فيه من حوائج الناس في يومه دعا

بسراجه الذي كان يُسرَجُ له من ماله ثم صلى رَكْعَتَين ، ثم أقْعَى واضعاً رأسه على يديه ، تسيلُ دموعُه على خدَّيه يَشْهَقُ الشَّهقةَ تكادُ ينصدعُ لها قلبهُ ، أو تخرجُ لها نَفْسه ، حتى يرى الصُّبْحَ .

وأصبحَ صائماً فدنوتُ منه فقلت : ياأميرَ المؤمنين ، ألشيء كان منك ماكانَ ؟ قال : أجلْ ، فعليكِ بشأنكِ ، وخلِّيني وشأني . فقلت : إني أرجُو أنْ أتّعظَ . قال : إذاً أخبرُك ، إني نظرتُ قد وجدتُني وليتُ أمرَ هذه الأمةِ أحمرِها وأسودِها ، ثم ذكرتُ الفقيرَ الجائعَ ، والغريبَ الضَّائعَ ، والأسيرَ المقهورَ ، وذا المال القليلِ والعيالِ الكثيرِ ، وأشياءَمن ذلك في أقاصي البلاد ، وأطرافِ الأرضِ ، فعلمتُ أن الله عزَّ وجلَّ سائلِي عنهم ، وأنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم حَجيجِي(١) ، لايقبلُ الله مني فيهم مَعْذِرَةً ، ولايقومُ لي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حُجة ، فرحمتُ واللهِ يافاطمةُ

(١) حجيج المرء : من يحاجه ويجادله .

نفسي رحمةً دمعتْ لها عيني، ووَجِعَ لها قلبي ، فأنا كلَّما ازددتُ ذِكرا ازددتُ خوفاً فأيقظي أودَعي .

* * *

أمُّ سَلَمَةَ أمُّ المؤمنين

في حديث أم سلمة أنّها أتت عائشةَ لما أرادت الخروجَ إلى البصرةِ فقالت لها :

إنك سُدّةُ بينَ رسولِ الله صلى الله عليه وأمّته ، وحِجَابُكِ مضروبٌ على حُرمته ، وقدجَمعَ القرآنُ ذَيْلَك فلا تَنْدَحيه (١) وسكّن عُقَيْراكِ فلا تُصْحريها. اللهمن وارء هذه الأمّة ، لو أرادَ رسولُ لله صلى الله عليه أن يَعهدَ إليكِ عَهْدا . عُلْتِ عُلتِ (٢) بلْ قد نَهاك رسولُ اللهصلى الله عليه وسلم عن الفُرْطة(٣) في البلادِ ، إنّ عمودَ الإسلام لايُثابُ (٤) بالنساء إنْ مال

(١) لا تندحيه : لا توسعيه بالحركة والخروج . وعقيراك :من عقر الدار .

(٢) علت : من العول ، وهو الميل .

(٣) الفرطة : من الفرط وهو السبق والتقدم .

(٤) لإيثاب : لا يصلح ، من ثاب الرجل . إذا صلح بدنه .

ولايُرْأب(١) بهن أن صُدع ، حُمَادَياتُ النساء غض الأطرافِ ، وخَفَرُ الأعراضِ ، وقصَرُ الوَهَازة(٢) .

* * *

مُلْتَقَطَاتٌ من كَلامِهِنَّ

قالت هندُ بنتُ عتبةَ وقد عُزِّيتْ عن يزيدَ بنِ أبي سفيانَ(٣) لما مات فقيل لها : إنا لنرجو أن يكون في معاويةَ خلفاً منه . قالت : أوَمثلُ معاويةَ يكون خلفا من أحد ؟ والله لو جُمعت العربُ من أقطارها ثم رُمي به فيها لخرجَ من أيِّها شاء .

قالت خالدةُ بنتُ هاشمِ بنِ عبد مَنَاف لأخٍ لها — وقد سمعَتْه تَجَهّم صديقاً له : أيْ أُخَيَّ ، لاتطلع من الكلام إلا ما قد رَوّأتَ(٤) فيه قبل ذلك ،ومزجته بالحلْم ،

(١) يرأب : يصلح .

(٢) الوهازة : مشية الخفرات .

(٣) يزيد بن أبي سفيان صحابى ، أسلم يوم الفتح ، وشهد غزوة حنين ، وهو أحد القادة الذين وجههم أبو بكر إلى الشام ، وولي فلسطين لعمر ، وتوفي سنة ١٨هـ .

(٤) روأ في الشيء : نظر إليه وعرف عاقبته .

وداويته بالرِّفْقِ ، فإن ذلك أشبهُ بك . فسمعها أبوها هاشمٌ فقامَ إليها فاعتنقها وقبّلها وقال : واهاً لك ياقُبَّةَ الدّيباجِ فلُقّبت بذلك .

قالت عائشةُ للنبي عليه السلام وقد دخل عليها : أينَ كنتَ يارسولَ الله ؟ قال : « كنتُ عندَ أمِّ سلمة . » قالت : أما تشبعُ ؟ فتبَسَّم . وقالت : يارسولَ الله ، لو مررتَ بعُدْوَتَين (١) إحداهما عافيَةٌ لم يَرْعَها أحد ، وأخرى قد رعاها الناسُ ، أيَّها كنتَ تنزلُ ؟ قال : « بالعافيةِ التي لم يرعَها الناسُ » قالت : فلستُ كأحدٍ من نسائك .

رُوِيَ أن عمرَ نَهى أبا سفيانَ عن رشِّ بابِ منزله لئلا يمرَّ به الحاجُّ فيزلقون فيه . فلم ينته . ومرّ عمر فزَلِقَ ببابه فعلاه بالدّرة وقال : ألم آمركَ ألا تفعلَ هذا . فوضعَ أبو سفيانَ سبّابته على فيه . فقال عمرُ : الحمدُ لله الذي أراني أبا سفيانَ ببَطحاء مكةَ أضربُه فلا ينتصرُ ، وآمُره فيأتمرُ . فسمعته هندُ بنتُ عتبة فقالت : إحْمَدْه ياعمرُ فإنك إن تَحْمَدْهُ فقد أراك عظيماً .

* * *

(١) العدوة : شاطىء الوادي أو جانبه .

الباب الثاني

نكت من كلام النساء

ومستحسن جواباتهن وألفاظهن

مرّت امرأةٌ جميلةٌ على مسجدِ بنِي نُمَيْرٍ بالبصرةِ وعليهِ جماعةٌ منهم فقال بعضُهم : ما أكبرَ عَجيزَتَها ، وقالَ آخرُ : إنها مَلْفُوفَةٌ . وقال آخرُ : أنا أجيئكم بخبرها . فتبعَها وضربَ يدَه على عجيزتِها . قال : فالتفتت إليهِ وقالتْ : ((الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِين)) (١) ثم انصرفتْ إلى بني نُمير فقالت : يا بني نُمَير ، واللهِ ما حفظتُم في قول اللهِ جلّ وعزّ ، ولا قولَ الشاعرِ ، قال اللهُ تبارك وتعالى : ((قُلْ لِلْمُؤْمِنِين يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ))(٢) وقال الشاعر :

---

(١) سورة البقرة : ١٤٧ .

(٢) سورة النور : ٣٠

فَغُضَّ الطَّرْفَ إنكَ مِنْ نُمير
فلا كَعْباً بلغتَ ولا كِلابا (١)

قالت امرأةٌ من نُميرٍ وحضرتها الوفاةُ ، وأهلُها مجتمعون : من الذي يقول :

لَعَمْرُكَ ما رماحُ بني نُميرٍ
بطائشةِ الصُّدورِ ولا قِصار (٢)

قالوا : زياد الأعجم (٣) . قالت : فإني أشهدُكم أن له الثُلْثَ من مالي . وكان كثيراً .

وقالت امرأةٌ لزوجها : إن أكْلَكَ لاقْتِفافُ ، (٤) ، وإن شُرْبَكَ لاشتفافْ ، وإن ضَجْعَتَكَ لالْتفافْ ، تنامُ ليلةَ تخافُ ، وتشبعُ ليلةَ تُضافُ .

---

(١) البيت لجرير . البيان والتبيين : ٢٤٣/٢ ، وذكر الجاحظ بعدها : وأخلق بهذا الحديث أن يكون مولداً .

(٢) مختار الأغاني : ١٣٧/٣

(٣) زياد بن سليمان ، لقب بالأعجم لغلبة العجمة على لسانه ، شاعر جزل اللفظ ، ولد ونشأ بأصفهان ، وأقام بخراسان إلى أن مات .

(٤) الاقتفاف : الاتيان على جميع الطعام شرها .

طلَّق أعرابي امرأتَه فقالت له : جَزاكَ اللهُ خيراً ؛ لقد كنتَ كثيرَ المَرَقِ طيِّبَ العَرَقِ ، قليلَ الأَرَق ، قال : وأنتِ فجزاكِ الله خيراً ؛ لقد كنتِ للذيلةَ المُعْتَنَقِ ، عند الكَرَى والأرَق ، ولكنّ ما قَضَى اللهُ قد سبق .

تزوّجَ أعرابي امرأةً أشرفَ منه حَسَباً ونَسَباً فقال : يا هذهِ : إنك مهزولةٌ . فقالت : هُزالي أوجلني بيتاك .

قالت أعرابيةٌ وقد دُفع إليها عِلْكٌ لتمضغَه : ما فيه إلا تعبُ الأَضراسِ وخيبةُ الحَنْجَرة .

نظر رجلٌ إلى امرأتين يتلاعَبان فقال : مُرًّا لعنكُما اللهُ فإنّكنَّ صَواحباتُ يُوسفَ . فقالت إحداهما : يا عَمِّي فمن رَمَى به في الجُبِّ . نحنُ أو أنتم ؟

ومرّت جاريةٌ بقوم ومعها طَبَقٌ مغطّى فقال بعضهم : أيُّ شيء معك على الطبق ؟ قالت : فلِمَ غطّيناه ؟ .

قال الجاحظ : ومن الأَسْجَاعِ الحسَنَةِ قولُ الأعرابيةِ حين خاصمتِ ابنها إلى عاملِ الماء : أما كان

بطني لك وعاءٌ ؟ أما كان حِجْري لك فناء ؟ أما كان ثديي لك سقاء .

وقالت امرأة : أصبحنا ما يرقد لنا فرسٌ ، ولا ينام لنا حرسٌ .

مرّ رجل بامرأة من غاضرةَ ، وإذا ابنٌ لها مُسَجّى بين يديها ، وهي تقول : يرحمك الله يا بنيّ . فوالله ما كانَ مالُك لبطنك ، ولا أمرُك لعرسك ، ولا كنتَ إلا ليّنَ العَطْفة . يُرضيكَ أقلُّ مما يُسْخِطُكَ . قال : فقلت لها : يا أمَّهْ ، ألكِ منه خلَفٌ ؟ قالت : بلى ما هو خيرٌ منه . ثوابُ الله والصبرُ على المصيبة .

ولما قُتِل الفضلُ بنُ سهل (١) دخل المأمونُ إلى أمّه يعزّيها فيه . وقال : يا أمَّهْ ؛ لا تحزني على الفضل ؛ فإني خلفٌ لك منه . فقالت له : وكيفَ لا أحزنُ على ولدٍ عوّضني خلفاً مثلكَ ؟ فتعجَّبَ المأمونُ من جوابها. وكانَ يقول : ما سمعتُ جواباً قطُّ كان أحسنَ منه ولا أخلبَ للقلب .

---

(١) الفضل بن سهل ذو الرياستين وزير للمأمون كان عادلا حكيما . توفي سنة ٢٠٢ هـ

حُكي أنَّ عجوزاً من الأعرابِ جلست في طريق مكّةَ إلى فتيانٍ من قُرَيشٍ يشربون نبيذاً لهم ، فسقوها قَدَحاً فطابت نفسها وتبسَّمتْ ثم سقَوها قدحاً آخرَ ، فاحمرَّ وجهُها وضحكتْ فسقوها قدحاً ثالثاً ، فقالت : أخبروني عن نسائكم بالعراق ، أيَشْرَبْنَ من هذا الشرابِ : قالوا : نعم . قالت : زَنَيْنَ وربِّ الكعبةِ .

سُئلت أعرابيةٌ فقيل لها : أتعرفينَ النُّجومَ ؟ قالت : سبحان الله أمَا أعرفُ أشياخاً وقوفاً عليَّ كلَّ ليلة ؟

قيلَ لامرأةٍ أُصيبتْ بولدها : كيفَ أنت والجزَع ؟ . قالت : لو رأيتُ فيهِ دَرَكاً ما اخترتُ عليه ، ولو دامَ لي لدُمْتُ له .

خَطَبَ رجلٌ ابنةَ عمٍّ له فأخبرَها أبوها بذلك فقالت : يا أَبَهْ ، سَلْهُ مالي عنده ؟ فسأله فقال : ألطفُ برَّها ، وأحملُ ذكرها ، وأعصي أمرها . فقالت : زوّجنيه .

لمّا أُهديتِ ابنةُ عبدِ الله بنِ جعفرَ إلى الحجّاجِ نظر إليها في تلك الليلةِ وعَبْرَتُها تجولُ في خدِّها ،

فقال مم بأبي أنت ؟ . قالت : من شَرَفٍ اتَّضَعَ ، ومن ضَعَةٍ شرُفت .

ولما كتب عبدُ الملك إلى الحجاج بطلاقها قال لها : إنَّ أميرَ المؤمنينَ أمرني بطلاقكِ قالت : هو أبرُّ بي ممَّنْ زوَّجَنيك .

حَكَمَ بلالُ بنُ أبي بُردةَ (١) بالتفريق بين رجل وامرأته . فقالت له المرأةُ : يا بنَ أبي موسى إنما بُعِثْتُم بالتَّفريقِ بينَ المسلمين .

نزلَ رجلٌ بامرأة من العرب فقال لها : هل من لبنٍ أو طعام يُباع ؟ فقالت : إنكَ للئيمٌ أو حديثُ عهد باللِّئام . فاستحسن ذلكَ منها وخطبَها فتزوجها .

حدَّث بعضهم قال : خرجتُ إلى ناحيةِ الطُّفاوَة(٢) فإذا أنا بامرأةٍ لم أر أجملَ منهَا . فقلت : أيتها المرأةُ ، إن كان لكِ زوجٌ فبارَكَ اللهُ له فيكِ ، وإلاَّ فأعلميني .

---

(١) بلال بن أبي بردة يتصل نسبه بأبي موسى الأشعري ، ولاه خالد القسري قضاء البصرة .

(٢) الطفاوة : حي من قيس بن عيلان .

قال : فقالت : وماتصنعُ بي وفيّ شيءٌ لاأراكَ ترتضيه . قلت : وماهو ؟ قالت : شيبٌ في رأسي . قال : فثنيتُ عنانَ دابّتي راجعاً . فصاحتْ بي : على رِسْلِكَ أُخبرك بشيء . فوقفتُ وقلتُ : ماهو يرحمك الله ؟ فقالت : والله مابلغتُ العشرين بعدُ ، وهذا رأسي — فكشفت عن عناقيدَ كالحُمَم — ومارأيتُ في رأسي بياضاً قطّ ، ولكن أحببتُ أن تعلم أنا نكرهُ مثلَ مايُكْرَه منّا . وأنشدت :

أرَى شَيْبَ الرّجالِ من الغواني
بموضع شيبهنَّ مـن الرّجـال

قال : فرجعتُ خجلاً كاسفَ البال .

وصفت امرأة نساءً فقالت : كنَّ صُدُوعاً في صفاً ليسَ لعاجز فيهنّ حظٌ .

قيل لابنة الخُس(١) : من تريدين أن تتزوّجي ؟ فقالت : لاأريدُهُ أخا فلان ولاابنَ عمّ فلان ، ولاالظّريفَ

---

(١) هي هند بنت الخس ، لها أخبار مروية في كتب الأدب .

ولاالمتطرّفَ ، ولاالسّمينَ الألحمَ ولكني أريدُه كسوباً إذا غدا ، ضَحُوكا إذا أتى .

وقيل لها : مَنْ أعظمُ الناس في عينك ؟ قالت : مَنْ كانت لي إليه حاجةٌ .

قيلَ لأعرابيةٍ قد حملت شاةً تبيعُها : بكَمْ ؟ قالت : بكذا . قيل لها : أحْسِني . فتركت الشاةَ ومرَّت لتنصرفَ . فقيل لها : ماهذا ؟ قالت : لم تقولوا : أنقصي ، وإنّما قلتم : أحسني . والإحسان تركُ الكلِّ .

قالت قريبةُ الأعرابية : إذا كنتَ في غير قوملكَ فلا تنسَ نصيبكَ من الذّل .

قيل لأعرابيةٍ : ماأطيبُ الروائِح ؟ قالت : بَدَنٌ تُحبّه ، وولَد تُرَبّه .

سأل رجلٌ الخيزُرانَ(١) حاجة ، وأهدى إليها هديّة فردّتْها وكتبت إليه : إن كان الذي وجّهتَه ثمنا لرأي فيك فقد بخستَني في القيمة ، وإن كان استزادةَ فقد استغشَشْتَني في النصيحة .

---

(١) الخيزران : أم هارون الرشيد .

قتل قتيبةُ(١) أبا امرأةٍ وأخاها وزوجَها ثم قال لها : أتعرفين أعدى لك منّي ؟ قالت : نعم : نفسي طالبتني بالغداء بعد مَن قتلتَ لي .

تقدّمت امرأة إلى قاضٍ فقال لها القاضي : جاءَ معك شهودُك كلُّهم ؟ فسكتتْ فقال كاتبه : إن القاضي يقول : جاءَ شهودُك معك ؟ قالت : نعمْ . ثم قالت للقاضي : ألا قلتَ كما قال كاتبُك . كبر سنُّك ، وذهبَ عقلُك . وعظمتْ لحيتُك فغطَّت على عقلك ، وما رأيتُ ميتاً يحكم بين الأحياءِ غيرَك .

قالت أعرابيةٌ لزوجها ، ورأته مَهْمُوما : إن كان همُّك بالدُّنيا فقد فرَّغ اللهُ منها ، وإن كان للآخرة فزادكَ الله همّا بها .

قال الأصمعيّ : سمعتُ أعرابية تقول : إلهي ، ماأضيقَ الطريقَ على من لم تكن دليلَه ، وأوحشَه على من لم تكن أنيسَه !

قالت عائشةُ للخنساء : إلى كمْ تبكينَ على صخرٍ ،

---

(١) قائد أمير ولي خراسان .

وإنّما هو جَمْرةٌ في النار ؟ قالت : ذاكَ أشدُّ لجزعي عليه. .

جاءت امرأةٌ إلى عَدِيّ بن أرْطَأة(١) تستعديه على زوجها ، وتشكو أنَّه عنينٌ لا يأتيها ، فقال عدي : إنّي لأستحيي للمرأةِ أن تستعدي على زوجها من مثل هذا، فقالتْ : ولم لاأرغبُ فيما رغبتْ فيه أمُّك فلعلَّ اللهَ أنْ يرزقَني ابنا مثلك .

وقالت أعرابيةٌ لرجلٍ : مالك تُعطي ولاتَعِدُ ؟ فقال لها : مالك وللوعد ؟ قالت : ينفسحُ به الصَّبْرُ ، وينتَشِر فيه الأمل ، وتطيبُ بذِكره النَّفْسُ ، ويُرْجى به العيشُ ، وتَربحُ أنت به المرح بالوفاء .

قيل لامرأة : صِفي لنا الناقَة النجيبة ، قالتْ : كالعقربِ إذا هَوَتْ ، وكالحيةِ إذا التوتْ ، تطوي الفلاةَ ومالنطَوتْ .

خطب أعرابي امرأةً وكان قصيراً فاحش القِصر ، عظيم الأنف جداً فكرهَتْهُ فقال : ياهذه ، قد عَرَفْتِ

---

(١) عدي بن أرطأة الفزاري ، ولي البصرة لعمر بن عبد العزيز .

شَرَفي وأنا مع ذلك كريمُ المعاشرة ، محتمِلٌ المكروهَ .
فقالت : صَدَقْتَ مع حَمْلِكَ هذا الأنفَ أربعينَ سَنة .

استعمل المنصورُ رجلاً على خراسانَ فأتته امرأةُ في حاجة فلم تَرَ عنده غَنَاءً ، فقالت : أتدري لم ولاَّك أميرُ المؤمنين ؟ قال : لا : قالت : لينظرَ هل يستقيمُ أمرُ خراسان بلا والٍ .

قال بعضهم : خَطَبْتُ امرأة فأجابتْ ، فقلت : إني سيء الخُلق : فقالت : أسوأ خُلقا منكَ من يُلجئُك إلى سوءِ الخُلُقِ .

قيل : إنّ الحسن رضي الله عنه طلَّقَ امرأتينِ قرشيةً وجُعفيّة وبعث إلى كلّ واحدة منهمَا عشرينَ ألفاً . وقال للرسول : احفظ ماتقولُ كلٌّ واحدة منهمَا فقالت القرشيةُ : جزاهُ الله خيرًا . وقالت الجعُفيّة : متاع قليلٌ من حبيب مفارق . فراجعَها وطلَّق الأخرى .

وكانت عند الحسن بن الحُسينِ امرأة فضَجِرَ يوماً وقال : أمْرُكِ في يدكِ . فقالت : أما واللهِ لقد كانَ في يدكَ عشرين سنة فحفظتَه ، أفأضيّعُه في ساعة

صارَ في يدي . قد رددتُ إليك حقّك . فأعجبه قولها وأحسن صحبتها .

قالت الخيزران : قبح اللهُ الخدَمَ ليس لهمْ حزمُ الرّجالِ ولا رِقّةُ النساء .

كتب المأمونُ إلى شكْلةَ(١) أمِّ إبراهيمَ بنِ المهديّ(٢) يتوعّدُها فأجابته : أنا يا أميرَ المؤمنين أمٌّ من أمهاتِك ، فإن كان ابني عصَى اللهَ فيك فلا تعْصِهُ فيَّ ، والسّلام .

عُرضت عنَانُ ، جاريةُ الناطفيّ على الرشيد وهو يتبخّر ، فقال لها : أتحبّين أن أشتريك ؟ فقالت : ولِمَ لا يا أحسنَ الناسِ خلْقا وخُلُقاً ؟ فقال : أمّا الخلق فقد رأيته ، فالخُلُق أنّى عرَفْتِه ؟ قالت : رأيتُ شرارةً طاحتْ من المِجْمرة فلمعتْ في خدّك فما قطّبتْ لها ولا عاتبْت أحداً .

---

(١) شكلة أم إبراهيم بن المهدي ، سبيت ، وحملت إلى المنصور فوهبها لأم ولده ، أخذها المهدي فولدت له إبراهيم .

(٢) إبراهيم بن المهدي أديب شاعر له صنعة في الغناء ، ولي الخلافة بعد قتل الأمين ، ولما جاء المأمون استتر ثم استعطفه فعفا عنه .

كان معاويةُ يمشي مع أمّه فعَثَرَ ، فقالت له : قمْ لا رَفَعكَ اللّه — وأعرابيٌّ ينظر إليه — فقال : لم تقولينَ له هذا ؟ فواللّه إنّي لأظنُّه سيسودُ قومَه . فقالت . لا رفعَه اللّه إن لم يسُد إلاّ قومَه .

قال محمّدُ بنُ عبدِ اللّه بنِ عمرو بنِ عثمانَ : جَمَعتنا أمُّنا فاطمةُ بنتُ الحُسينِ عليه السلام فقالت : يا بَنيَّ إنّه واللّه ما نال أحدٌ من أهل السَّفَه بسفههم شيئاً ، ولا أدركوهُ من لذّاتهم إلاّ وقد نَاله أهلُ المروءات بمروءاتِهم . فاستتِروا بِستْرِ اللّه .

لما قَصَدَ المعتضدُ(١) بني شيبانَ اصطفَى منهم عجوزاً سريعة الجوابِ فصيحةً ، فكان يُغري بينها وبين الجُلساءِ . فجاءت يوماً فقعدت بلا إذْنٍ فقال لها خَفيفٌ السّمرقنديّ الحاجبُ : أتجلسينَ بين يديْ أمير المؤمنين ، ولم يأذنْ لكِ ؟ فقالت : أنت جارُ ذلك وحاجبه ، كان يجبُ أن تعرّفني ما أعملُ قبل دخولي إذْ لم تكُنْ

(١) هو أحمد بن الموفق ، الخليفة العباسي ، تولى الخلافة سنة ٢٧٩هـ وتوفي سنة ٢٨٩هـ ، وكان شجاعاً فاضلا .

لي عادةٌ بمثله . ثم قامت . فتغافل المعتضد عنها فقالت : يا سيداهُ ، أقيامٌ إلى الأبد ، فمتى ينقضي الأمد ؟ فضحك وأمرها بالجلوس . .

قالت هند بنت عُتبةَ لأبي سفيانَ بنِ حَرْبٍ لما رجع مُسلماً من عند رسول اللّه صلى اللّه عليه إلى مكة في ليلة الفتح فصاحَ : يا معشرَ قريشٍ ، ألا إنّي قد أسْلَمْتُ ، فأسلموا ، فإن مُحَمَّداً قد أتاكم بما لا قِبَلَ لكم به . فأخذت هند رأسه وقالت : بئسَ طليعة القوم . واللّهِ ما خَدَشْتَ خَدْشاً . يا أهلَ مكة . عليكم الحَميتَ(١) الدسم فاقتلوه .

وقالت هندٌ : إنّما النساءُ أغلالٌ ، فليختر الرجلُ غلاً ليَدِهِ .

وذكرت هندُ بنتُ المهلّبِ النساءَ فقالت : مازُيِّنَّ بشيء كأدبٍ بارعٍ تحته لُبٌّ ظاهرٌ .

وقالت أيضاً : إذا رأيتم النّعم مستدرةً فبادروا بالشُّكر قبلَ حلولِ الزّوالِ .

---

(١) الحميت : الزق . شبهته به إعظاماً لما قال .

قدمت ليلى الأخيليّةُ على الحجاجِ ومدحتْه . فقال : يا غلامُ ؛ أَعْطِها خمسمئة ، فقالت : أيها الأمير ، اجعلها أُدْماً(١) . فقال قائلٌ : إنما أمَر لكِ بشاءٍ قالت : الأميرُ أكرمُ من ذاك . فجعَلها إبلاً إناثاً ، استحياءً . وإنما كان أمرَ لها بشاءٍ أولاً .

كانت آمنةُ بنتُ سعيدِ بنِ العاصِ عند الوليد بنِ عبدِ الملك ، فلما مات عبد الملكُ سعتْ بها إحدى صرّاتِها إلى الوليد . وقالت : لمْ تبكِ على عبد الملك كما بكَتْ نظائرُها . فقال لها الوليدُ في ذلك : فقالتْ : صدَقَ القائلُ لكَ . أكنتُ قائلةً : يا ليته بقيَ حتّى يقتلَ أخا لي آخرَ كعمرو بنِ سعيدٍ .

كانت ابنةُ هانىء بنِ قَبيصةَ عند لَقيطِ بنِ زُرارةَ ، فقُتِل عنها وتزوّجها رجلٌ من أهلها ، فكان لا يزال يَرَاها تذكرُ لقيطاً . فقال لها ذات مرَّةٍ : ما استحسنتِ من لقيط ؟ فقالت : كلُّ أموره كانتْ حَسَنَةً . ولكنّي أحدِّثُك إنّه خرجَ مرّة إلى الصَّيْدِ وقد انتشى ، فرجع

(١) الأدم . البيض من الجمال ، وهي مما تمدح .

إليّ وبقميصه نَضْحٌ من دَمِ صيده والمِسْكُ يضوعُ من أعطافه ، ورائحةُ الشَرابِ من فيه . فضمني ضمةً وشمّني شمةً ، فليتني كنتُ مِتُّ ثَمَّةَ . قال : ففعل زوجُها مثل ذلك ثم ضمّها إليه وقال : أين أنا من لَقِيط ؟ فقالت : ماءٌ ولا كصَدّاء ، ومرعى ولا كالسعدانِ .

قالوا : كان ذو الإصبع العدواني(١) غَيُوراً ، وكان له بناتٌ أربع لا يزوّجهنّ غَيْرَةً ، فاستمع عليهنّ مرّة وقد خَلَوْنَ يتحدّثْنَ . فذكرنَ الأزواجَ حتّى قالت ، الصُغرى منهنّ : زَوْجٌ من عُود خيرٌ من قُعود . فخُطِبن فزوّجهنّ .

ثم أمهلهنَ حَوْلا ، ثم زارَ الكبرى فقال لها : كيف رأيتِ زوجَكِ ؟ قالت : خيرُ زوجٍ يُكرم أهلَه ، وينسى فضلَه . قالَ : حَظِيتِ ورضيتِ . فما مالُكُمْ ؟ قالت : خيرُ مالٍ . قال : وما هو ؟ قالت : الإبلُ ، نأكل لحمانها مِزَعاً ، ونشرب ألبانها جُرَعاً ، وتحملنا وضعفتنا معاً . فقال : زوجٌ كريمٌ ومالٌ عَمِيمٌ .

---

(١) ذو الإصبع العدواني . حرثان بن عمرو ، شاعر فارس من شعراء الجاهلية .

ثم زار الثانية فقال : كيف رأيتِ زَوْجَك ؟ قالت : يكرمُ الحَليلةَ ويقرِّب الوسيلة(١) ، قال : فما مالُكُم ؟ قالت : البَقَرُ قال : وما هي ؟ قالت : تألفُ الفِناءَ ، وتملأ الإناءَ ، وتودِكُ السقاءَ(٢) ، ونِساءٌ مع نساء . قال : رضيتِ وحظيتِ .

ثم زار الثالثة فقال : كيفَ رأيت زوجك ؟ فقالت : لا سَمْحٌ بَذِرٌ ، ولا بخيلٌ حَكِرٌ(٣) . قال : فما لكم ؟ قالت : المِعْزَى . قال : وما هي ؟ قالت : لو كنّا نولدُها فُطْماً ، ونسلخها أدماً . لم نَبغِ بها نَعَماً . فقال : جذوة مُغنية(٤) .

ثم زار الرابعةَ فقال : كيفَ رأيتِ زوجَكِ ؟ فقالت : شَرُّ زوجٍ ، يُكْرِمُ نفسَه ، ويُهين عِرسَهُ . قال : فما مالكم ؟ قالت : شرُّ مالٍ ، الضأنُ . قال : وما هي ؟ قالت : جُوفٌ يشبَعنَ ، وهِيمٌ لا يَنْقَعْنَ ،

---

(١) الوسيلة : الحاجة .

(٢) تودك : من الودك ، وهو الدسم .

(٣) الحكر : السيء العشرة .

(٤) جذوة : قطعة .

وضمٌ لا يسمعنَ ، وأمرَ مخو يتهين يتمعنَ (١) . فقال : أتشمَه امرأً بعضُ بزّه(٢) . فارسلها مثلاً

قال الأصمعي : قيل لامرأة : علامَ تمنعينَ زوجك القضّة (٣) ؟ فإنه يعتَل بك . فقالت : كذبَ والله ، إني لأُطاطيءُ الوسادَ وأُرْخي اللبادَ (٤) .

قال بعضهم : سمعتُ أعرابيةً بالحجاز ترقي رجلا من العين فقالت :

أُعيذكَ بكلماتِ الله التامَّة ، التي لا تجوزُ عليها هامّةٌ (٥) ، من شرّ الجنّ وشرّ الإنس عامة ، وشرّ النظرة واللامّة(٦) . أعيذُكَ بمطلع الشمْسِ ، من شرّ ذي مشي همس ، وشرّ ذي نظرٍ خالسٍ ،

---

(١) أي إن الشاة الواحدة قد تقع فيقع وراءها باقي القطيع .

(٢) البز : الثياب .

(٣) القضة : افتراع العذراء

(٤) نوع من القباء ؛ أو هو اللبود التي تفرش كالبساط .

(٥) الهامة : الواحدة من خشاش الأرض نحو العقرب

(٦) اللامه . العين تصيب بالسوء

وشرِّ ذي قولٍ دسٍّ ، من شرِّ الحاسدينَ والحاسداتِ ، والنّافِسينَ والنّافساتِ ، والكائدين والكائداتِ .

نَشّرْتُ عنك بِنُشْرةِ نَشّار(١) ، عن رأسكِ ذي الأشعار ، وعن عَيْنيك ذَوَاتي الأشفار ، وعن فيكِ ذي المَحَار(٢) ، وظَهْرِكَ ذي الفقار ، وبَطْنِكَ ذي الأسرار ، وفَرْجِك ذي الأستار ، ويديْك ذواتي الأظفار ، ورجليك ذواتي الآثار ، وذيلك ذي الغُبار ، وعناكَ فضلاً وذا إزار ، وعن بيتك فَرْجاً وذا أستار . رَشَشْتُ بماءٍ باردٍ ناراً ، وعينين وأشفاراً ، وكان اللّهُ لكَ جاراً .

ذُكر أنَّ الجُمانة بنت المهاجرِ بنِ خالدِ بنِ الوليدِ نظرت إلى عبدِ اللّهِ بنِ الزُّبير وهو يَرْقَى المنبرَ ، يخطبُ بالنّاس في يوم جُمعةٍ فقالت حين رأته رقى المنبرَ : أيا نَقّارُ انْقُر . أما واللّهِ لو كانَ فوقَه نجيبٌ من بني أميّةَ ، أو صَقْرٌ من بني مَخْزوم لقال المنبر :

---

(١) النشرة : الرقية ، ونشر عنه : رقاه .

(٢) المحار : إما بمعنى الصدف تشبيهاً للأسنان به وإما بمعنى باطن الحنك

طيقْ طيق . قال : فأَنْمي كلامُها إلى عبد اللّه بن الزبير ، فبعث إليها فأتى بها فقال لها : ما الّذي بلغني عنْك يا لكَاع ؟ قالت : الحقّ أُبلغتَ يا أميرَ المؤمنين ، قال : فما حملك على ذلك ؟ قالت : لا تعدمُ الحسناءُ ذاماً(١) . والسَّاخطُ ليس براضٍ . ومع ذلك فما عدوتُ فيما قلتُ لكَ أنْ نسبتُك إلى التّواضعِ والدينِ ، وعدوّك إلى الخُيَلاءِ والطّمع . ولئن ذاقُوا وبالَ أمرهم لتَحْمدَنَّ عاقبةَ شانئك ، وليسَ من قال فكذب كمن حدّث وصَدَق . وأنتَ بالتَّجاوزِ جديرٌ ، ونحنُ للعفوِ أهلٌ ، فاسترْ عليَّ الحُرمةَ ، تستتِمَّ النّعمةَ ، فواللّه ما يرفَعُكَ القولُ ولا يَضَعُكَ . وإنَّ قريشاً لتعلمُ إنّك عابدُها وشجاعُها ، وسنانُها ولسانُها ، حاطَ اللّه لكَ دنياكَ ، وعَصَمَ أُخراكَ ، وأَلْهَمَكَ شكرَ ما أوْلاك .

ذكر الأصمعيُّ عن آبان بن تَغْلِب(٢) قال : خرجتُ في طلبِ الكَلأ ، فانتهيتُ إلى ماء من مياه كَلْب ؛

(١) الذام : العيب ، والقول من الأمثال .

(٢) أبان بن تغلب ، ففيه معروف وقارىء مشهور .

وإذا أعرابيٌّ على ذلك الماءِ ومعه كتابٌ منشورٌ يقرؤه عليهم ، وجعل يتوعَّدهم . فقالت له أمُّه وهي في خبائها . وكانت مُقعدةً كِبَراً : ويلَك ! دعني من أساطيرك . لا تحمِلْ عقوبتَك على من لمْ يحْمِلْ عليك ، ولا تتطاولْ على من لا يتطاولُ عليك . فإنك لا تدري ما يُقَرِّبك إليه حوادثُ الدهور ، ولعلَّ من صَيَّرَكَ إلى هذا اليوم أن يُصَيِّرَ غيركَ إلى مثله غداً ، فينتقم منك أكثرَ ممّا انتقمتَ منه ، فاكْفُفْ عمّا أسمع منك ألم تسمع إلى قول الأوّل(١) .

لا تَحْقِرنَّ الفقيرَ علّكَ أن
تَرْكَعَ يوماً والدّهرُ قد رَفَعَهْ

قال مهدي بن أبان : قلت لولادة العبدية — وكانت من أعقل النساء — إنى أريد الحَجّ فأوصيني . قالتْ : أُوجِزُ فأُبْلِغُ ، أم أطيلُ فأُحْكِمُ . فقلت : ما شئْتِ . قالت : جُدْ تَسُدْ . واصبرْ تفز . قلت : أيضا قالت : لا يتعدَّ غضبُك حِلْمَك ، ولا هواكَ عِلمَك ، وَقِ

---

(١) هو الأضبط بن قريع . شاعر جاهلي .

دينَك بدنياك ، وفِرْ عِرْضَك بعَرضك ، وتفضَّل تُخدَم ، واحلمْ تُقَدَّم .

قلت : فمن أستعين ؟ قالت : اللّه . قلت : من الناس ؟ قالت : الجَلْدَ النشيطَ ، والنّاصحَ الامينَ .

قلت : فمن أستشير ؟ قالت : المجرّبَ الكيّسَ ، أو الأديبَ الصغيرَ .

قلت : فمن أستصحب ؟ قالت : الصديقَ المسلمَ ، أو المداجيَ المتكرِّم . ثمّ قالت : يا أبتاه ؛ إنّك تفد إلى ملك الملوك ، فانظر كيفَ يكون مقامُك بين يديه .

رُوي أنّ رسول الله صلى الله عليه خرج ليلةَ هاجرَ من مكّة إلى المدينة وأبو بكر رحمه الله وعامرُ بنُ فُهَيْرَةَ (١) ودليلُهما اللّيثيُّ عبدُ الله بنُ أُرَيْقِط . فمرّوا على خيمةِ أمِّ مَعْبَدٍ الخُزاعية (٢) — وكانت امرأة بَرْزة جَلْدَةً تَحْتَبي بفناء الكعبة ، ثمّ تسقي

---

(١) عامر بن فهيرة مولى أبي بكر ، من السابقين إلى الإسلام ، شهد بدراً وأحداً ، وقتل يوم بئر معونة .

(٢) اسمها عاتكة ، وهي أخت حبيش بن خالد .

وتُطعم – فسألوها لحماً وتمراً ليشتروه منها ، فلم يصيبوا عندها شيئاً من ذلك ، وكان القوم مُرمِلين مُسنِتين(١) ، فنظر رسول الله صلّى الله عليه إلى شاةٍ في كِسْرِ الخَيْمة . فقال : ما هذه الشّاةُ يا أمّ معبد ؟ قالت : شاةٌ خلّفَها الجَهْدُ عن الغنم . قال : هل بها من لبن ؟ قالت : هي أجهدُ من ذلك . قال : أتأذَنين لي أن أحلُبها . قالت : بأبي وأمي أنتَ . نعم ، إن رأيت بها حَلْباً فاحلْبها . فدعا رسول الله صلّى الله عليه بالشاةِ فمسح ضَرْعَها ، وسمّى اللهَ ودعا لها في شاتِها ، فتفاجّتْ (٢) عليه ودرّت وأجْتَرّت (٣) ، ودعا بإناء يُرْبِض الرّهطَ (٤) فحلب فيه ثَجّاً (٥) حتّى غلبه الثُّمال (٦) ، ثم سقاها حتّى رويت ، وسقى أصحابه حتّى رووا ، ثم شرب آخرهم

---

(١) أصابتهم السنة أي الفقر .

(٢) تفاجت : بالغت في تفريج رجليها .

(٣) اجترت : أكثرت .

(٤) يربض الرهط : يرويهم ويشبعهم .

(٥) ثجا : لبنا سائلا كثيرا .

(٦) الثمال : جمع ثمالة وهي الرغوة .

وقال : ساقي القَوْم آخرُهم شُرْبا . فشربوا جميعاً عَلَلاً بعدنَهَل ، ثم أراضُوا (١) ، ثمّ حلب فيه ثانياً عَوْداً على بَدْءٍ حتّى ملأ الإناء ، ثم غادره عندها وبايعها وارتحلوا عنها .

كانت حميدةُ بنتُ النعمانِ (٢) بنِ بَشير بنِ سعد تحتَ رَوْح بن زِنْباع (٣) فنظر إليها يوما تنظرُ إلى قومه جُذام وقد اجتمعوا عنده فلامها . فقالت : وهل أرى إلا جُذاما ؟ فوالله ما أحبُّ الحلالَ منهمْ فكيف الحرام .

قالت الجُمانَةُ بنتُ قَيس بنِ زُهَيْرٍ العَبْسيّ لأبيها لمّا شرق ما بينه (٤) وبين الربيع بن زياد (٥) في الدّرع : دعْني أناظرْ جدي ، فإن صلُح الأمر بينكما ، وإلا كنتُ من وراء رأيك . فأذن لها ، فأتت الربيع فقالت : إن كان

---

(١) أراضه : صب اللبن على اللبن وروي .

(٢) شاعرة مجيدة ، كانت تهجو زوجها روح بن زنباع .

(٣) روح بن زنباع أمير فلسطين ، كان ذا رأي مقدما عند الخلفاء توفي سنة ٨٤هـ .

(٤) شرق : اختلط واضطرب .

(٥) الربيع بن زياد العبسي أحد شجعان العرب .

قَيْسٌ أبي فإنّك يا ربيعُ جَدّي ، وما يجبُ له من حقّ الأبوة عليّ إلا كالذي يجب عليكَ من حقّ البنوَّة لي . والرَّأيُ الصحيحُ تبعثُه العنايةُ ، وتُجَلّي عن مَحْضِه النصيحة . إنَّك قد ظلمتَ قيساً بأخذِ دِرْعِه ، وأجد مكافأتَه إيَّاك سوءَ غرمه ، والمُعارِضُ مُنْتَصِرٌ ، والبادِي أظلم ، وليس قيسٌ ممَّن يخوَّف بالوعيد ولا يردَعُه التهديد ، فلا تركنَنَّ إلى مُنَابَذته ، فالحزمُ في مُتَارَكتِه ، والحرب مَتْلَفَةٌ للعباد ، ذَهَّابَةٌ بالطَّارف والتّلاد ، والسّلم أرخى للبال ، وأبقى لأنفس الرّجال . وبحقٍّ أقول ، لقد صَدَعْتُ بحُكْم ، وما يدفعُ قولي إلا غيرُ ذي فهم .

دخل عبد الله بن الزّبير على أمّه أسماءَ بنتِ أبي بكر في اليوم الذي قُتل فيه ، فقال : يا أمّة ، خذلني النّاسُ حتّى أهلي وولدي ولم يبقَ معي إلا اليسيرُ ومَنْ لا دَفْعَ عنده أكثرَ من صبرِ ساعةٍ من النّهار . وقد أعطاني القومُ ما أردتُ من الدّنيا فما رأيُكِ ؟ قالت : إن كنتَ على حقٍّ تدعو إليه فامضِ عليه ، فقد قُتل عليه أصحابُك ، ولا تُمَكّنْ من رقبتِك غِلمانَ بني أميَّةَ فيتلاعبوا بك .

وإنْ قلتَ : إني كنتُ على حقٍّ فلمّا وَهَن أصحابي ضعُفَتْ نيّتي فليسَ هذا فعلَ الأحرارِ ، ولا فعلَ من فيه خير ، كم خلودُك في الدّنيا ؟ القتلُ أحسنُ ما تقعُ به يا بنَ الزّبير . والله لضربةٌ بالسيف في عزٍّ أحبُّ إليَّ من ضربةٍ بسَوْطٍ في ذلٍّ .

قال لها : هذا والله رأيي ، والّذي قمتُ به داعيا إلى الله . والله ما دعاني إلى الخُروجِ إلاّ الغضبُ لله عز وجل أن تُهْتَكَ محارمه . ولكنّي أحببتُ أن أطّلعَ رأيكِ فيزيدَني قوةً وبَصيرةً مع قوّتي وبصيرتي . والله ما تَعَمّدْتُ إتيانَ مُنْكَرٍ ولا عملاً بفاحشة ، ولم أجُرْ في حُكْمٍ ، ولم أغدرْ في أمان ، ولم يبلغني عن عمالي فرضيتْ به . بل أنكرتُ ذلك ولم يكن شيء عندي آثر من رِضَا ربّي .

اللهمّ إني لا أقول ذلك تزكية لنفسي ، ولكن أقوله تعرية لأمّي لتسلوَ عنّي . قالت له : والله إنّي لأرجو أن يكون عزائي فيك حسنا بعد أن تقدّمتني أو تقدّمتك ، فإنّ في نفسي منكَ حرَجاً حتّى أنظرَ إلى ما يصيرُ أمرُك .

ثمّ قالت : اللهمّ ارحمْ طولَ ذاكَ النّحيبِ والظمأَ في هواجرِ المدينةِ ومكّة وبرّه بأُمّه . اللّهم إنيّ قد سلّمتُ فيه لأمرك ، ورضيتُ فيه بقضائك ، فأثبْني في عبدِ الله ثوابَ الشاكرين . فودّعها وقال: يا أُمّهْ لا تدَعي الدّعاءَ لي قبلَ قتلي ولا بعدهَ . قالت : ان أدَعه لك . فمن قتل على باطلٍ فقد قُتلتَ على حق . فخرج وهو يقول :

فلستُ بمُبْتَاعِ الحياةِ بسُبّةٍ
ولا مُرْتقٍ من خَشْيةِ الموْتِ سلّما(١)

وقال لأصحابه : احملُوا على بَرَكَةِ الله . وحارب حتى قُتل .

ورُوي أنه دخل على أمهِ أسماءَ وهي عليلةٌ ، فقال : يا أُمّهْ . إنّ في الموت لراحةً . فقالت : يا بنيّ ؛ لعلّك تتمنّى موتي فو الله ماأحبُ أن أموتَ حتى تأْتيَ على أحد طرفَيك ، فإما أن تَظْهرَ بعدوّك فتقرّ عيني وإماأن تُقْتل فأحتسبك . قال : فالتفتَ إلى أخيه عروة (٢) وضحك .

(١) البيت للحصين بن الحمام المرى .
(٢) عروة بن الزبير ، المدنى الفقيه ، جمع العلم والسيادة وكان يصوم الدهر ، ولد سنة ٢٩ هـ وتوفي سنة : ٩٤ هـ .

فلما كان في اللّيلةِ التي قُتل في صبيحتها دخل في السّحَرِ عليها فشاورها ، فقالت : يا بُنيّ لا تجيبَنّ إلى خُطَّة تخافُ على نفسك القتلَ . قال : إنّما أخافُ أن يُمَثّلوا بي . قالت : يا بنيّ ؛ إن الشاةَ لا تألَم السَّلْخَ بعد الذَّبْحِ .

حجّت أمُّ حَبيب بنتُ عبد الله بن الأهْتَم فبعث إليها الحسنُ بنُ علي بن أبي طالب عليهما السلام فخطبها ، فقالت : إنّي لم آتِ هذا البلد للتّزويج ، وإنما جئت لزيارة هذا البيت فإذا قدمت بلدي وكانت لك حاجةٌ فشأنَك. قال : فازداد فيها رَغْبَةً ، فلمّا صارتْ إلى البصرْة أرسل إليها فخطبها ، فقال إخوتها : إنّها امرأة لا يُفتَاتُ على مثلها برأي ، وأتوها فأخبروها الخبرَ ، فقالت : إنْ تزوّجني على حُكْمي أجبتُه . فأدوا ذلك إليه فقال : امرأةٌ من تميم ، أتزوّجها على حُكمها . ثم قال : وما عسى أن يبلغَ حُكْمُها لها ؟ قال : فأعطاها ذلك . فقالت : قد حَكَمْتُ بصداقِ أزواج النبي صلى الله عليه وبناته ؛ اثنَي عَشَرَ أوقيةً . فتزوّجَها على ذلك ، وأهدى لها مائة ألفِ درهم . فجاءت إليه فبَنَى بها في ليلة قائظة على سطْح

لا حظَار (١) عليه ، فلمّا غلبته عينه أخذتْ خمارها فشدّته في رجله ، وشدّت الطّرفَ الآخر في رجلها .

فلما انتبه من نومه رأى الخمار في رجله . فقال : ما هذا ؟ قالت : أنا على سَطح ليس عليه حِظَار ، ومعي في الدار ضَرَائرُ ، ولم آمنْ عليك وَسَنَ النّوم ، ففعلتُ هذا حتى إذا تحركتَ تحرّكتُ معك . قال : فازداد فيها رغبة ، وبها عجباً . ثم لم يلبثْ أن مات عنها فكلّموها في الصلح عن ميراثه . فقالت : ما كنتُ لآخذ له ميراثاً أبداً ، وخرجت إلى البصرة ، فبعثَ إليها نَفَرٌ يخطبونها منهم يزيدُ بن معاوية وعبدُ الله بن الزّبير وسعيدُ بن العاص (٢) وعبد الله بن عامر (٣) فأتاها إخوتها فقالوا لها : هذا ابنُ أمير المؤمنين . وهذا ابن عمّةِ رسول الله صلى الله عليه ، وهذا ابنُ حَوَارِيّه ، وهذا ابنُ عامرٍ أميرُ البصرة .

---

(١) الحظار بفتح الحاء وكسرها : بناء يمنع السقوط من السطح .

(٢) سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص الأموي ، قائد وأمير شجاع افتتح طبرستان ، توفي سنة ٥٩هـ .

(٣) عبد الله بن عامر الأموي أمير قائد ولاه عثمان على العراق وافتتح خراسان وأطراف فارس وتوفي سنة ٥٩هـ .

اختاري من شئت منهم . قال : فردّتهم جميعا . وقالت : «ما كنتُ لأتّخذُ حَمَاً بعد ابنِ رسولِ الله صلى الله عليه .

وقال المدائني : أُتِيَ عُبيدُ الله بن زياد(١) بامرأةٍ من الخوارج ، فقطع رجلها وقال لها : كيفَ ترين ؟ فقالت : إنّ في الفكر في هول المُطَّلَع لشُغْلاً عن حَديدتكم هذه . ثم قطع رجلها الاخرى وجَذَبها ، فوضعتْ يدها على فَرْجِها . فقال : إنك لتسترينَه . فقالت : لكنّ سُمَيَّةَ أمّك(٢) لم تكن تستره .»

قال المهديّ للخيزُرانِ أمّ موسى وهارونَ ابنيه : إن موسى ابنَك يتيهُ أن يسألني حَوائجَه . قالت : ياأميرَ المؤمنين ، ألم تكُ أنت في حياة المنصور لاتَبْتدئُه بحوائجك وتُحب أن يبتدئك هو ؟ فموسى ابنكَ كذلكَ يحبُّ منك . قال : لا ، ولكنّ التّيهَ يمنعه . قالت : ياأميرَ المؤمنين ، فمن أينَ أتاه التيه ؟ أمن قِبلي أم قِبَلك ؟

---

(١) عبيد الله بن زياد ، الذي أرسل الجيش للحسين فقتله ، ولي العراق بعد أبيه ، قتله المختار الثقفي سنة ٦٧هـ .

(٢) تريد : أم أبيه زياداً .

رُوِيَ عن بعضهم أنه قال : بينا أنا ذات يوم بالبادية ، فخرجت في بعضِ الليالي في الظُّلَم ، فإذا أنا بجاريةٍ كأنَّها عَلَم . فأردتُها على نفسِها فقالت : ويحك ! أمالكَ زاجرٌ من عقلٍ إذْ لم يكنْ لك نَاهٍ مِنْ دِينٍ ؟ قلت لها : واللهِ مايرانَا شيءٌ إلا الكواكبَ . قالت : ويحك . وأين مُكَوكِبها ؟ !

قال الجاحظ : لما مات رَقَبَة بن مَصْقَلَة(١) أوصى إلى رجلٍ ودفع إليه شيئاً . فقال : ادفعْه إلى أختي . فسأل الرَّجلُ عنها فخرجت إليه فقال لها : أحضريني شاهدين يشهدانِ أنك أخته . فأرسلت جاريتَها إلى الإمام والمؤذِّن ليشهدَا لها . واستَنَدتْ إلى الحائط . فقالت : الحمدُ للهِ الذي أبْرزَ وَجهي ، وأنطَقَ عني ، وشَهَرَ بالفاقةِ اسمي . فقال الرَّجل : شهدتُ أنكِ أخته حقاً . ودفعَ الدَّنانير إليها ، ولم يَحْتَجْ إلى شهادةِ مَنْ يَشهد لها .

خطب سعيدُ بن العاص عائشةَ بنتَ عثمان . فقالت : لا أتزوّجُ به واللهِ أبداً ، فقيلَ لها : ولم ذلك ؟ قالتْ :

---

(١) رقبة بن مصقلة العبدي الكوفي ، من سادات العرب ، كان ثقة مفوها ، توفي بعد سنه ١٤٠هـ .

لأنّه أحمق ، له بِرْذَونانِ أشْهبان ، فهو يتحمل مؤونة اثنينِ واللونُ واحد .

ذكر رجلٌ من قريش سوءَ خلُق امرأته بين يدي جاريةٍ له كانَ يتَحَظّاها فقالت له : إنّما حُظوظُ الإماءِ لسوءِ خلائِقِ الحَرائِر .

اختلف الحجاج وهِنْدُ بنتُ أسماءَ بنِ خارجةَ في بنات قَيْنٍ ، فبعث إلى مالك بن أسماء(١) فأخرجه من الحبس ، وسأله عن الحديث فحدثه ثمّ أقبل على هند . فقال لها : قومي إلى أخيك . فقالت : لاأقوم إليه وأنتَ ساخطٌ عليه . فأقبل الحجاجُ على مالكٍ فقال : إنك واللهِ — ماعلمتُ — للخائنُ لأمانتهِ ، اللئيمُ حَسَبُه ، الزّاني فَرْجُه . فقالت هند : إنْ آذن الأميرُ تكلّمت فقال : تكلّمي . فقالت : أما قول الأميرِ : الزّاني فرجُه ، فواللهِ لهو أحقرُ عند اللهِ وأصغرُ في عين الأميرِ من أن يَجِبَ لله عليه حدٌّ فلا يقيمَه .

---

(١) مالك بن أسماء بن حارجه الفزاري شاعر من الأشراف ، توفي سنة نيف ومائة هجرية .

وأمّا قول الأمير : اللئيمُ حسبُه فوالله لو علمَ مكانَ رجلٍ أشرفَ منه لصاهرَ إليه .

وأمّا قولُه : الخائنُ أمانته . فوالله لقد ولاّه الأميرُ فوفّر ، فأخذه بما أُخذ به فباعَ ماوارة ظهْرِه . ولو ملكَ الدّنيا بأسرها لافتدى بها من مثل هذا الكلام .

أتى البَرَدُ على زَرْعِ عَجوزٍ بالبادية ، فأخرجت رأسها من الخباءِ ونظرتْ إلى الزّرع قد احترق فقالت — ورفعت رأسها إلى السماء — : اصنعْ ماشئتَ فإنّ رزقي عليك .

قيل لرابعة(١) : إنّ التزوج فرضُ الله عز وجل فلم لاتتزوجين ؟ فقالت : فرضُ الله قطعني عن فرضه .

كانت عاتكةُ بتْ زيد بن عمرو بن نفيل(٢) عند عبد الله بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه فقُتل عنها ، فخلف عليها عمرُ بنِ الخطاب فقتل عنها ، فخلف عليها

(١) رابعة العدوية العابدة الزاهدة ولدت سنة ١٠٠هـ وتوفيت سنة ١٨٠هـ

(٢) عاتكه بنت زيد القرشية العدوية ، كانت من المهاجرات للمدينه ، كانت تحضر صلاة الجماعة في المسجد .

الزبيرُ ، فقُتل ، فخلف عليها محمدُ بن أبي بكر فقُتل(١) .
فقال عبد الله بن عمرَ : من سرّه الشهادة فليتزوج عاتكة .
فبلغها ذلك فقالت : من سرّه أن يكون بيضةَ البلد ، حبْلى لاتطيرُ ولاتلد ، فليكن كعبد الله . فبلغ ذلك عبدَ الله بن جعفر الطيّار(٢) فضحك وقال : ماهو كما قالت إنه لمصباحُ بلد ، وابنُ كَهْفِ الإسلام .

وقد روي عن أميرِ المؤمنين كرّم الله وجهه أنه قال : من اشتاق إلى الشّهادة فليتزوج عاتكة .

قال بعضهم : مررتُ على هند بنت المهلّب ، فرأيت بيدها مغزلاً تغزل به ، فقلت لها : تغزلين ؟ قالت : نعم سمعت أبي يذكره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أعظمُكُنّ أجراً أطولُكُنّ طاقة ، وهو يطرد الشيطان ويذهب بحديث النّفس » .

---

(١) هو : ابن أبي بكر الصديق ، ولي مصر من قبل علي ، أرسل إليه معاوية جيشا فهزم ، وقتل سنة ٣٨هـ .
(٢) أحد أجواد العرب ، ولد بالحبشة ، وهو آخر من رأى الرسول من بني هاشم . توفى سنه ٨٠هـ .

ورُوي عن عائشة أنها قالت : المِغزلُ في يد المرأة مثلُ الرُّمْحِ في يد الغازي .

قيل للخنساء : لم يكن صخرٌ كما وصفتِ . قالت : وكيف ذاك ؟ فوالله لقد كان نَدِيَّ الكَفَّين ، يابسَ الجنبين ، يأكلُ ماوجده ، ولايسأل عما عهده .

قيل لحُبى(١) المدينية : ماالسقم الذي لايبرأ ، والجرح الذي لايندمل ؟ قالت : حاجةُ الكريم إلى اللئيم لايُجدي عليه . قيل : فما الشّرف ؟ قالت : اعتقادُ المِنَنِ في أعناق الكرام ، يبقى للأعقاب على الأحقاب .

ذَكَرَ نسوةٌ أزواجهنّ فقالت إحداهن : زوجي عَوني في الشدائد ، والعائدِ دونَ كلّ عائد ، إنْ غضبتْ عَطَف ، وإن مرضتُ لَطُف .

وقالت الأخرى : زوجي لما عَناني كافٍ ، ولما أسقَمني شافٍ ، عناقُه كالخلد ، ولايملُّ طولَ العهد .

---

(١) حبى المدينة امرأة كانت مزواجا على كبر سنها .

وقالت الأخرى زوجي الشعارُ(١) حين أُجردُ ، والأنسُ حين أُفردُ ، والسَّكَنُ حين أَرْقُدُ .

قال بعضهم : رأيتُ بالمدينةِ امرأةً بين عينيها سَجَّادَةٌ ، وعليها ثيابٌ مُعَصْفَرَةٌ ، فقلت لها : ما أبعد زِيَّكِ من سَمْتِكِ ! فقالتْ :

وَلله مِنّي جانبٌ لا أُضيعُه
وللّهو مِنّي جانبٌ ونصيبُ

قال الزّبير بن بكار(٢) : قالت بنتُ أختي لزوجي : خالي خيرُ رجل لأهلِه ، لا يتّخذ ضَرَّةً ولا يشتري جارية . فقالت المرأة : واللّهِ لهذه الكُتُبُ أشدُّ عليَّ من ثلاثِ ضرائرِ .

حجّتْ فاطمةُ بنتُ الخَرْشَبِ الأنمارية أمُّ الكَمَلَةِ ؛ الربيعِ وعمارةَ وقيسٍ وأنَسٍ ، وكانت حجتها هذه في الجاهلية ، فقال لها رجل من أهل مكّة : من أشرفُ

---

(١) الشعار : الثوب الذي يلبس على الجسد ويلي الشعر فيه .

(٢) الزبير بن بكار الزبيري ، قاضي مكة ، إخباري مؤلف ، توفي سنة ٢٥٦هـ .

ولدك ؟ قالت : الربيعُ . لا بل عمارةُ . لا بل قيسٌ . لا بل أنسٌ . ثَكِلتُهُم إنْ كنتُ أدري أيُّهم أسْوَدُ .

وكان يقالُ للربيع الكامل ، ولأنسٍ الطويل ، ولقيس الوقّاعة ، ولعمارة دَالِق وإنما قيل له ذلك أنه كان يَدْلُق الخَيْل في كل وجه .

خرجَ محمدُ بن واسع(١) في يوم عيد ومعه رابِعَةُ : فقال لها : كيف تَرَين هذه الهيئة ؟ فقالت : ما أقولُ لكم ؟ خرجتُم لإحياء سُنَّةٍ وإماتةِ بِدْعَةٍ ، فأراكُمْ قد تباهيتُم بالنِّعْمةِ ، وأدخلتُم على الفقير مَضَرَّةً .

قالت امرأةٌ من بني تَغْلب للجَحَّاف بن حَكيم(٢) في وقعة البِشْر التي يقول فيها الأخطل . :

لقد أوْقَعَ الجَحَّافُ بالبِشْرِ وقعــةً
إلى اللهِ فيهَا المشتكَى والمعوَّلُ

فَضَّ اللهُ عمادَك ، وأكْبَى زِنَادَك ، وأطالَ

---

(١) محمد بن واسع الأزدي من الورعين العباد . توفي سنة ١٢٣هـ .

(٢) الجحاف بن حكيم بن عاصم السلمي ، عاش في أيام عبد الملك بن مروان ، وله حروب مع بني تغلب .

سُهادَك ، وأقلَّ زادَك ، فو اللّه إنْ قتَلْتَ الإنساءَ أسافِلُهُنّ دُمًى وأعاليهنّ ثُدِيٌّ — وكان قد قتلَ النّساء والذُرّية — فقال لمن حوله : لولا أنْ تلدَ مثلها لاستبقيتُها وأمر بقتلها . فبلغ ذلك الحسنَ البصَري فقال : إنّما الحَجّافُ جَذْوةٌ من نارِ جهنّم .

قال أبوعمرو بن العلاء(١) : خرجتُ ذاتَ ليلة أطوف ، فإذا أنا بامرأة قد فضحَ وجهُها ضوءَ القمر متعلّقة وهي تقول : إلهي ، أما وجدتَ شيئاً تُعذّبُ به إلا النار . ثم ذهبتُ ، فنمتُ ثم عدتُ فوجدْتُها ودَيْدَنُها أن تقول ذلك . قلت : لو عذّبَ بما سوى النار ، فكان ماذا ؟ قالت : يا عمّاه ، أمّا واللّهِ لو عذّب بغير النّارِ لقضينا أوْطاراً .

قال بعضهم : كنت عند فاطمة بنت المهلّب أعرض عليها طيباً فقمتُ وتركتُ المتاع بين يديها ، فلما جئتُ قالت : بِئْس ما صنعت ، لا تأمننّ امرأةً قطّ على رجُل ولا على طيب .

* * *

---

(١) قيل : اسمه كنيته ، وقيل : اسمه زبان بن جبر ، عالم أهل البصرة ، ومن أوسعهم علما بكلام العرب ، توفي سنة ١٥٤ هـ .

الباب الثالث

الحيل والخداع

قدَّم بعضهم رَجُلاً إلى القاضي وادَّعى عليه مالاً فقال : صَدَقُوا ، أسألُهم أن يؤخروني حتى أبيعَ مالي أو عقاري أو رقيقي أو أبلي . فقالوا : كَذَبَ أيها القاضي . ماله قليلٌ ولا كثيرٌ . ولكنّه يريدُ مُدافعتَنا فقال : أصلحكَ اللّه . فقد شهدُوا بالعُدْم . فخلّى سبيلَه .

قال بعضهم : خرجتُ ليلةً فإذا أنا بالطائف قد أقبل : فلما رأيتهُ من بعيد صحتُ : المسْتَغاثُ باللّه وبالطائفِ فقال لي الطائفُ : مالك ؟ قلت : قومٌ سكارى في بيتي قد عربدوا ، وسلّوا السكاكين ، وجئت في طَلبكَ لتخلّصَني منهم فقال : امشِ بين يديَّ . فمشيتُ ودخلت البيتَ ، وأغلقتُ الباب ، وصعدتُ السَّطح ، وتطلّعت عليه وقلت : انصرفْ مأجوراً فقَد تصالحوا .

سُئل بعضهم عن رجل أرادوا أن يزوّجوه فقال : إنّ له شَرَفاً وبَيْتاً وقَدَماً(١) فنظروا فإذا هو ساقِطٌ . سِفْلَةٌ . فقيل له في ذلك ، فقال : ما كذبت . شرفُه أذُناه ، وقَدَمُه التي يمشي عليها ، ولابدّ من أن يكونَ له بيتٌ يأوي إليه .

لما بايع الرشيدُ وِلَدَه تخلّف رجلٌ مذكورٌ من الفُقَهاء ، فأحضره وقال له : لِمَ تَخَلّفْتَ عن البيعة ؟ قال : عاقني يا أميرَ المؤمنين عائقٌ . فأمر بقراءة كتاب البيعة عليه . فلما قُرئ قال : يا أميرَ المؤمنين هذه البيعةُ في عنقي إلى قيامي الساعَة . فلم يفهم الرّشيد ما أراد ، وقدّر أنّه يريدُ إلى قيام الساعةِ . وذهب ما كانَ في نفسِه عليه .

قيل لبعض الفقهاء : لم استجزْتُمُ استعمال الحِيَل في الفقه ؟ فقال : اللّه تعالى علّمنا ذلك فإنّه قال : « وخُذْ بيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِب بِهِ وَلا تَحْنَثْ(٢) » .

---

(١) القدم : السابقة

(٢) سوره ص : ٤٤ ، وفي التفاسير ، أن سيدنا أيوب حلف ليضرب امرأته مئة سوط فقال له الله تعالى : خذ حزمة فيها مائة عود فاضربها بها ضربة واحدة . . والضغث : الشمراخ .

جحد رجلٌ مالَ رجلٍ فاحتكمَ إلى إياس بن معاوية(١) فقال للطّالب : أين دفعتَ إليه هذا المالَ ؟ قال : عند شجرة في مكان كذا . قال : فانطلقْ إلى ذلك الموضع لعلّك تتذكرُ كيفَ كان أمرُ هذا المال ، ولعلّ اللّه يوضحُ لك سبباً . فمضى الرجلُ وخصمهُ فقال إياس بعد ساعة : أترى خصْمَك بلغ موضعَ الشجرة . قال : لا بَعْدُ . قال : يا عدوَّ اللّه ، أنتَ خائن . قال : أقلْني أقالك اللّه . فاحتفظَ به حتى أقرّ وردّ المال .

قال معاويةُ لعمرو : أنتَ أدهى أم أنا ؟ قال عمرو : أنا للبديهة وأنتَ للأناة . قال : كلا . قال عمرو : أدْنِ منّي رأسَك أسارّكَ ، فأدنى رأسَه فقال عمرو : هذا من ذاك . هل ها هنا أحدٌ غيرك .

قال المغيرةُ بنُ شعبةَ : ما خدعني غيرُ غلامٍ من بني الحارثِ بنِ كعب . فإنّي ذكرتُ امرأةً منهم فقال : أيها الأميرُ لا خيرَ لكَ فيها . قلت : ولم ؟ قال : رأيتُ

---

(١) إياس بن معاوية قاضي البصرة ، يضرب بذكائه المثل ، توفي سنة ١٢٢هـ .

رجلاً يقبّلُها . فأضربتُ عنها فتزوّجها الفتى . فأرسلتُ إليه : ألم تعلمْني كذا وكذا من أمرها . قال : بلى رأيت أباها يقبّلها .

كان لعبد اللّه بن مُطيع غلامٌ مُوَلَّدٌ قد أدّبه وخرّجه وصيرّه قهرمانه ، وكان أتاهم قومٌ من العدوّ في ناحية البحر . فرآه يوماً يبكي فقال : مالك ؟ قال : تمنّيتُ أن أكون حراً ، فأخرجُ معَ المسلمين . قال : وتحب ذاك ؟ قال : نعم . قال : فأنت حرٌّ اوجه اللّه فاخرج . قال : فإنه قد بَدا لي ألاّ أخرج . قال : خدعتني واللّه .

كان عُمَرُ بنُ هُبيرة(١) أمياً لا يقرأ ولا يكتب . وكان إذا أتاه كتاب فتحه ونظرَ فيه كأنّه يقرؤه فإذا نهض من مَجْلِسه حُمِلَت الكتُب معه . فيدعو جاريةً كاتبةً ويدفع إليها الكتبَ فتقرؤها عليه ويأمُرها فتوقعُ بما يريد ، ويُخرج الكتاب ، فاسترابَ به بعضُ كُتّابه فكتب كتابا على لسان بعض العمال وطواهَ مُنكَّساً أعلاهُ

---

(١) أمير العراقين : عزله هشام سنة ٩٧هـ ، وتوفي حوالي سنة ١٠٣هـ.

إلى أسفله ، فلمّا أخذه ونظرَ فيه ولم ينكرْه تحقّق أنه أُمّيٌّ .

قال بعضُ القُضاة لرجل : كيف أقبلُ شهادتَك وقد سمعتك تقول لمغنّية : أحسنت ؟ قال : أليس إنما قالتْ ذلك بعد سكوتها . فأجاز شهادته .

أُتي معنُ بنُ زائدةَ (١) بثلاث مئة أسيرٍ من حَضْرَموت فأمرَ بضرب أعناقهم ، فقام منهم غلامٌ حين سالَ عِذاره فقال : أنشدك الله أن تقتلنا ونحن عِطاشٌ فقال : اسقوهم ماء فلمّا شربوا قال : اضربوا أعناقهم . فقال الغلام : أنشدك اللهَ أن تقتلَ ضيفانَك . قال : أحسنت . وأمر باطلاقهم .

كان بالأهواز رجل له زوجةٌ ، وكانت له أرضٌ بالبصرة ، فكان يُكثر الانحدارَ إليها فارتابَتْ زوجتُه وتَتبّعتْ أثره ، فوقفت على أنّه قد تزوّج بالبَصرة فاحتالَتْ حتّى صار إليها خطٌّ عَمٍّ البَصريّة ، وبعثت

---

(١) أمير قائد شجاع ولي سجستان وقتلته الخوارج سنة ١٥١ هـ .

به إلى رجل يحكي كلّ خطّ رآه ، وأجازته ، حتى كتب كتاباً عن لسان عمّ البصريّة إلى روحها بذكر أنّ المرأةَ قد ماتتْ ، ويسأله التعجيلَ إليه لأخذ ما تركتْ وسَمّى مالها وجاريتَها . ودَسّت الكتاب مع مَلاّحٍ قادم من البصرة ، فلمّا وصل إليه الكتابُ قرأه فلم يشكّ فيه ، ودخل وقال لامرأته : اعملي لي سُفْرة . قالت : ولم ؟ قال : أريدُ البصرة . قالت : كم هذه البصرة ؟ ! قد رابني أمرك . لعلّ لك بها امرأة ، فأنكر ، فقالت : احلفْ . فحلف أن كلّ امرأة لهُ غيرَها طالقٌ ، سكوناً إلى أن تلكَ قد ماتتْ ، وما يضرُّه ذلك . فلمّا حلف قالت : دَعِ السُّفرة . قد أغناك الله عن البَصرة . قال : وما ذاك ؟ قالت : قد طلّقت الماسقة . وحدّثتْه بالقصّة فندم .

قال الأعمش (١) : أخبرني تميمُ بنُ سَلمة أن رجلاً شهد عند شُرَيْحٍ (٢) وعليه جُبّةٌ ضيقةُ الكُمّين .

---

(١) سليمان بن مهران الأعمش ، محدث الكوفة وعالمها ، كان له دعابة ، توفي سنة ١٤٨هـ .

(٢) ابن الحارث الكندي ، ولي القضاء لعمر وتوفى سنة ٧٨هـ .

فقال شريح: أتتوضّأ وعليك جبّتك هذه؟ احسرْ عن ذراعك. فحسرَ، فلم يبلغ كُمُّ جُبّته إلى نصفِ السّاعد. فردّ شهادته.

قدّمت امرأةٌ زوجَها إلى أبي عمرَ القاضي، وادّعتْ عليه مالاً. فاعترف به فقالت: أيّها القاضي خُذ بحقّي ولو بحبسه. فتلطّفَ لها لئلا تحبسه، فأبتْ إلا ذلك، فأمر به. فلما مشى خُطُوات صاح أبو عمر بالرّجل وقال له: ألستَ ممّنْ لا يصبرُ على النساء؟ ففطِنَ الرّجلُ فقال: بلى أصلح الله القاضي. فقال: خذْها معك إلى الحبْس. فلمّا عرفت الحقيقةَ ندمتْ على لجاجِها وقالت: ما هذا أيّها القاضي؟ قال: لكِ عليه حقٌّ، وله عليك حقٌّ. ومالَكِ عليه لا يُبطل مالَهُ عليك. فعادت إلى السّلاسة والرِضا.

أخذ عبدُ الملك رجلاً كان يرى رأيَ الخوارج فقال له: ألسْتَ القائلُ:

ومِنّا سُوَيدٌ والبطينُ وقَعْنَبُ
ومنّا أميرُ المؤمنينَ شَبيبُ

فقال : إنما قلت : ومنّا أميرَ المؤمنين وناديتُك ، فخلّى سبيله .

كان يختلف إلى أبي حنيفة رجلٌ يتجمّلُ بالستر الظاهر ، والسمْتِ البيّن فقدم رجلٌ غريبٌ وأودعه مالاً خطيراً ، وخرج حاجّاً ، فلمّا عادَ طالبه بالوَديعة فجحَده . فألح الرّجلُ عليه فتمادى ، فكاد صاحبُ المال يَهيمُ ، ثم استشار ثِقةً له فقال له : كُفَّ عنه ، وصِرْ إلى أبي حنيفة ، فدواؤك عنده . فانطلق إليهِ وخلا بهِ وأعلمه شأنه ، وشرح له قصّته فقال له أبو حنيفة : لاتُعْلِمْ بهذا أحدا ، وامضِ راشدا ، وعُدْ إليّ غدا . فلمّا أمسى أبو حنيفة جلسَ كعادتِه للنّاس . وجعلَ كلّما سُئل عن شيء تنفّس الصُّعداءَ . فقيل له في ذلك فقال : إنّ هؤلاءِ — يعني السّلطان — قد احتاجُوا إلى رجل يبعثونه قاضيا إلى مكان . وقالوا لي : اخترْ من أحببتَ . ثم أسبل كُمّه وخلا بصاحب الوديعه ، وقال له : أترغبُ حتى أُسمّيكَ . فذهب يتمنّع تمنّيه . فقال له أبو حنيفة : اسكت فاني أبلغ

لك ما تحبّ . فانصرف الرّجل مسروراً يظنُّ الظّنونَ بالجاه العريض ، والحال الحسنة .

وصار ربُّ المال إلى أبي حنيفة فقال : امض إلى صاحبكَ ولا تخبره بما بيننا ، ولوِّحْ بذكري وكفاكَ ، فمضى الرجلُ واقتضاه وقال له : ارددْ علي مالي وإلا شكوتك إلى أبي حنيفة . فلما سمعَ ذلك وفّاه المال . وصارَ الرّجُلُ إلى أبي حنيفة وأعلمهُ رجوع المال إليه فقال له : استرْهُ عليه .

ولما غدا الرجلُ إلى أبي حنيفة طامعاً في القضاء نظر إليه أبو حنيفة وقال له : نظرتُ في أمركَ فرفعتُ قدْرَكَ عن القضاء .

أتى وكيعُ بنُ أبي سودٍ (١) إياسَ بن معاوية وهو قاضٍ ليشهد عنده بشهادة . فقال : مرحباً بك يا أبا مطْرّف ، ما جاء بك ؟ قال : جئت لأشهد . قال : مالك وللشّهادة . إنّما يشهد الموالي والتجار والسُّقاط . قال :

---

(١) وكيع بن حسان بن أبي سود التميمي ، ولي خراسان بعد قتيبة ابن مسلم حتى نزعها منه يزيد بن المهلب .

صدقت وانصرف . فقيل له : خدعك ولم يقبل شهادتك وردّك . فقال : لو علمت لعاوته بالقضيب .

كان أبو بُرْدة (١) ولي القضاء بعد الشعبي (٢) بالكوفه . فكان يحكم بأن رجلاً لو قال لمملوك لا يملكه : أنت حرّ . أنه يُعتق ويُؤخذُ المعتِقُ بثمنه .

قال : فعشق رجلٌ من بني عبس جاريةً لجارٍ له فجُنّ بها وجنّتْ به ، وكان يشكو ذلك إليها . فلقيها يوماً فقال لها : إلى الله أشكو . قالت : بلى والله إنّ لك الحيلةَ ، ولكنك عاجزٌ . هذا أبو بُردة يقضي في العتق بما قد علمت . فقال لها : أشهدُ إنك لصادقةٌ .

ثمّ قدّمها إلى مجلس يتجمع فيه قومٌ يعدلون فقال : هذه جاريةُ آل فلان أشهدكم أنها حرّة . فألقت ما حملته على رأسها . وبلغ ذلك مواليها فجاؤوا فقدّمتهم الى أبي بردة وقدّموا الرّجل فأنفذ عتقها ، وألزمَ الرّجل ثمنَها . فلما أمر به إلى السجن خاف إذا ملكت أمرها أن تصيرَ

---

(١) أبو بردة بن أبي موسى الأشعري قاضي الكوفة . توفي سنة ١٠٤ هـ

(٢) عامر بن سراحيل الشعبي ، عالم زمانه ، ولد لست سنين من خلافة عثمان وتوفي سنه ١٠٤هـ

إلى أوَّل مَنْ يطلبها ، وأن تخيبَ فيما صنع في أمرها .
فقال : أصلح الله القاضي ، لابدّ من حبسي ؟ قال : نعم أو تُعْطِيَهُم ثمنَها . قال : فليس مثلي يُحبَس ني شيء يسير . أشهدُكم أنّي قد أعتقتُ كلّ مملوكٍ لأبي بُرْدَةَ ، وكل مملوكٍ لآل أبي موسى ، وكل مملوك لمذحِج . فخلّى سبيله ، ورجَع عن ذلك القضاء فلم يحكم به .

كتب معاوية إلى عمرِو بنِ العاصِ والمغيرةِ بنِ شُعْبَةَ أن يقدما عليه ، فقدم عمرو من مصرَ والمغيرة من الكوفة فقال عمرو للمغيرة : ماجمعنا إلا ليعزلَنا ، فإذا دخلت عليه فاشك الضّعفَ واستأذنْه أن تأتيَ الطائفَ أو المدينةَ ، فإنّي إذا دخلت عليه سألتُه ذلك فإنه يظنّ أنا نريد أن نُفسد عليه .

فدخل المغيرة فسأل أن يُعفيَه ويأذن له . ودخل عليه عمرو فسأله مثلَ ذلك . فقال له معاوية : قد تواطأتما على أمر ، وإنكما لتريدان شرّاً . ارجعا إلى عمليكما .

كان الإسكندرُ لايدخلُ مدينةً إلاّ هدَمها وقتلَ أهلها حتّى مرّ بمدينة كان فيها مؤدّبُه . فخرجَ إليه

وأَلْطَفَهُ الإسكندرُ وأعظمَه فقال له مؤدِّبُهُ : إن أحقَّ من زَيَّنَ رأيكَ وسدَّده وأتى كلَّ ماهويتَ لأنا ، وإنَّ أهلَ هذه المدينة قد طمعوا فيك لمكاني منك فأنا أحبُّ ألاَّ تشفِّعني فيهم ، وأن تحلفَ لي يميناً أعتذرُ بها عند القوم فاحْلف لي عندهم أنك لاتُشَفِّعُني في شيء أسألُكَ ، وأن تخالفَني في كل ماسألتُك . فأعطاه من ذلك مالا يقدرُ على الرجوع عنه في دينه ، فلمّا توثّق منه قال : فإنّ حاجتي أن تدخلَها وتخرِّبَها وتقتلَ من فيها . قال : مالى ذلك سبيل ولابدّ من مخالفتك وقد كنتَ مؤدِّبي وأنا إليك اليومَ أحْوَجُ . فلم يدخلها وضمّه إليه.

أصابت المسلمين جَوْلةٌ(١) بخُراسانَ ، فمرّ فيهم شُعْبةُ بن ظَهير على بغلة له فرآه بعض الرجالة فتقدّر(٢) له على جِذْمِ(٣) حائط ، فلمّا حاذَى به حال في عَجُزِ بغلته . فقال له : اتّقِ اللهَ فإنها لاتحملُني وإيّاك .

---

(١) الجولة . الفرار من العدو ثم العودة إلى قتاله .

(٢) تقدر . تهيأ

(٣) الجذم . الأصل .

قال : امضِ ، فإني والله ماأقدرُ أنْ أمشيَ . قال : إنَّك تقتلني وتقتلُ نفسك . قال : امضِ فهو ماأقولُ لك . قال : فَصَرَفَ شُعبة وجهَ البغلةِ قِبَلَ العدوّ . فقال له : أين تريد ؟ قال : أنا أعلمُ أني مقتول ، فَلأن أُقْتلُ مقبلا خيرٌ من أن أقتَلَ مُدْبِرا . فنزل الرّجلُ عن بغلته وقال : اذهبْ في حُرَق الله .

اشترى شريكُ بنُ عبد الله(١) جاريةً من رجل فأصابَ بها عيباً ، فقال للّذي اشتراها منه : قد ظهر بها عَيْبٌ . قال : ماعليك . هي رخيصة ، وإن أحببتَ بِعْتُها لك بربح . قال : فافعلْ . فدفعَ الجاريةَ إليه وأقام أيَّاماً ثم أتاه فقال له : لم أُصِبْ بها ثمناً أرضاه . فقال له شريك : فخذها واردُد عليَّ الثمنَ . فقال له الرّجل : أبعدَ ماوكّلتني لأبيعَها ورضيتَ ، تردُّها عليَّ ؟ فقال : صدقتَ ، والله خدعتني .

ورأى عمرُ بنُ الخطّابِ رضي الله عنه ابنَه عبدَ الله جالساً مع رجلٍ فقال له : يابنيَّ ، احذرْ هذا ، لاتشترينّ

---

(١) شريك بن عبد الله النخعي القاضي ، فقيه إمام توفي سنة ١٧٧هـ .

منه شيئاً ، فإنه يتبرأ إلى الرجلِ من العيب ، والرَّجلُ لايفطن لذلك .

قال : فمرَّ عبدُ الله بنُ عمرَ بذلك الرّجلِ يوما ومعه غلامٌ وَضيءٌ ، فقال له : تبيعه ؟ قال : نعم . قال : بكم ؟ قال : بكذا . قال له : هل به عيبٌ . قال : ماعلمت أنّ به عيباً إلا أنّا ربما أرسلناه في الحاجةِ فيبطىءُ فلا يأتينا حتى نبعثَ في طلبه . فقال عبد الله : وماهذا ؟ فاشتراه منه .

فلما صار إليه أرساه في حاجة فهرب ، فطلبه أيّاماً حتّى وجده ، فأتى صاحبَه ليردَّه عليه بالإباق ، فقال له : ألم أخبرْك أنّا ربّما أرسلناهُ في الحاجةِ فلا يرجعُ حتّى نرسلَ في طلبه ؟ فعلم أنه قد خدعه .

قيل لأعرابي : أتشرب قدحاً من لَبَنٍ حازرٍ(١) ولا تتنحنح ؟ قال : نعم . فأخذه في حلقه مثلَ الزجاج ، فقال : كَبْشٌ أملحْ . فقيل له : إنك تَنَحْنَحْتَ . فقال : من تنحنحَ فلا أفلح . ومدَّ صوته فقضى وطره .

---

(١) الحازر . الحامض .

قال عبَيْد الله بن زياد بن ظبيان(١) : إياكم والطّمعَ فإنه يردي . والله لقد هممت أن أفتِك بالحجّاج ، فإني لواقفٌ على بابه بديْرِ الجَماجِم(٢) ، إذا بالحجاج قد خرجَ على دابة ، ليس معه غيرُ غلام ، فأجمعتُ على قتلِه فكأنه عَرَف مافي نفسي فقال : ألقيتَ ابنَ أبي مُسلم ؟ قلت : لا . قال فالقَه ، فإن عهدَك معه على الريّ . قال : فطمعتُ وكفَفْتُ فأتيتُ يزيدَ بنَ أبي مسلم فسألتُه فقال : ماأمرني بشيء .

وقال عمرو بن يزيد الأسَيِّدي : خِفنا أيّام الحجاج ، وجعلنا نودّع متاعَنا ، وعلم جارٌ لنا ، فخشيتُ أن يُظْهِرَ أمرَنا ، فعَمَدْتُ إلى سَفَط فجعلتُ فيه لبنا ودفعته إليه ، فمكثَ عنده حتى أمِنّا . فطلبتُ منه ، فقال لي : أمَا وجدت أحدا تودعه لبناً غيري .

توجّه عمرو بن العاص حين فتح قيْسَاريّة(٣) إلى

---

(١) أحد فتاك العرب ، ومن خطبائهم وهو الذي حمل رأس مصعب ابن الزبير إلى عبد الملك .

(٢) دير بظاهر الكوفة على بعد سبعة فراسخ منها .

(٣) هناك مدينتان بهذا الاسم في فلسطين والروم والمراد هنا التي من أعمال فلسطين .

مصر وبعث إلى علْجها(١) فأرسل إليه : أن أرسلْ إليّ رجلاً من أصحابك أكلِّمْه . فنظروا فقال عمرو : ماأرى لهذا أحداً غيري . فخرج ودخل على العِلْج ، فكلّمه فسمعَ كلاماً لم يسمعْ مثلَه قَطُّ ، فقال : حدّثني . هل في أصحابك مثلك ؟ قال : لاتسل عن هواني عليهم ، إلاّ أنهم بعثوني إليك وعرّضوني لماعرّضوني لايدرُون ماتصنع بي .

فأمر له بجائزة وكسوة وبعثَ إلى البَوّاب : إذا مرَّ بك فاضربْ عُنُقَهُ ، وخُذْ مامعَه .

فخرج من عنده ، فمرَّ برجلٍ من نصارى العَرَبِ من غَسّانَ فعرَفه فقال : ياعمرو ، إنك قد أحسنتَ الدخولَ فأحسنِ الخروجَ . فرجعَ فقال له الملكُ : ماردّك ؟ قال : نظرتُ فيما أعطيتَني فلم أجدْهُ يسعُ بني عمّي ، فأردتُ أن أجيئكَ بعشرة منهم تعطيهم هذه العطيّةَ ، وتكسوهم هذه الكُسْوَةَ ، فيكون معروفُك عند عشرةٍ خيراً من أن يكونَ عند واحدٍ . قال : صدقتَ . فاعجَلْ بهم . وبعث إلى البوّاب أن خلِّ سبيلَه ، فخرجَ عمرو

---

(١) العلج : الرجل من كفار العجم .

وهو يلتفتُ حتى إذا أَمِنَ قال : لا أعود لمثلها أبدا . فما فارقها عمرو حتى صالحه ، فلما أُتِيَ بالعلجِ قال : أنت هو ؟ قال عمرو : نعم على ما كان من غَدْرِكَ .

قُدِّم هُدْبة بنُ الخَشْرمِ(١) ليُقادَ بابن عمّه زِيادَةَ ، وأخذ ابنُ زيادَ السَّيفَ وقد ضُوعِفَتْ له الدِيَةُ حتى بلغتْ مئة ألفِ دِرْهَمٍ فخافت أمُّ الغلامِ أن يقبلَ ابنُها الدِيّةَ ولا يقتلَه فقالت : أُعطي اللّهَ عهداً لئن لم تقتله لأتزوّجنّه فيكون قد قتلَ أباك ونكحَ أمّكَ . فقتله .

وحدَّث المدائنيّ أن قوماً من المسلمين أسروا قوماً من الرّومِ وكان فيهم فتَيانِ إخوة فضربوا أعناقَهم ، وأخذوا أمّهم وهم لايعرفونها ، فأحبَّت أن تُقتلَ ولا تبقى بعدَ وَلَدِها ، فقالت للّذي صارتْ إليه : إنْ علَّمتُكَ شيئاً تتّخِذُهُ فلا يَحيك فيكَ السِّلاحُ ، تُخَلّي سبيلي ؟ قال : نعم . فأخذت أشياءَ سترتْها عنهُ فطلَتْ بها رَقَبتها وقالت : دونك اضربْ وشُدَّ ،

(١) هدبة بن الخشرم بن كرز شاعر فصيح من بادية الحجاز ، كان راويه للحطيئة .

فإن السَّيفَ لا يعملُ فيَّ . فضرب رقبتها فحزَّ رأسها فعلم أنها خدعته .

لما بلغ يزيدُ ومروانُ ابنا عبدِ الملك لعاتكةَ بنتِ يزيدَ بنِ معاويةَ (١) قال لها عبد الملك : قد صار ابناك رجلين ، فلو جعلتِ لهما من مالك ما يكونُ لهما به فضيلةٌ على إخوتهما . قالت : اجْمَعْ لي أهلَ مَعْدَلةٍ من مواليَّ ومواليك . فجمعهم وبعث معهم روحَ بنِ زِنْبَاعٍ الجُذَاميّ — وكان يدخل على نسائِهم — فدخل كهولتُهم وجلَّتهم وقال له : أخبرها برضائي عنها ، وحَسِّنْ لها ما صنعتْ . فلمَّا دخلوا عليها أخذَ روحٌ في ذلك فقالت : يا روحُ ، أتراني أخشَى على ابنيَّ عَيْلة وهما ابنَا أمير المؤمنين ، أشهدكم أني قد تصدّقت بمالي وضياعي على فقراءِ آل أبي سفيان . فقام رَوْح ومن معه . فلمَّا نظر إليه عبدُ الملك مقبلاً قال : أشهدُ باللّه لقد أقبلتَ بغير الوجهِ الذي أدبرتَ به . قال : أجلْ . تركتُ معاويةَ في الإيوان آنفاً . وخبّره بما كان . فغضب .

(١) عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، أم يزيد بن عبد الملك توفيت حوالي سنة ١٢٠هـ .

فقال : مَهْ يا أمير المؤمنين ، هذا العقلُ منها في ابنيْكَ خير لهما ممّا أَرَدْتَ .

قال المدائني : أتيَ عليٌّ عليه السلام برجل ذي مروءة قد وجبَ عليه حدٌّ . فقال لخصمائه : ألكم شُهود؟ قالوا : نعم . قال : فأتوني بهم إذا أمسيتمْ ولا تأتوني بهم إلاّ مُعْتَمّين . فلما أمسوا اجتمعوا فأتوه ، فقال لهم علي عليه السلام : نشدتُ اللّه رجلاً للّه عندَه مثلُ هذا الحدّ إلاّ انصرفَ قال : فما بقي أحدٌ فدرأ الحدّ .

عرض شُرَيْحٌ ناقةً للبيع ، فقال له المشتري : كيف غزارتُها ؟ قال : احلبْ في أيِّ إناء شئتَ .قال : فكيف وثاقتُها : قال : احملْ على الحائط ما شئتَ . قال : فكيف وطاؤها ؟ قال : افرشْ ونمْ . قال : كيف نَجاؤها (١) قال : هل رأيتَ البرقَ قَطُّ ؟

قال بعضهم : ركضَ رجلٌ دابّةَ وهو يقول : الطّريقَ ، الطّريقَ . فصدمَ رجلاً لم يُنَحَّ ، فاستعدى عليه فتَخَارسَ الرجلْ فقال العاملُ : هذا أخرسُ .

---

(١) النجاء : السرعة والسبق .

قال : أصلحك اللّه . يتخارسُ عمداً ، واللّه مازال يقول : الطّريقَ . الطّريقَ . فقال الرجلُ : فما تريدُ وقد قلت لك الطّريقَ ؟ قال العامل : صدقَ .

قال : كانت ابنةُ عبدِ اللّه بنِ معروفٍ عند أبي حَرْثان فماتَ ، ولم يصل إليها لقوّتها . فتزوجها أبو دُلَفٍ(١) . فكانت تمانعه سنة لا يصلُ إليها . فقال له مَعْقِلٌ أخوه : ما أنت برجل . وقد عجزت عن امرأة . فقال : أحبُّ أن تبعثَ جاريتك فلانَة تكلّمُها . فبعث بها وأمر أبو دُلَفٍ امرأته أن تلويَ العمودَ في عنقِ الجارية إذا أتتْها وتتركَهُ . ففعلت فرجعت إلى معقل فقال : أشهدُ أنّ أخي معذورٌ . فما قدر عليها أبو دلفٍ حتّى احتالَ عليها . بأن قال لها يوما : ما أظنّك ببكرٍ . فأمكنتْ من نفسها .

كان بالكوفة لعبد الملك بن رامين مولى بشر بن مروان(٢) جارية يقال لها : سلاّمةُ الزّرقاء . وكان

---

(١) أبو دلف بن عيسى العجلي ، أمير شاعر ممدح ، توفي سنة ٢٢٥ هـ .

(٢) بشر بن مروان أخو عبد الملك ، ولي العراقين بعد مصعب .

روحُ بنِ حاتمٍ المهلَّبيُّ(١) يهواها ولا تهواه ، ويُكثر غِشْيانَ منزل مولاها . وكان محمدٌ بن جَميل(٢) يهواها وتهواه . فقال لها : إنْ روْح بن حاتم قد ثقُل علينا . قالت : فما أصنعُ ؟ قد غمَرَ مولايَ ببرّه . قال : احتالي .

فبات عندهم روحٌ ليلة من اللّيالي فأخذت سَراويلَه فغسلته . فلمَّا أصبحَ سأل عن سراويله . فقالت : غسلناه . فظنَ أنه قد أحْدَثَ فيه فاحتِيجَ إلى غسله ، واستحيَا من ذلك . وانقطع عنها . وخلا وجهُها لابن جميل .

لما استُخلف سليمانُ بن عبد الملك دفع عُمّال أخيه الوليدِ إلى يزيدَ بن المهلّب وأمره ببسْط العذاب عليهمْ ، واستخراج المال منهم . وكان فيهم رجلٌ من بني مرّة ، فقال ليزيد : أمّا أنا فلست بذي مال ، ولا تنتفعُ بتعذيبي ولكن عشيرتي تَفُكُّني بأموالهم ، فأذن لي في أن أجولَ فيهم . فأذن له فقال لهم : إنّ أمير المؤمنين قد أخذني

---

(١) روح بن حاتم بن قبيصة المهلبي ، تولى على السند للخلفاء العباسيين ، وعزله الرشيد توفي سنة ١٧٠هـ .

(٢) محمد بن جميل كان أحد المقربين للمنصور .

بمال . والمالُ عندي . ولكن أكره أن أُقِرَّ بالخيانة . فاضمّنوا له هذا المالَ عنّي وأطلقوني من حبسه . ولا غُرمَ عليكم فإنيّ مضطلع بأداء هذا المال .

فنهض وجوهُ عشيرته في أمره ، وضمنوا المال عنه وأطلقوه . فلمّا أُخذوا بالمال قالوا للرّجل : أدّ المال كما زعمت . فقال : يا نوكى(١) . أتظنّون أنّي اختنْتُ مالاً تعرّضتُ فيه للمأثم ، وسُخْطِ الخليفة وعقوبته ، وأؤديه اليومَ طائعاً ، وقد صيرّتُ ما أطالَبُ به في أعناقكم. ابئسَ ما ظننتْم ، إغرَمُوه من أعطياتكم وأنا فيه كأحدكم ففعلوا ذلك وهو كأحدهم .

همَّ الأزارقةُ(٢) بقتل رجل فنزَعَ ثوبَه واتّزَرَ ولبّى وأظهرَ الإحرامَ فخلّوا سبيلَه لقول اللّه جلّ وعزّ « لاَ تُحِلّوا شَعَائِرَ اللّه» (٣) .

غضب المأمونُ على رجل وقال : لأقتلنّك ولآخذنّ

(١) النوكى : الحمق .
(٢) الأزارقة : فرقة من الخوارج .
(٣) سورة المائدة : ٢ .

مالك . اقتلوه . فقال أحمدُ بنُ أبي دؤاد(١) : إذا قتلتَه فمن أين تأخذ المال ؟ قال : من ورثته . فقال : إذاً تأخذ مال الورثة . المالُ للورثة .وأمير المؤمنين يأبى ذلك . فقال : يؤخَّرُ حتى يُستَصفى ماله . فانقرض المجلسُ وسكنَ غضبُه وتوصَّلَ إلى خلاصه .

جاءت امرأةٌ إلى أبي حنيفة فقالت : إنّ زوجي حلف بطلاقي أن أطبخَ قِدرا أطرحُ فيها مكّوكا(٢) من الملح فلا يتبين طعم الملح فيما يؤكل منها . فقال لها : خذي قِدْراً واجعلي فيها الماء واطرحي فيها مكوك ملح ، واطرحي فيها بيضاً واسلقيه ، فإنّه لا يُوجد طعم الملح في البيض .

افتعلَ رجلٌ كتاباً عن المأمونَ إلى محمد بن الجَهْم في دفع مال إليه ، فارتابَ به محمد ، وأدخله على المأمون . فقال المأمونُ : ما أذْكُرُ هذا . فقال الرجلُ : أكلَّ

---

(١) أحمد بن أبي دؤاد قاضي القضاة للمعتصم ، كان مذهبه الاعتزال ، وكان جواداً فصيحاً ممدحاً توفي سنة ٢٤٠ هـ .

(٢) المكوك . مكيال يسع صاعاً ونصفاً .

مَعْروفَكَ تذكر يا أميرَ المؤمنين ؟ قال : فلعلَّ هذا ممّا نسيتَ وقد فعلتَ . قال : ادفع إليه يا محمد ما في الكتاب .

كان حُوثَة الضّمريُّ صديقاً لعبد الملك وخرج مع ابن الزبير فلمّا قُتل ابنُ الزبير استاء من النّاس وأُحضرَ حوثةُ فقال له عبد الملك : كنتَ منّي بحيث علمتَ فأعنتَ ابنَ الزّبير . قال : يا أمير المؤمنين ، هل رأيتني قطُّ في حرب أو سباقٍ أو نضالٍ إلاّ والفئةُ مغلوبة بخرقي ، وإنّما خرجت مع ابن الزبير لتغلبه بي على رسمي . فضحك عبد الملك وقال : قد واللّه كذبت ولكنّي قد عفوت عنك .

قالت خيرة بنت ضَمْرة القُشيرية امرأة المهلّب للمهلّب : إذا انصرفت من الجمعة فأحبُّ أن تمرّ بأهلي . فقال لها : إن أخاك أحمق . قالت : فأُحب أن تمرَّ بنا . فجاء وأخوهُا جالس فلم يوسّعْ له فجلس المهلّبُ ناحيةً ثم أقبلَ عليه فقال : ما فعل ابنُ عمّك فلانٌ ؟ قال : حاضرٌ : قال : أرسلْ إليه . ففعل فلمّا نظر إلى المهلّبِ غيرَ مرفوعِ المجلسِ قال : يابنَ اللّخناء ، المهلّب

جالسٌ ناحية ، وأنتَ في صدرِ المجلس وواثبه . فتركه المهلّب وانصرفَ فقالت له خيرةُ : أمَررت بأهلي ؟ قال : نعم وتركتُ أخاكِ الأحمقَ يُضرَبُ .

قالوا : إنّ الحجّاج بن يوسف قال ذات يوم لمحمّد ابن عُمير بن عطارد (١) : اطلُب لي امرأة حسيبةً أتزوّجها : قال : طلبتُها إن زُوِّجتهَا . قال : ومن هذا هذا الّذي يمتنع من تزويجي ؟ قال : أسماءُ بن خارجة (٢) . يدّعي أنّه لا كُفءَ لبناته إلاّ الخليفةُ .

قال : فأضمرها الحجّاج إلى أن دخلَ إليه أسماءُ فقال : ما هذا الفخرُ والتّطاولُ ؟ قال : أيّها الأمير ؛ إنّ تحتَ هذا سبباً . قال : بلغني أنّك تزعُمُ أن لا كفء لبناتك إلا الخليفةُ . فقال : والله ما الخليفةُ بأحبِّ أكفائهنّ إليّ ، ولَنُظرائي من العشيرةِ أحبّ إليّ منه ، من خالطني منهمْ حفِظني في حرمتي ، وإن لم يحفظْني

(١) محمد بن عمير بن عطارد ، كان سيد أهل الكوفة .

(٢) أسماء بن خارجة بن حذيفة ، من أشراف العرب ، توفي سنة ٦٦هـ .

قدرت على أن أنتصفَ منه والخليفةُ لا تَنتَصفُ إلاّ بمشيئته . وحُرمتُه مَضيعة مطّرحة يقدم عليها من ليس مثلها . ولسانُ ناصرها أقطع . قال : فما تقول في الأمير ؟ . فإنّ الأمير خاطبٌ هنداً . قال : قد زوّجتُه إيّاها بصداقِ نسائها . وحوّلتها إليه .

فلما أتى على الحديث حولان دخل إلى الحجّاج فقال : هل أتى الأميرَ ولدٌ ، نُبشَّرُ ونَحمَدُ الله على هنته . قال : أما من هند فلا . قال : ولد الأمير من هند وغير هند عندي بمنزلة . فقال : والله إني لأحبُّ ذلك من هند . قال : فما يمنع الأمير من الضَّرْ (١) ، فإن الأرحامَ تتغاير . قال : أو تقول هذا القول وعندي هندٌ قال : أحبّ أن يَفشُوَ نَسلُ الأمير . قال : فممّنْ ؟ قال على الأمير بهذا الحيّ من تميم ، فنساؤهم مناجيب . قال : فأيّتهنّ ؟ قال : ابنةُ محمد بن عمير . قال : إنه يزعمُ أن لا فارغةَ له . قال : فما فعلتْ فلانة ابنته ؟

فلما دخل إليه محمدُ بن عمير قال : ألا تزوّج الأمير ؟ قال : لا فارغةَ لي : قال : فأين فلانةُ ؟ قال : زوّجتُها

---

(١) الضر : اتخاذ الضرة .

من ابنِ أخي البارحة . قال : أحضر ابنَ أخيك ؛ فإن أقرَّ بها ضربتُ عنقَه . فجيء بابن أخيه ، وقد أبلغ ما قال الحجاجُ . فلما مَثُل بين يديه قال : باركَ الله لك يا فتى . قال : في ماذا ؟ قال : في مصاهرتك لعمِّك البارحة . قال : ما صاهرته البارحة ولا قبلَها . قال : فانصرف راشداً . ولم ينصرفْ محمدٌ حتّى زوّجه ابنته .

وحضر بعد ذلك يوماً من الأيّام جماعةٌ من الأشرافِ بابَ الحجاجِ فحجب الجميعَ غير أسماءَ ومحمدٍ . فلما دخلا قال : مرحباً بصهري الامير سلاني ما تريدان أسعفْكما فلم يُبقيا عانياً إلاّ أطلقاه . ولا مُجَمَّراً (١) إلا أقْفَلاه (٢)

فلما خرجا أتْبَعهُما الحجّاجُ بمن يحفظُ كلامهما . فلما فارقا الدار ضرب أسماءُ يَده على كتفِ محمدٍ وأنشأ يقول :

---

(١) تجمير الجند : إبقاؤهم في الثغور . والعاني : الأسير .
(٢) أقفلاه : أرجعاه .

جزيتُك ما أسديتَه يابنَ حاجب
وفاءً كعرْفِ الديكِ أو قُذَّةِ (١) النسر

في أبيات كثيرة . فعاد الرجل فأخبر الحجاج فقال : لله درّ ابنِ خارجة ! إذا وُزن بالرّجال رَجَح .

أُتي زيادٌ برجل فأمر بضرب عُنقه . فقال : أيّها الأميرُ ، إن لي بك حرمةً قال : وما هي ؟ قال : كان أبي جارَك بالبصرة . فقال : ومَن أبوك ؟ قال : قد والله نسيتُ اسمَ نفسي ، فكيف اسمَ أبي ؟ قال : فردَّ زيادٌ كُمّه إلى فمه وضحك وخلّى سبيلَه .

مرّ زيادٌ بأبي العُريان (٢) فقال : مَن هذا ؟ فقالوا زياد بن أبي سفيان . فقال : رُبَّ أمر قد نقضه الله ، وعبدٍ قد ردّه الله . فسمعها زيادٌ فكره الإقدامَ عليه وكتب بها إلى معاوية ، فأمره بأن يبعث إليه بألفِ دينار ، ويمرّ به ويسمع ما يقول . ففعل زياد ذلك ، ومرَّ به فقال من هذا ؟ قالوا : زياد . فقال رحم الله أبا سفيان ، لكأنّها تسليمتُه ونَغْمته . فكتب بها زياد إلى معاوية فكتب إلى أبي العريان :

---

(١) قذة النسر : مقطع ريشه .
(٢) أبو العريان . شاعر .

مَـا لَبِثْتَ كَ دنانيرٌ رُشيتَ بها
أن لَوَّنتَكَ — أبا العُريان — ألوانا

فدعا أبو العريان ابنه وأملى عليه إلى معاوية :

مَن يُسدِ خيراً يجدْهُ حيثُ يطلبُه
أو يُسدِ شرّاً يجدْه حيثما كانـــا

تقدّم رجلٌ إلى سوّارٍ ، وكان سوّارٌ له مبغضا فألحّ عليه فقال له سوّار في بعض مخاطبته : يابن اللخناء (١). فقال : ذاك خصمي . فقال الخصم : أعدني عليه . فقال له الرّجل : خذْ لهُ بحقّه وخذ لي بحقّي . ففهم . وسأله أن يغفرَ له .

قالوا : لما حُبس الحلاّجُ (٢) عندَ القشوريّ ، مرضَ ابنٌ له ، واشتهى التفاحَ الشاميّ ، وكان لا يصابُ لفوتِ أوانِه ، فتلطّف الحلاج واحتال حتى سأله القشوريّ تفاحة شاميّةً ، قصد بها ليعرف أمر الحلاج في صدقِه وكذبه ، وأراد أيضاً بلوغ مراده في

---

(١) اللخناء : المتننة الرائحة .

(٢) المنصور بن الحسين الحلاج ، كان يقول بتناسخ الأرواح والحلول ، وقيل أنه ادعى الألوهية ، وافتتن به كثير من الناس ، صلب ثم قتل سنة ٣٠٩هـ . وأحرقت جثته .

ولده . وكان الحلاجُ قد أعدّ تفاحةً لذلك فحينَ سأله أومأَ بيده هكذا وأعادها بتفّاحةٍ . وتناولها القشوري يقلّبها ويتعجبُ منها والحلاج يقول : السّاعةَ قطعتُها من شجرِ الجنّةِ . قال القشوريُّ : إني أرى في موضع منها عَيباً . قال الحلاّج غيرَ مُطْرِقٍ ولا مُكْتَرِثٍ : أما علمتَ أنها إذا خرجتْ من دارِ البقاءِ إلى دار الفَناءِ ، لحقها جزءٌ من البلاء . فكان جوابُه أحسنَ من فعله وحيلته .

أُتي مصعَبُ بنِ الزُّبير برجلٍ من أصحاب المُخْتار (١) . فأمرَ بضرب عنقه . فقال : أيها الأميرُ ، ما أقبحَ بكَ أن أقومَ يومَ القيامةِ إلى صورتك هذه الحسنةِ ، ووجهك هذا الّذي يُستَضَاءُ به . فأتعلّقَ بأطرافك وأقول : يا ربِّ . سلْ مُصْعباً لماذا قتلني ؟ فقال : أطلقُوه فقال : أيها الأميرُ ، اجعل ما وهبتَ لي من حياتي في خَفْضِ عيشٍ . قال : أعطوه مئة ألف درهم .

* * *

(١) هو المختار بن أبي عبيد الثقفي ، من زعماء الثائرين على بني أمية قتله مصعب وهو أمير البصرة عام ٦٧ هـ .

فهارس السفر الثاني من نثر الدر

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

٥٠٠٠ ط ١٩٩٧/٥/١

طبع في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٧

سعر النسخة داخل القطر

١٧٥ ل.س

في الأقطار العربية ما يعادل

٣٥٠ ل.س